مطالع السعادة في اقتران كلمتي الشهادة

تأليف

الإمام المشارك الخطيب الداعية
أبي الجمال محمد الطاهر بن الحسن الكتاني الحسني
١٢٩٩هـ - ١٣٤٨هـ

تصحيح وضبط وتقديم

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: **Maṭâli^c al-sa^câdah fî iqtirân kalimatay al-šahâdah**
Author: Muḥammad al-Ṭâhir al-Kattâni
Editor: Muḥammad Ḥamzah ben ^cAli al-Kattâni
Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages: 304
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: مطالع السعادة
في اقتران كلمتي الشهادة
المؤلف: الإمام محمد الطاهر بن الحسن الكتّاني
المحقق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتّاني
الناشر: دار الكتب العلميـــــة ـ بـيروت
عدد الصفحات: 304
سنة الطباعة: 2007 م
بلد الطباعة: لبنـــان
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4637-8
9 782745 146373 90000

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي قرن اسمه باسم نبيه سيدنا محمد ﷺ في الاعتقاد والتشريع، وجعل شكره من شكره، والإيمان به من الإيمان به، ليبلغ عليه الصلاة والسلام أعلى مقامات الترفيع، فكان الإيمان بالنبي جزءا من الإيمان بالله، وكلامه من وحيه تعالى زيادة رفعة في الجاه. نحمده حمد من شكر وما كفر، وفهم عن الله مراده واعتبر، وتعرف إليه تعالى بالبرزخ المحمدي، وتنقل في الشريعة بين التراب والروح السرمدي، فجمع الشرائع مع الطرائق، والرسوم مع الحقائق.

وصلى الله وسلم على النبي الذي أكمل به الله تعالى الدين، وجعله رحمة ومنشأ للعالمين، رفع به الإصر الذي كان على الأمم السالفة والأغلال، وفتح به باب اليسر والرحمة والإكمال، فتميز به الدين، وتمايز به أهل الحق من أهل الباطل المعتدين، وربط الروح بالشريعة، والشريعة بالحياة. صلى الله وسلم عليه وعلى آله، عدد ما في نعم الله الكريم وإجلاله.

وبعد؛ فيسعدني أن أقدم لكتاب "مطالع السعادة في اقتران كلمتي الشهادة" لابن خال والد جدي الإمام العالم، الخطيب الداعية إلى الله تعالى، الجهور بالحق، الذاكر العابد العارف، المدرس المفيد، المؤلف المكثر، الناقد المحرر الأثري؛ أبي الفضل وأبي الجمال محمد الطاهر بن الحسن الكتاني الإدريسي الحسني، المتوفى رضي الله عنه عام 1348 بفاس،

والذي يعد أول كتاب للمؤلف تظهره المطابع الحديثة بإذنه تعالى.

يعتبر هذا الكتاب - الموسوعة، خزانة فريدة في الكمالات المحمدية، وتعداد مزايا سيد الوجود الظاهرة، وبعض الباطنة، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بحيث ندر، بل يكاد يعدم، ما كتب على منواله، مع علم جم، وتحقيق واسع، وروح صافية عاشقة في الجناب المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم. بحيث لا غنى للمحب العاشق عنها، ولا بديل للباحث في موضوعها سواها.

يتحدث هذا الكتاب المبارك عن اقتران كلمتي الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهما الكلمتان اللتان قام بهما الدين، واعتلت سنن المهتدين، ورفع الله بهما لواء الحق على لواء الباطل فكان زهوقا.

والمقصود باقتران كلمتي الشهادة: اقتران توحيد الله تعالى والإيمان به وبصفاته وما تقتضيه وما يتجلى عنها؛ بالإيمان بنبوة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، بمعنى أنه: لا إيمان بطرف منهما إلا بالإيمان بالطرف الآخر، فهما لازمان متلازمان، لا غنى لأولهما عن الآخر.

والإيمان بالله تعالى معناه: الإيمان بالقرآن الكريم وما أتى به من العقائد والشرائع؛ إذ الله تعالى لم يتعرف لنا سوى عن طريق قرآنه، فعدم الإيمان بالقرآن الكريم كفر بالله تعالى، وإيمان بالعدم والوهم، فكل وصف للخالق تعالى إنما هو فيه، وكل تكليف، وكل توجيه.

وكذلك الإيمان بالنبي ﷺ وعلى آله؛ إنما هو بالإيمان بحديثه ﷺ، وما بلغنا عنه من الآثار الصحاح، فهو ﷺ إنما عرفناه بحديثه، فإنكار الحديث إنكار لنبوته ﷺ، إذ مقتضى نبوته: أخباره وتوجيهه وتشريعه، والحديث تشريع لكافة مرافق الحياة من آداب إلى سلوك، إلى شرائع وقوانين وسياسة...

فاقتران الكلمتين الشريفتين هو تكامل الشريعة، وامتزاج منبعيها وهما الكتاب والسنة المنتجان لها، وانصهار سلسلة عالم الملك الذي نعيشه ونراه،

بعالم الملكوت الرباني الذي نؤمن به غيبا ولا نراه.

ولذلك؛ من آمن بالله تعالى ولم يؤمن بكتابه فلا إيمان له، ومن آمن بالله تعالى ولم يؤمن بالنبي ﷺ فلا إيمان له كذلك، ومن آمن بالنبي ﷺ ولم يؤمن بسنته فلا إيمان له.

وتبلغ أهمية كتاب "مطالع السعادة" - خاصة في العصر الحالي - في بلورة العقيدة الأساسية للإسلام، والرد على الماسونيين والحداثيين وأذنابهم القائلين بالإله الواحد الذي يؤمن به جميع الأديان، وما سوى ذلك إنما هو ثقافة اجتماعية وإنسانية لا يضر الاختلاف فيها، وأن الإيمان بالنبي ﷺ ليس شرطا في الإيمان.

وكذلك في الرد على القائلين بضياع الحديث والسنة، وعدم الإيمان بها، وأنها اندثرت باندثار الصحابة الكرام، كما يصرح به علمانية مدعي الإسلام في هذا العصر، وهو الأمر البعيد كل البعد عن نفحات الإسلام.

كما أنه يعد كتابا أساسيا في الرد على أعداء الإسلام الحاليين الذين تجاهروا - لعنهم الله - بالتنقيص من هذا النبي الكريم، ولمزه - بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم - غافلين عما ميزه الله تعالى به من الكمالات العظام، والمزايا الجسام، وما فضيحة الجرائد البلجيكية والأوروبية التي نشرت كاريكاتورات مسيئة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أمر بابا النصارى - دمره الله - بندكت السادس عشر الحالي، الذي طعن في النبي الكريم، ما أمر ذلك ببعيد، وما كان ذلك منهم إلا غيظا من هذا الدين الكريم، والرسول العظيم، وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118]. ولله در الإمام البوصيري القائل:

عجبا لليهود زادوا ضلالا بالذي للعقول فيه اهتداء!

وهو في خصوص موضوعه رد على بعض الطرق الصوفية التي آثرت أثناء الذكر إفراد كلمة التوحيد عن الإيمان بالنبوة قصدا، من أجل اعتقادهم زيادة

الأولى أهمية عن الثانية. وهذا الكلام - وإن كان ظاهريا صحيحا من حيث الإيمان بالمربوب إنما هو وسيلة للإيمان بالرب تعالى - فهو غير صحيح البتة من حيث أنه لا إيمان بالله تعالى إلا بالإيمان بنبيه ﷺ:

مـا عـرفـنـا الـلـه إلا بـالـحـبـيـب مـولاي مـحـمـد

ولا شك أن الذكر وسيلة لمعرفة المذكور، ومعرفة الحق تعالى اقتصارا دون معرفة نبيه ﷺ، أو جعل معرفة النبي ﷺ ثانوية إلى معرفة الله تعالى، يورث انفصاما في ركني الإيمان الذين لا يتم بغيرهما، سواء على مستوى العقيدة، وعلى مستوى الشريعة، وعلى مستوى التربية الروحية.

ولذلك آثرت تقديم هذا الكتاب - وإن لم أقم بتحقيقه في هذه الطبعة لكثرة الشواغل، واكتفيت بضبطه وعزو آياته، وعنونته - وتسهيله للقارىء وتقريبه، من خلال عدة مباحث ألخصها في التالي:

1 - تعريف كلمتي الشهادة

كلمتا الشهادة هما: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

لا إله: نفي لوجود أي إله، فلا النافية، تعني عدم الوجود الحسي والمعنوي، الحسي كالأصنام، والأنواء، والعباد، والطواغيت، والحكام، وعلماء السوء، وأولياء الباطل.

ومعنوي؛ كالقوانين الوضعية، والعادات والطقوس، وما هو في حكم ذلك.

والإله؛ هو كل ما عبد، وقصد بصرف العبادة والنية في الأفعال والأقوال، ولوحظ في الباطن، واعتُصم بحبله تمسكا ومنافحة.

إلا: أداة استثناء، فبعد النفي المطلق، ومحو الاعتقاد والجنان من كل راسب إله صنعه الهوى، وتنقيته من كل وجود للسوى، دخلت أداة الاستثناء، وهو استثناء مفرغ، مفيد لتحقيق ما بعد الاستثناء، والاقتصار عليه حسا ومعنى.

الله: رب العزة والجلال، فهو - سبحانه - الإله الواحد، الموصوف بجميع صفات الاستبداد والكمال، الأحد الذي لا شريك له، المستقل بصفات الألوهية، الفاعل في الوجود وحده. والأهل لأن تفرد له العبودية، فهو الرب تعالى الذي نصرف إليه نياتنا، ونلتجيء في دعواتنا، ونلاحظ أوامره ونواهيه، وأحكامه في سائر تحركاتنا وسكناتنا.

محمد: النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ابن عبد الله بن عبد المطلب، الرجل العربي الهاشمي القرشي، الذي جاء بالوحي والقرآن، والمعجزة المثبتة للرسالة التي لا يساويها ولا يعادلها برهان.

رسول الله: مبعوث من الله تعالى بالرسالة، وهي: القرآن والشريعة، وفي الحديث: "إني أوتيت القرآن وأوتيت مثله معه"، فهو موصوف بكل ما يتصف به الرسول الأمين من الصفات؛ وهي الصدق والأمانة، والعدالة، والعصمة، وسلامة الحواس. فهو الواسطة بين الله تعالى: معرفته، شريعته، إلينا، ولولاه لما عرفنا الحق تعالى، ولما عرفنا شريعته ولا دينه.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه أنه: سمع النبي ﷺ وعلى آله يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: 34]، قال: "فقلت: إنا لسنا نعبدهم"، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟". فقلت: "بلى". قال: "فتلك عبادتهم!"

فلا إله إلا الله؛ قصرٌ للعبودية وجميع متعلقاتها على الله تعالى، باعتقاد أنه النافع الضار، القابض الباسط. . .إلخ أسمائه الحسنى، بيده الأمر وهو على كل شيء قدير، ليس ذلك لغيره في الوجود، فيصرف إليه تعالى نيته، ويقصر عليه توكله وعمله، ولا يرى غيره أهلا لشيء من ذلك.

وأعلى من ذلك: أن يرى الوجود كله إنما هو منفعل بأمر الحق تعالى، وتجل لقدرته وصفاته ومشيئته، وجودا وتصرفا، فيكون له من كل متحرك في

الوجود أو ساكن دليل على الحق تعالى يشاهد فيه صفة من صفاته، ونعتا من نعوته، وحكمة من حكم الحق تعالى. فيخاطبه ويعامله وينفعل له بمقدار ما شاهد فيه من عظمة الحق جل جلاله، فيخاطبه الحق تعالى، ويفهم منه خطابه. وهو المسمى عند الخاصة بوحدة الشهود، ووحدة الوجود.

ومقتضى "محمد رسول الله" ﷺ وعلى آله؛ أن يكون اعتقاده في الحق تعالى طبق ما علمناه النبي ﷺ وعلى آله، فلا يسبقه عقله على الآثار، ولا فهمه على السنن، ويلتزم في كل أمر إلهي هدي النبي ﷺ وعلى آله، في القول والصفة والعمل، إذ كل بدعة إنما هي شرود عن هديه الكريم، وكل شرود إنما هو شرود عن الحق تعالى في الحقيقة.

2 - تلازم كلمتي الشهادة

حيث كان النبي ﷺ رسول رب العالمين، وواسطة الرسالة إلينا، كما أسلفنا ذكره، والمترجم عن الحق جل ذكره أوامره، وسائر دينه؛ صار لا إيمان بالله تعالى إلا بالإيمان بنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ هو صورة الأوامر الإلهية إلينا، ولا نتوصل إلى معرفة الله تعالى، ولا إلى معرفة أحكامه إلا من طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم واسطة الإيمان بالله تعالى، وعدم الإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم، تكذيب لما جاء به، وهو صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء إلا بأمر الله تعالى ونواهيه، فاقتضى ذلك الكفر بأوامر الله تعالى ونواهيه، ومعرفته التي عرّفنا بها، فاقتضى الكفر بالله عز وجل.

فلا إله إلا الله، نعرف مقتضاها عقلا، ولكن لا نعرف ماهيتها ومبتناها، إلا بواسطة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فهما لفظتان متداخلتان، متشابكتان، لا انفصام بينهما، ولا يتصور أصلا ذلك.

قال الشيخ أبو الفيض قدس سره في رسالته في وجوب اقتران لفظي التوحيد: "إن هاتين الكُليمتين الشريفتين متقاربتان كما قال اليوسي، لا تقوم

إحداهما بدون الأخرى، شرعا وعقلا".

"أما شرعا؛ فلأن الإيمان لا يقبل من أحد اليوم إلا بمجموعهما، ألا ترى أن من لم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ فهو كافر؟، وإن وحد الله أو لم يوحد فهو كافر، وإن آمن بالرسل؟. ولأجل هذا التقارن يكتفى بالأول كثيرا، نحو: من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة".

"وأما عقلا؛ فلأن الأولى مادة للثانية، والثانية مظهرة للأولى، وبيان ذلك: أن الألوهية منها نشأت الرسولية وظهرت، فكانت الأولى مقتضية للثانية باقتضاء السبب للمسبب، والثانية مقتضية للأولى على العكس...إلخ". فانظره[1].

كما أن "لا إله إلا الله" لا مدلول لها ولا معنى إلا بكون نبي يعرفنا بالله تعالى، وبصفات الاستبداد له سبحانه، معرفة لا تدركها العقول، ولا تستوعبها الحواس..فهب أن ثمة إلها، ولا إله إلا هو؛ فكيف نتعرف إليه ويتعرف إلينا إلا بوجود الوساطة التي هي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وخاتمتهم هو "محمد رسول الله" ﷺ وعلى آله.

ومن هنا؛ فإن أي معرفة للحق تعالى ولصفاته ولهديه خارج طريق النبي ﷺ وعلى آله تعتبر معرفة باطلة، أو في حكم الباطل، لأنها جاءت من غير الطريق الذي أراد الله تعالى أن تأتي، فلو توافقت مع الهدي النبوي في بعض؛ فلا تعدو أن تكون من باب الصدفة، ولا أجر ولا ثواب ولا توفيق بها، لأنها لم تخالطها نية الاتباع والتسليم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

---

(1) انظر "وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى، وكلام في وجوب الأدب". تأليف الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني. ضمن "النفائس الكتانية" من رسائل الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني في الآداب والسلوك، الرسالة 6، ص178. بتحقيقنا.

وكذلك؛ فإن كون الحق تعالى لا إله إلا هو يقتضي معرفة هذا الإله المفرد، والحق تعالى لا يتعرف للخلق إلا بالوسائط، إذ لا مجانسة بينه تعالى وبيننا، وإلا فلا مقتضى للألوهية، إذ صفة الحق تعالى أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، فاقتضى أنه لا يتعرف لخلقه إلا بذلك، وما كانت الواسطة إلا بالأنبياء والرسل الذين خاتمتهم سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، فلا معنى لقول: لا إله إلا الله، إلا بقولنا: محمد رسول الله. وقولنا: محمد رسول الله، يقتضي أنه: لا إله إلا الله كما أسلفنا.

بل خصصت آية سورة "محمد" نبينا الجليل تصريحا لا تلويحا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: 1-3]. فجعل الحق تعالى من لم يؤمن بمحمد ﷺ كافرا صادا عن سبيل الله، وأنه اتبع الباطل. فكانت الحكمة من تخصيص اسم النبي ﷺ في هذه الآية - كما في أربعة مواضع من القرآن، خلافا لما عود الله تعالى عليه نبيه من خطابه بالرسول والنبي تعظيما له وتشريفا - التخصيص بسيدنا محمد بن عبد الله النبي الخاتم ﷺ وعلى آله لمن قد يتبادر لذهنه أن غيره من الرسل يشمله في المعنى[1].

---

(1) وبقية الآيات: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، ومن حكم إظهار الاسم الشريف هنا: حتى لا يتوهم متوهم عدم موته، أو أنه رفع وسيأتي آخر الزمان، وقد ظهر مصداق ذلك يوم موته واستهالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك وقوله: "من قال إن محمدا قد مات فسأضرب عنقه...". الأثر، فاستدل عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية، فلم يجد جوابا وعاد إلى رشده. ولو جاء اللفظ بغير الاسم الصريح للنبي ﷺ لاحتمل وجها آخر في محل لا يقبل التأويل.

وثانيها: آية: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]، فالمقصود هنا أن محمد بن عبد الله، النبي المعروف ﷺ لم يكن له ابن ذكر من صلبه يأتي بعده ويخلفه، كما أنه رسول ونبي خاتم لا يأتي بعده نبي، فأحرى رسول، وهو النبي الذي نزل عليه كتاب وشريعة أمر بتبليغهما. فسد ذكر الاسم الشريف هنا أي تأويل =

خلافا لما يزعمه بعض جهلة العلمانيين المعاصرين من أن الحق تعالى أورد في القرآن الكريم موسى وعيسى عليهما السلام أكثر من "محمد" ﷺ، مستدلين بذلك على عدم التفريق بين اليهود والنصارى والمسلمين، غافلين أن القرآن كله خطاب للنبي ﷺ، وتأريخ لسيرته، وتبيين لشريعته، وثناء عليه، وتصبير له، وتحفيز له، وحض على اتباعه والاقتداء به ﷺ. وقد استدل العلماء بقوله تعالى في معرض ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]، بأنه ﷺ حاز جميع فضائلهم وجمعها، فصار له من الفضل ما تفرق فيهم منة من الحق تعالى(1).

3 - لا إيمان من غير الإيمان بالنبي ﷺ

مما مضى يستخلص بأنه لا إيمان لمن لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا اعتقاد لمن لم يصدق رسالته، ويعتقد أصوبيتها، إذ ما عرّفنا حقيقة الخالق تعالى إلا الواسطة التي أرسلها إلينا لتعرفنا إياه، "ولولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط".

فكل معرفة توصلنا إلى معرفة الخالق تعالى من غير طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي معرفة خاطئة، وطريق زائفة، لا توصل إلا إلى الأوهام والتوهمات والأباطيل، ومن هنا ضل المعتزلة والباطنية، حيث أهملوا الهدي النبوي، وظنوا أنهم إنما يتوصلون للحق بالعقل استقلالا، أو بالقرآن مجردا.

=

أو إشراك محتمل إذا ذكر لفظ آخر.

وثالثها: الآية المذكورة أعلاه. ورابعها: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ...﴾ الآية [الفتح/ 29]، ففيها تصريح ظاهر بفضل أصحاب النبي ﷺ، ووصفهم والثناء عليهم خاصة دون أصحاب الرسل الأخر عليهم السلام، وتأهيلهم لحمل الشريعة الخالدة والكتاب المحفوظ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته. كما يلاحظ أن جميع تلك الآيات اقترنت بعظيم التفضيل والتبجيل للنبي ﷺ وعلى آله، وبقرن اسمه بالرسالة تصريحا، وفي الثالثة تفسيرا مضعّفا: "نزّل". وأنها كلها جاءت لتشريع أمر ما متعلق بشخص النبي ﷺ وله مساس بالاعتقاد، فاقتضت التصريح بالاسم دون التلويح.

(1) هذا الاستدلال من فوائد شيخنا - سبط صاحب هذا الكتاب - العلامة العارف بالله سيدي عبد الحميد بن عمر زويتن الفاسي، حسبما شافهني به حفظه الله تعالى..

وهي طريق سلكها الناس من قبل فانقلبوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام والشمس والنار، والقانون الوضعي. . .وغير ذلك من الطواغيت.

فالمعرفة إما معرفة عقلية؛ والعقل لا يتوصل إلى معرفة سوى ما يحيط به، أما ما لا يدركه العقل فأنى له توصيفه بله معرفته؟، إذ المعرفة إنما تتنشأ من الإحساس، والإحساس لا يكون إلا بالتوصل والتواصل بالموجودات، وحيث يتعذر على العقل معرفة سائر الموجودات؛ فبالأحرى يتعذر عليه معرفة صانعها، وهو الحق تعالى. كما أنه يقتضي معرفة تلك الموجودات بفهمها أولا، وبكل جهاتها ثانيا، وباستيعابها على ما هي عليه في نفسها ثالثا، وإذا أتم ذلك؛ يعرف طرق الربط بينها كلا وجزءا، ومقتضى ذلك، وفي النهاية؛ ما الموجودات إلا شيء يسير أمام مقتضى الربوبية.

وإما أن تكون المعرفة بواسطة معرِّف، والمعرف لا يكون إلا متصلا بالمعرف به، اتصالا بالوحي أو بالكلام، ولا يكون ذلك إلا لنبي أو رسول، وخاتمهم هو النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. بل لم تبق شريعة ولا كتاب إلا كتابه ﷺ، ولا هدي ولا كلام إلا كلامه وهديه صلى الله عليه وآله وسلم، وكل من مضى قبله ﷺ من الأنبياء والرسل نسخ به صلى الله عليه وآله وسلم، بل أضاعه قومه. سواء من اليهود والنصارى، بله من دونهم.

فمع التنزل وادعاء وجود أديان، فالواقع يخالف ذلك، إذ الدين يقتضي حالة روحية دائمة تنفعل مع الموجودات والمتغيرات، وهو ما لا نلمسه في سائر "الأديان" الموجودة الآن، سماوية وغيرها، باستثناء الإسلام، لانعدام الشريعة فيها، ولذلك فلا دين إلا الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، ولهذا فإننا نرى أن الصراع الحقيقي في العالم إنما هو بين الدين واللادين، أو: الدين والهوى، ومن تحقق صراع السايسيين ومقارعة العلمانيين مع المسلمين؛ تحقق هذا الأمر عين التحقق، وأنه إنما هو صراع بين إرادة الحق تعالى ممثلة في الهدي المحمدي، وبين الهوى واتباع الشهوات، والصراع على النفوذ والمناصب. . .إلخ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: 32]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: 15]، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. . .﴾ [الجن: 23].

وقال النبي ﷺ وعلى آله فيما رواه عنه الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعا: "والذي نفس محمد بيده؛ لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار!".

بل أخذ الله تعالى العهد على الأنبياء سلام الله عليهم جميعهم إذا أدركوا النبي ﷺ وعلى آله أن يبايعوه ويومنوا به ويتبعوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: 81].

قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله: "في هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيم قدره العلي ما لا يخفى، وفيها - مع ذلك - أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلا إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ: وبعثت إلى الناس كافة. لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضا، ويتبين بهذا معنى قوله ﷺ: كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد"(1).

فمن آمن بدينه ولم يؤمن بالنبي ﷺ؛ لا إيمان له، ومن آمن بالله تعالى وأقر توحيده واستبداده وتنزيهه جل قدسه، ولم يؤمن بالنبي ﷺ ويصدقه ويتبعه

(1) نقلا عن كتاب "روضات الجنات في مولد خاتم الرسالات" ص33، تأليف الإمام أبي الهدى محمد الباقر الكتاني.

فيما أمر ونهى؛ لا إيمان له، ولا هداة له، ولا يعد في جملة المؤمنين.

4 - الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بالسنة

فلما تقرر كلمتا التوحيد، وارتباطهما ببعض، وعدم الإيمان ما لم يكن بالنبي الواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ اقتضى ذلك تعريف الإيمان بهذا النبي ما هو؟

فالإيمان بالشيء هو: الاعتقاد بصحته وأصوبيته، وهو يقتضي التصديق، والتصديق يقتضي المصدق به، وحيث إن شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم غاب في هذه الأزمان بموته ﷺ، فلم يبق إلا مقتضاه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أثره المستمر إلينا.

ولا شك أن أثره المستمر إلينا صلى الله عليه وآله وسلم، هو خصوصياته المشيرة إليه، وأبرزها كلامه وهديه، إذ كلامه وهديه هما الذان ينقلان لنا نبوته ورسالته، ولولا كلامه المفصل لهديه وشريعته، وبشائره ودلائله، وما يصل إلينا من أخباره؛ لما اعتبر له وجود، إذ لن يزيد أن يكون وجودا توهميا.

ولذلك فإن قولنا: "محمد رسول الله" يقتضي إيماننا بكل ما صحت نسبته إليه من قول وصفة وعمل، ويقتضي وجوب أن يصلنا عنه صحيحُ خبَر يكون كافيا للقيام بنبوته، وعدم إيماننا بذلك يقتضي - بالضرورة - عدم إيماننا برسالته وبهديه ﷺ.

فالرسول بمعنى: الهادي والدليل؛ إنما هو تصرفات هذا النبي الكريم وتوجيهاته، وليست إلا السنة المطهرة، فالتصديق بها واعتقاد استمرارها وصحتها تصديق بالنبوة والرسالة، وعدم ذلك كفر بالنبوة والرسالة.

ومن هنا يظهر ضلال الشرذمة المعاصرة من العلمانيين وأشباههم الذين يدعون الإيمان بالقرآن الكريم والاكتفاء به عن السنة النبوية الطاهرة البلجاء، يقولون - وقد زعموا - ما في القرآن أخذنا به، وما في السنة لا نؤمن به لدخول الحق والباطل فيه؛ فقولهم يضاهئ قول الذين كفروا في عدم الإيمان بالنبي ﷺ، وطعن في شريعته وهديه. فهم حيث شككوا في السنة النبوية؛ إنما

شككوا في رسالة النبي ﷺ وعلى آله، وأنكروا رسالته وبعثته لزوما، وفي ذلك ما فيه من عدم الإيمان بالله تعالى ودين الإسلام.

وقريب منهم الطائفة الحديثة ممن يزعمون أن للنبي ﷺ وعلى آله تصرفات وأحكاما هو فيها مشرع عن ربه تعالى، وأخرى إنما هو فيها بشر من الأبشار لسنا ملزمين باتباعه فيها، ولا هو معصوم فيها. وهذا مبطل - بالضرورة - لكثير من السنة النبوية، وفاتح الباب على مصراعيه للطعن فيها وردها بالصدر، بل أعظم بلاء وإفكا أن يؤمن المرء بصحة نسبة الحديث للنبي ﷺ ثم يخطيء نبيه فيه. وهو نهاية ما يكون في المقت عياذا بالله تعالى.

غافلين عما ورد في القرآن الكريم من الآيات الصريحة المقتضية أنه ﷺ وعلى آله لا يتصرف إلا بوحي وهدى، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7]، وقال جل جلاله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 4]. فمثلهم مثل من قال فيهم تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: 49، 50][1].

إذ لا مبرر لوجود النبوة إلا وجود مقتضاها؛ وهو: كلام النبي ﷺ وعلى آله، وهديه، ولا طريقة لفهم القرآن الكريم - كلام الحق تعالى وعلامة الوحيد - إلا بتفهيم من أرسله الحق تعالى لتوضيحه وتبيينه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، وليس إلا كلام النبوة الطاهر.

(1) انظر: "دلالة القرآن المبين على أن النبي ﷺ أفضل العالمين" لشيخنا الإمام أبي الفضل عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله ص103 فله كلام نفيس في الموضوع.

وقد أشارت الآيات القرآنية المتكاثرة، والأحاديث المتواترة، والدليل النقلي والعقلي بما لا شك فيه - كما يأتي لاحقا بإذنه تعالى - إلى حفظ السنة النبوية الطاهرة كما حفظ الله تعالى القرآن، وأنها قسم من الوحي لا قيام للدين إلا بحفظه.

5 - حتمية السنة وصحتها

وحيث قد قرر القرآن - كلام الله تعالى - بأن النبي صلى الله عليه وآله إنما هو وحي يوحى، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 1-4]، ووعد الله تعالى بحفظ وحيه، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: 21، 22].

لذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - ممثلا في كلامه وصفته وهديه - محفوظ، تكفل الله تعالى بإيصاله إلينا استمرارا لدينه وشريعته التي هي خاتمة الأديان وناسخة الشرائع، وإنكار السنة إنكار للنبوة، وإنكار للوحي، وبذلك كفر بالنبي وبرسالته صلى الله عليه وآله وسلم، وكفر بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومن تتبع تاريخ جمع الحديث الكريم وتدوينه، واعتناء الرعيل الأول من أهل الإسلام بذلك، وحفظه وتصنيفه، والجهود الضخمة التي بذلت من أجل معرفة نقلة الآثار ورواتها وأحوالهم وطريقة تحملهم، والجمع بين الروايات ومقارنتها؛ علم حق اليقين صدقية السنة النبوية ووثوقها.

فقد تكفل الله تعالى بحفظ سنة نبيه كما تكفل بحفظ القرآن الكريم، فسخر من علماء الإسلام من خدموا علم الحديث خدمة لم يعرفها توثيق في التاريخ، فضبطوا الآثار، وقيدوا الأسانيد، وعرفوا الرجال طبقة بعد طبقة، وكيفية أخذ بعضهم من بعض، ودرسوا روايات كل شخص من الرواة، حتى تكونت منظومة عظيمة تمثلت في علم الحديث والمصطلح وفروعهما، وهو الأمر

الذي تعجب له المستشرقون قبل المسلمين، حتى قال العالم الألماني أشبره نكر: "إن الدنيا لم تر ولن ترى أمة مثل المسلمين فقد درس بفضل علم الرجال الذى أوجدوه حياة نصف مليون رجل"[1]. وقال المستشرق المحقق مرجليوث: "ليفتخر المسلمون ما شاؤوا بعلم حديثهم"[2].

وقال الأستاذ محمد بهاء الدين في رسالته العلمية "المستشرقون والحديث النبوي"[3]: "فالطريقة التي سلكها العلماء في التثبت من صحة الحديث سندا ومتنا، وما ابتدعوا لأجل ذلك من علوم كعلم أصول الحديث وعلم الجرح والتعديل، وغيرهما من العلوم؛ طريقة أشاد بها كثير من الغربيين في تحقيق الراوية أمثال: باسورث سميث عضو كلية التثليث في أكسفورد، وكارليل، وبرنارد شو، والدكتور: سبرنكر كان. فقد أعلن هؤلاء إعجابهم بالطريقة التي تم بها جمع الأحاديث النبوية، وبالعلم الخاص بذلك عند علماء المسلمين، وهو الجرح والتعديل".

بل استفاد المستشرقون وتلامذتهم من علم مصطلح الحديث في استحداث علم جديد هو: "علم مصطلح التاريخ". وأول من كتب في هذا الفن هو: أسد رستم الذي كان يحضر دروس الشيخ طاهر الجزائري في فن مصطلح الحديث، ثم خرج بذلك الفن الذي هو نسخة من علم مصطلح الحديث.

قال شيخنا الحافظ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري رحمه الله: "وقد قيض الله للسنة رجالا حفظوها غاية الحفظ، وضبطوها نهاية الضبط، فلا يحكمون لحديث بالصحة حتى يمر بمراحل من النقد والتمحيص، تبتديء برواته واحدا واحدا من حيث العدالة والثقة، ومشافهة كل راو لشيخه، ثم تنتهي بالمتن من حيث سلامة معناه من النكارة، ولفظه من الشذوذ والإدراج.

---

(1) "موقف العقل والعلم والعالم" ج4ص59 لشيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله.

(2) "المقالات العلمية" ص234، 253. بإحالة العلامة عبد الرحمن المعلمي رحمه الله في مقدمة تقدمة كتاب "الجرح والتعديل".

(3) "المستشرقون والحديث النبوي" ص30.

فإن حصل عندهم أدنى شبهة فيه؛ حكموا عليه بالضعف أو النكارة أو الوضع حسبما تقتضيه الشبهة قوة وضعفا. ولقد بلغ من شدة تحريهم وتيقظهم: أنهم يستخرجون كلمة من الحديث فيحكمون بوضعها وحدها، مثل حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. حكموا بوضع: ومسلمة. لأنهم توصلوا ببحثهم إلى أن النبي ﷺ لم يقلها، وكذلك كلمة: ثلاث. من حديث: حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة. حكموا بوضعها أيضا، ومثل هذا كثير...»[1].

6 - أهمية السنة في التشريع الإسلامي

مما مضى؛ تبرز أهمية السنة في التشريع الإسلامي، فأهميتها من أهمية صاحبها صلى الله عليه وآله وسلم، وحيث الإيمان به ملازم للإيمان بالله تعالى، فهي من حيث كونها هي لا تقل قيمة عن كتاب الله تعالى، والإيمان بها من جنس الإيمان بالله تعالى.

ومن حيث مرتبتها من الصحة، ونسبتها لمن صدرت عن شفتيه الشريفتين؛ فهي في المرتبة الثانية بعد كتاب الله تعالى، إذ القرآن الكريم إنما يشترط في جميع ألفاظه التواتر، بخلاف السنة النبوية المطهرة.

ومع ذلك فالجمهور على أن القرآن ينسخ بالسنة، بمعنى تخصص أحكامه أو ترفع، كما أن الإجماع على أن أمر السنة إلزامي واجب الاتباع، والعقائد المضمنة إياها ملزمة، وإن تواترت كفر من لم يعتقدها.

كما أن السنة النبوية المطهرة، خصصت بعض أحكام القرآن، وفصلت في البعض الآخر، وقيدت المطلق، وذكرت أحكاما استقلالا عن الكتاب الكريم لم تذكر صراحة فيه، بل جل الشريعة الإسلامية وما يتفرع عنها من أحكام وأخلاق وتوجيهات، وتشريعات وتقنينات إنما مأخوذة من السنة النبوية المطهرة.

---

(1) "دلالة القرآن المبين" ص77.

قال الدكتور عجاج الخطيب: "قد جاءت السنة في الجملة موافقة للقرآن الكريم، تفسر مبهمه، وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتشرح أحكامه وأهدافه، كما جاءت بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم، فكانت في الواقع تطبيقا عمليا لما جاء به القرآن العظيم، تطبيقا يتخذ مظاهر مختلفة؛ فحينا يكون عملا صادرا عن الرسول ﷺ، وحينا يكون قولا يقوله في مناسبة، وحينا ثالثا يكون تصرفا أو قولا من أصحابه ﷺ، فيرى العمل أو يسمع القول ثم يقر هذا وذاك، فلا يعترض عليه ولا ينكره، بل يسكت عنه أو يستحسنه فيكون هذا منه تقريرا"[1].

ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، وقال جل أمره: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 52، 53]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء: 59]. وقال عز مجده: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7]. . .إلى آخر الآيات الكثيرة في هذا المعنى.

وفي الحديث الشريف: ما رواه أبو داود في سننه عن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وعلى آله قال: "ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكيء على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه".

(1) "السنة قبل التدوين" ص23.

وقال ﷺ وعلى آله كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، المروي في سنن أبي داود والترمذي: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ".

ولذلك فإن إنكار السنة إنما هو إنكار لجل الدين الإسلامي، فعلاوة على أنه إنكار غير مبني على أسس علمية، ولا قواعد يقينية، بل جله توهم ورمي بالظن، علاوة على ذلك هو تبرؤ من الدين، وكفر بقواعده اليقينية وأسسه ومبانيه.

7 – مقتضيات كلمتي التوحيد

ولكلمتي التوحيد المباركتين مقتضيات اعتقادية وعملية، ومن غير العمل بتلك المقتضيات يصير النطق بهما كعدمه من الناحية الفعلية، إذ الإيمان دينا ومنطقا: قول واعتقاد وعمل، فما لم يتمثل الإيمان بالشيء في الحياة وفي التطبيق، صار الأمر نفاقا وسفسطة بعيدة عن الواقع.

فالعبودية لله تقتضي الاستسلام لأحكام الله تعالى اعتقادا، وتشريعا، وأدبا، وتخلقا، فيكون العبد مطيعا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في الأوامر والنواهي، وفي التوجيهات والآداب، لا يحيد عن ذلك قيد أنملة.

وهو في كل ذلك موحد نيته في الحق تعالى، فقد قال تعالى كما في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشريكين عن الشرك"، فلا يطلب العبد إلا من الله تعالى، ولا يستعين إلا به، ولا يصرف فعلا من أفعال العبودية إلا لله تعالى، معتقدا أنه النافع والضار، والهادي والمضل، لا ينصرف باله عن ذلك، ولا تنصرف نيته عن سواه. فيتنزه في ذلك عن الشرك الأصغر الذي هو الرياء، والشرك الخفي الذي ورد فيه الحديث في "الأدب المفرد" ومسند أبي يعلى و"عمل اليوم والليلة" لابن السني وغيرهم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعا: "الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل".

وبذلك يتحقق له صدق التوجه إلى الله تعالى، حتى يرتقي إلى درجة الإحسان، التي هي: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"،

كما في الحديث الصحيح. فهو حينئذ لا يتصرف إلا وفق مراد الله، لأنه يستحضره تعالى في الحركات والسكنات، في الراحة والنصَب، ويشهد حكمته ودلائله - تعالى - في كل الموجودات، حتى يصبح ممن وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له". وهذا هو المقام المعبر عنه عند العارفين بالله رضي الله عنهم بوحدة الوجود.

وأول مراتب التشريع وأولاها بالنسبة للمجتمع والأمة؛ هو: الحكم بما أنزل الله، فمن أهم مقتضيات كلمتي الشهادة على مستوى الأمة، بل والفرد نفسه: الحكم بما أنزل الله تعالى، فالحق جل جلاله إنما شرع الشرائع، وأمر ونهى وأرسل الرسل لتطبق تلك الأوامر والنواهي لا لتبقى هملا. والحكم هو: إعمال شريعة الحق تعالى إيجابا على المجتمع كله، في جميع ما يحتاجه لتنظيم علاقاته وتسيير مصالحه. قال الحق تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: 48]. إلى أن قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: 50]..

ومنه: التخلق بأخلاق الشريعة في جميع ما سنته من المعاملات الثنائية، والاهتداء بهديها في آدابها وشعائرها، في كل صغير وكبير، في المعاملة مع النفس، ومع الغير، ومع البيئة والحيوان، ومع التاريخ والحضارة وسائر المتغيرات. قال النبي ﷺ فيما رواه عنه البخاري في "الأدب المفرد" من طريق أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "خيركم إسلاما: أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا". وفيه أيضا عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم؛ فقال: "البر: حسن الخلق، والإثم: ما حكّ في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

ومنه: ملاحظة أحكام الشريعة فيما يحصل بينك وبين الغير مطلقا، من صراع والتئام، وجعلها الفيصل في حل نزاعاتنا البينية، ومشاكلنا الذاتية والمتعدية.

ومنه: المجاهدة والجهاد من أجل نشر هذا الدين الكريم والتعريف به، ومقارعة أعدائه، والسير الحثيث نحو إثباته وتحكيمه، والدعوة إلى ذلك، وإفناء الأعمار والأوقات من أجله، وهذا من أهم معالم وعلامات الإيمان؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقال النبي ﷺ وعلى آله فيما خرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره مرفوعا: "غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها".

8 - الارتباط بالنبي ﷺ

وحيث كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الواسطة في الإيمان، والواسطة في الشريعة، وأنه لا يتوصل إلى الحق تعالى اعتقادا واتباعا إلا من طريقه صلى الله عليه وآله وسلم؛ صار بالضرورة لا يتوصل إلى تفاصيل ذلك إلا عن طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام.

فلا يبلغ الإنسان مراتب الإيمان إلا بواسطته ﷺ، ولا يبلغ مقامات الشهود والمتابعة والفناء والبقاء الثاني، وغيرها، إلا من طريقه، ولا يسير في مقامات التوبة والإنابة، والخشية والافتقار، والمحبة والارتباط، وغيرها إلا بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي: بواسطة هديه وشريعته وبرزخيته.

ولذلك فإن أي سالك لا مناص له عن متابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشهوده في سائر لحظات وقته، وإلا فإنه لو غفل عن النبي ﷺ لحظة من اللحظات؛ صار عرضة للاهتداء بغير هديه، وبذلك الانحراف عن الطريق الشرعي، والسقوط في البدعة والمخالفة. ولذلك قال جملة من العارفين رضي الله عنهم، ومنهم أبو يزيد البسطامي، من الأولين، والشيخ أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني من المتأخرين: "لو غاب عني رسول الله ﷺ لحظة من اللحظات لما عددت نفسي من المسلمين".

وفي مثل ذلك قال سلطان العاشقين ابن الفارض قدس سره:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري، سهوا، قضيت بردتي

وبمثل ذلك في سائر أمور الحياة؛ فلا مناص للمسلم أي مسلم، من مشاهدة هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أفعاله، وجميع حركاته وسكناته، من الفراش إلى العرش، من داخل البيت إلى سدة الحكم، وهو ارتباط لا مناص منه، ولا هروب إلى غيره. فإنه لا تعرف أحكام القرآن ومعانيه إلا من طريقه عليه السلام، ولا تفاصيل العقيدة والشريعة من نظام حكمي ونظام سياسي وأخلاقي، وفرائض وسنن ومستحبات. . .إلخ إلا من طريقه عليه الصلاة والسلام، ليس إلا.

قال الشيخ أبو الفيض محمد الكتاني قدس سره: "ثم إن صريح الأحاديث المنذرة بأنه: ما جلس قوم مجلسا فلم يذكروا الله تعالى ولم يصلوا على حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة؛ يقتضي أنه: مهما ذكرت الهيللة في مجلس إلا وتذكر: محمد رسول الله، وهو شرط مؤكد، لا يقال: إنه عين الكمال فقط، بل هو شرط".

"وقد خرج الأحاديث المؤكدة لهذا الإمام أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رفعه: ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة"[1]..

وقال قدس سره: "وقد جربت كل من يحاك هذه المسألة أنه ليس للسنة وقع عظيم في قلبه. . .ولا تجد شخصا يحاكك في هذا إلا وتجد أعماله غير معتد بها، لأنه ليس له سريان محمدي في جواهر أحواله حتى تصلح لأن تدرج مدرجة القبول، وتجد العسر محيطا به دائما لعدم تعلقه بمولانا رسول الله ﷺ وعلى آله التعلق الخاص، إذ التعلق الخاص به ﷺ وعلى آله ينتج ما لا تنتجه كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الانتماء لمركز دائرة الأنوار الانتماء

(1) انظر "وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى، وكلام في وجوب الأدب". تأليف الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني. ضمن "النفائس الكتانية" من رسائل الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني في الآداب والسلوك، الرسالة 6، ص185. تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني.

الخاص. . ."[1].

ولذلك قال المؤلف الإمام الشيخ أبو الجمال محمد الطاهر الكتاني من خاتمة الفصل الأول من كتابه "مطالع السعادة": "والعاقل الكيس، الناصح لنفسه وللناس في هذه الأزمنة التي غلب فيها الفساد ورقت الديانة، وعم داء الجهل البلاد والعباد، وقل الاكتراث بأمور الدين، ونزعت هيبة الشرع من قلوب أكثر المخلوقين، إذ نحن في زمان تأخر أهله في كل فضيلة من علم وعمل؛ هو من يحمل الناس على مزيد التعظيم والترفيع للشريعة المحمدية، التي استنار بها العالم أجمع، واقتبست منها الأمم على اختلاف مللها ونحلها، ما أرشدها لمصالحها من قوانين وآداب وتهذيبات ومعارف، كما يعترف بذلك كل منصف، وذلك بتعظيم صاحبها صلوات الله وسلامه عليه، وإظهار شرفه وإعزازه، وإعلان توقيره وإجلاله، وإفراغ ذلك في قالب المحسوسات التي بها يتأثر الناس، خصوصاً العامة، ودلالتهم على ذلك، وتوصيله إليهم بالقول والفعل".

وهذا الارتباط فوقما هو ارتباط عملي، اتباعي، ارتباط مراقبة وبحث واطلاع، فهو بالضرورة ارتباط محبة خاصة، وتعلق قلبي ضروري بهذا النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، لأنه ارتباط من عرف مقدار هذا النبي، ومن عرف منته على السماوات والأرض ومن فيها، فتخالط محبته صلى الله عليه وآله شغاف القلوب. وفي مثل ذلك قلت:

حبيبي والمحبةُ راودَتْني ... لذِكر ثناهُ العاطرِ الأنفاسِ
وشُهْبُ سِنان العاذلين تُنيطني ... وذنبُ سفاهتي وصفيحُ
فتجلبُني الطلولُ إلى رُبوع ... راسي
ويزعجُني الظلامُ إلى فَلاة ... لأذكُرَه وأغلبَ ما أقاسي
فيا ربي تداركْني بلطف ... تُوَطِّنُ سُهْدَتي بين الضِراس
طبيبِ القلب حِبِّ القلب طه ... إلى المحبوبِ بلسمِ كل آس
ورُوح الروح يرويني بكاس

(1) انظر المصدر السابق ص187.

فهو متى قام، فبه - أي: بمراقبته وهديه - قام، ومتى جلس فبه جلس، ومتى تكلم فبه تكلم، ومتى حكم أو تاجر أو قضى أو حارب أو سالم أو دعا . . .فبه ﷺ وعلى آله يفعل ذلك، فيستحضره ويراقبه طول ساعاته وأيامه، لا يغيب عنه ذلك قط إلا في وقت معصيته، فيعود ويتوب.

وفي البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".

وهذا الارتباط يورث انصياعا للجوارح غير متكلَّف، واتباعا فطريا للأوامر الإلهية والمحمدية، إذ من طبيعة المحب أنه يتخلق بأخلاق محبوبه، ويتصف بصفته حسا ومعنى، ويتشبه به في حركاته وسكناته، ومنشطه ومكرهه، وعاداته وعباداته، وهو ثمرة الإيمان التي تؤدي بصاحبها إلى مراتب اليقين والإحسان، وتجعل العبادات لديه عادات لا كلفة فيها، وهو ما سمي لدى القوم: "برفع التكاليف"، لا كما يفهمها المنكرون من أنها رفع الأحكام الشرعية عن العبد.

9 - من ضرورة الإيمان بالنبي ﷺ: الحب فيه والبغض فيه

ولا شك أن من ضروريات اعتقاد نبوة سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، والارتباط به الارتباط التام، والمحبة له على الوصف الذي ذكرنا: محبة كل من يحبه وينتسب إليه ﷺ ولو بأقل سبب، وبغض كل من يبغضه ﷺ وعلى آله ولا يؤمن بنبوته ويكذبه فيما جاء به. قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 8، 9]. وقال النبي ﷺ وعلى آله فيما رواه عنه الطبراني في "الجامع الصغير" من طريق ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: "أوثق عرى الإسلام: الولاية في الله، والحب في الله، والبغض في الله". وقديما قيل:

حبيبي من يعادي من نعادي ويشفي ما بقلبي في الأعادي
ويعلي رايتي بين البرايا ويفنى عن هواه في مرادي

فموالاةِ الولي وموالاة العدو ضدان لا يجتمعان:

تـود عـدوي ثـم تـزعـم أنـنـي حبيبك، ليس النوْك عنك بعازب

وفي المحبين قيل:

وإذا كـان الـجـنـاب عـظـيـمـا مُـد مـنـه لـخـادمـيـه لـواء

وإذا عـظـمـت سـيـادة مـتـبـوع، أجـلّ أتـبـاعَـه الـكـبـراءُ

فمن مقتضى الإيمان والمحبة: محبة المؤمنين وخدمتهم والتودد إليهم، والتقرب لهم، والبحث في همومهم، وتفريج كربهم ما استطعنا.

ومن ذلك: تعظيم آل بيت النبوة عليهم السلام، وتوقيرهم، وتبجيلهم، وتقديم أفكارهم وآرائهم على أفكارنا وآرائنا، وفيهم قال النبي ﷺ وعلى آله كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه مرفوعا: "كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي". والشعور بالميل القلبي الطبيعي إلى كل ما فيه تذكر وذكرى للمصطفى ﷺ وعلى آله.

وبالمقابل؛ فإن من مقتضى الإيمان وصدق المحبة: بغض كل من فيه جفاء نحو النبي ﷺ وعلى آله، والنفور منه النفور الطبيعي الذاتي، وعدم التعاون معه ولا التحابب ولا المجالسة ما وجد المرء إلى ذلك سبيلا، حتى إن الفقهاء تحدثوا عن شاتم النبي ﷺ، وألفوا فيه المصنفات، وحكموا بأنه يقتل ولا يستتاب، وكاد يتم الإجماع على ذلك.

ومن نتائج ذلك: بغضنا لمن لا يؤمن بالنبي ﷺ، من غير المسلمين، وامتعاضنا منهم، وعدم التقرب إليهم والتزلف، والضرب بسور البعاد بيننا وبينهم، ليس لمخالفتهم لنا في الدين فحسب، بل لتكذيبهم بحبيبنا ونبينا ورسولنا سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، وفي هذا رد على الزاعم بأننا لا نكرههم لمخالفتهم لنا في ديننا إنما نكرههم لإيذائهم لنا، مستشهدين بآية: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: 8].

فقد قال العلماء رضي الله عنهم - كمحمد المسناوي الدلائي، وابن عرفة وغيرهما - إن الآية تقضي بالمسالمة لهم والمتاركة، وعدم التعدي عليهم

والظلم لهم، لا الموالاة والمودة[1].

أما ترى كيف تجاهروا حديثا بتلك الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها الصحف الدانماركية، وتبعتها صحف عالمية معرضين ومستهزئين بسيد الخلق على الإطلاق؟ ﷺ وعلى آله، ثم تبعهم رئيسهم وزعيمهم بابا الفاتيكان لعنه الله، وعرض بنبينا وسيدنا وحبيبنا محمد ﷺ وعلىآله، ورام - علنا - التنقيص منه؟.

فما ذلك إلا صورة ما حشيت به نفوسهم الخبيثة من بغض نبينا وحبيبنا وشفيعنا سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118].

كل هذه النقاط أساسية في موضوع اقتران كلمتي الشهادة، ذكرها المؤلف - رحمه الله - عرَضا، وأحببت إبرازها هنا تتميما للفائدة، وإن كان ذكري لها اقتضابا لعدم اتساع المجال لأكثر من ذلك، وهي أمور يجب على الذاكر استحضارها أثناء الذكر، والعمل بها أثناء الحياة، واعتقادها في مكنون فؤاده، إذ هي من بدهيات الشريعة الإسلامية التي لا قوام للدين إلا بها، ولم يختلف عليها عالم من علماء الأمة.

10 - دور الطريقة الكتانية في إحياء السنة

هذا الكتاب - كما أشرنا إليه في ديباجة المقدمة - لبنة مهمة في الطريقة الأحمدية الكتانية، محيية سنة طالما غفل عنها كثير من المتأخرين؛ وهي: قرن ذكر النبي ﷺ وعلى آله بذكر الحق تعالى، حتى غفلوا عن السنة في التشريع، والاستنباط، والسيرة النبوية حتى في الموالد والحضرات، وغاب المعنى الحقيقي لامتزاج الذكرين الكريمين الطاهرين على ما فصلت آنفا.

فقد كان للطريقة الأحمدية الكتانية التي أسسها ابن خالة المؤلف وشيخه الإمام أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني قدس سره دور كبير في خدمة السنة الشريفة ونشرها، وإحياء السنن التي عفا أثرها، ولم تدع مجالا ولا مناسبة إلا دعت فيها إلى ذلك.

(1) "الدواهي المدهية" ص 176.

وقد قال الشيخ الحافظ عبد الحي الكتاني - رحمه الله تعالى - في رسالة أرسلها لشيخ الإسلام المكي بن عزوز رحمه الله: "بصفة كوننا نتعشق مدح الحبيب المحبوب، ونطرب بمن يحبره تحبيرا، ووصية يأخذها آباؤنا عن آبائهم، وأوصلوها إلينا: أن لا نجالس ولا نرافق ولا نطالع كتاب من نشم فيه رائحة توقف في الكمالات المحمدية، أو استنكاف عن قبول بعض البعض مما أظهره كبار تلك الحضرات".

فكان مؤسس الزاوية الكتانية إمام الأئمة أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد الكتاني مشربه: الاستغراق والتعظيم في الجانب النبوي؛ بحيث كان له اعتناء بتوجيه تلامذته لشرح وسرد كتب الحديث والأثر في الزاوية الكتانية، والاعتناء بالاعتماد عليهما في الاستنباطات الفقهية والعلمية والصوفية؛ وعدم التقليد الأعمى في الفقه وغيره؛ بحيث مثل تلامذته الجيل الأول للنهضة الحديثية والأثرية بالمغرب.

قال عنه العلامة محمد بن المختار التاشفيني في "اللؤلؤ المكنون": "وهو أعجوبة زمانه؛ قد ألف تآليف عديدة، وصنف تصانيف مفيدة نظما ونثرا، من المواهب الإلهية التي ترد عليه، ولا ينقل كلام أحد؛ إلا آية من القرآن، أو حديثا نبويا...".

وألف نجله جبل السنة والدين الشيخ أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني مؤلفا كبيرا في الحض على نشر السنة وإحيائها، سماه: "تحديد الأسنة للذب عن السنة"، ذكر فيه تفاريع قيمة حول السنة ودقائقها في العادات والعبادات، بحيث يعد أعظم ما كتبه المتأخرون حول السنة وإحيائها.

وعمل شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني - قدس سره - على إحياء السنن التي أبيدت في المغرب، فدعا إلى الحكم بما أنزل الله، وإحياء فريضة الجهاد ضد المحتل، وتحكيم الكتاب والسنة في جميع شؤون الحياة، وإحياء الاجتهاد دعامة أساسية من دعائم النهضة الدينية. كما أكد على دقائق من السنة في العبادات والعادات، والتعلق الخاص بالنبي ﷺ وعلى آله، وحض الكثير من أتباعه ومواريده على التصنيف في هذا المجال والدعوة إليه.

قال قدس سره في كتابه "بيان الآفات في حكم اللعبات المسماة بالكرطة والضامة وما شاكلهما" : "إن علامة محبة الله: محبة رسوله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]، فكل من ادعى محبة الله ولم يحب القرآن فهو كاذب، وكل من ادعى محبة القرآن ولم يتبع نبيه في الأقوال والأفعال والحركات والسكنات فهو كاذب، وكل من ادعى متابعة نبيه، ولم يحب بحبه ويبغض ببغضه، فليس له شاهد يعضد دعواه، وكل من ادعى هذا ولم يكن أعرف بطرق السنة من القطَا حتى لا يكاد يشذ عنه شيء من السنة المحمدية باعتبار طرقها المتشعبة المتكاثرة، وخصوصا من يد النقاد الجهابذة النظار الذين أفنوا أعمارهم في تصحيح أحاديثها، وسبر مخرجيها؛ ما رُتبتهم في العدالة والتجريح، فلا يجمل بمريد رضَى اللهِ أن لا يبحث عن كتب الحديث، حتى إذا ذكر عنده الحديث لا يعلم من خرجه، ولا من تكلم على معانيه ومآخذه الفقهية واللغوية والأدبية، وأما من لا يعتمد في أحاديثه إلا على "نزهة المجالس"[1]، وجل أحاديثها الله أعلم بصحتها!، كيف يعترض على من يمارس الكتب الستة، مع ما تيسر من شروحها وحواشيها؟!"

وقال - أيضا - في كتاب: "الاجتباء" الذي أبدى فيه الفرق بين طريقته الكتانية وبين غيرها من الطرق: "نعلم أنه ﷺ سائلنا عن كل حديث بلغنا عنه، ويقول: لأي شيء لم تعمل به؟. ولا يكفيك الجواب بأن إمامك لم يأخذ به؛ فإنه لم يأمرك بالتقيد بمذهب واحد، والمشي على نهج واحد"..

وممن حمل هذا المشعل: شقيقه حافظ المغرب الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني؛ فأحيى منار الرواية في العالم الإسلامي على أسس علمية متينة بعد خمودها، ونشر كتب السنة وعرف بها، واعتنى بالصحيح والضعيف، والإعجاز العلمي في السنة النبوية، كما ألف في نظام الحكم النبوي كتابه العظيم "التراتيب الإدارية، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية،

(1) الكتاب لعبد الرحمن بن عثمان الصغوري الشافعي المتوفى سنة894هـ، وموضوعه هو: الوعظ والإرشاد، غير أنه مليء بالأحاديث الموضوعة، طبع عدة مرات. أنظر "كشف الظنون" 2/ 853.

التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية، في المدينة المنورة العلية"، وأنشأ دار الحديث في بيته، ودرس كتب السنة في الشرق والغرب، ودعا إلى إحياء الآثار النبوية والهدي المحمدي في جميع الأصعدة الحياتية.

قال في ديباجة كتابه "التراتيب الإدارية" : "ومن عرف نهضة الإسلام وتعاليم النبي عليه السلام، وأمعن النظر في تلك النهضة؛ تحقق أن ليس هناك من أساليب التمدن ما لم يكن الإسلام في وقت ظهوره أصلا له وينبوعا. فمن تأمل ما بثه النبي ﷺ من التعاليم وأنواع الإرشاد، وما حوى القرآن من آداب الاجتماع، وسن من طرق التعارف والتمازج، وما أودع الله غضون كلماته الجوهرية من أحكام الطبيعة وأسرار الوجود، وفرائد الكائنات، وما ضبط من الحقوق وسن من نظامات الحياة. وما تلته به السنة النبوية من تهذيب النفوس والأخلاق، والإرشاد للأخذ بالأحسن فالأحسن، وأحكمته من سنن الارتقاء والإخاء البشري، والتمتع بضروب الحرية..."علم أن التمدن الإسلامي في إبان ظهوره قامت معه تلك الأعمال لتأثير تلك التعاليم على قلوب سامعيها في ذلك الحين".

وألف الإمام أبو الفضل محمد المهدي بن محمد بن عبد الكبير الكتاني كتابا في أن الكتاني الحق هو من لازم الكتاب والسنة، وبراءة الطريقة الكتانية ممن يعتمد الأوراد والخصائص من أجل المنافع الدنيوية، وكما ألف كتابا آخر في تقديم اعتقاد السلف على اعتقاد الخلف في الآيات المتشابهة، قرظه له كبار أئمة الطريقة، وهو أمر مهم غفل عنه جل المتأخرين.

أما الإمام أبو الهدى محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني - قدس سره - فهو مجدد الطريقة، وإمامها الثاني، وهو السنة تمشي على رجلين، فقد ألف ودرس، وخطب ونشر حول السنة وعلومها، والدعوة إلى إحيائها حكما وتشريعا، وفقها واجتهادا، وتربية وسلوكا، وما خطابه الشهير في تأسيس رابطة العلماء بنزل باليما بالرباط، ولا مقالاته الكثيرة التي كان ينشرها في مختلف جرائد المغرب بعازبة عن الذهن، وما حبره من نصيحته العامة للمسلمين، و"النصائح الباقرية للإخوان الكتانيين بالإسكندرية"، و"سبيل

الجنة في الاعتصام بالسنة" وغيرها من المؤلفات والرسائل الإرشادية التي ضمنها كتابه "مدارج الإسعاد في رسائل الوعظ والإرشاد" في أربعة مجلدات، والفتاوى التي ملأت الطباق أكبر شاهد على هذا.

قال في نصيحته العامة للمسلمين، النصيحة العاشرة: "أوصيكم ونفسي باتباع سنة رسول الله ﷺ وهديه، والإخلاص لدينه في السراء والضراء، ودعوة الناس إلى سلوك نهجه ومهيعه، ونهج خلفائه الراشدين، وأيمة الدين الهادين المهتدين".

وقال في النصيحة الحادية عشرة: "وأوصيكم ونفسي بمحبته ﷺ المحبة الذاتية، واستحضار صورته المحمدية، وتعداد فضائله الكثيرة، وكمالاته الشهيرة، والاقتداء بشمائله الشريفة، وأخلاقه المنيفة. فهو صلى الله عليه أجدر أهل السماوات والأرضين بالاقتداء، وأعظم رجل عرفه تاريخ العالم المملو بالظلماء، وأكبر حامل لمشعل المدنية الصحيحة، وأفضل داع إلى الحجة البيضاء بالبراهين الصريحة، جمع الله فيه ما افترق في غيره من المرسلين والأنبياء الذين جمع الله فيهم مزايا البشرية جمعاء.

لكل نبي في الأنام فضيلة وجملتها مجموعة لمحمدِ"

وكذا خلفه نجله الإمام المصلح، سلطان العلماء؛ أبو هريرة عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني الذي كان آية في الأخلاق والتربية، والذي اعتنى بتدريس كتب السنة كمسند الإمام أحمد، وبعض الكتب الستة، والجامع الصغير، والشمائل للترمذي، وغير ذلك. واعتنى بالسيرة النبوية واستنباط أسرارها ومطابقتها على الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، والدفاع عن النبي ﷺ وعلى آله وسيرته وهديه في عشرات المقالات والخطب والدروس التي كان يلقيها في مختلف المؤتمرات في المغرب والمشرق.

قال في مقاله "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين": " ثانيا: أن ندرس الإسلام كما ينبغي، من مصدريه الأصليين: الكتاب والسنة، مع الاسترشاد بتفاسير وشروح الأئمة الهادين المهديين والعلماء العاملين الذين رزقهم الله الاطلاع على أسرارهما وتقديمهما للناس، ونضع مدونات للأحوال المدنية

والجنائية والعسكرية مستمدة من الإسلام، والحكم بها عوضا عن القانون الأجنبي، ونضع برامج تعليمية تخرج لنا المواطن الكامل الصالح للدين والدنيا، والمحافظ على الوجود الإسلامي بوطنه".

وقال في مقاله "البعثة المحمدية إسعاد للبشرية": " وأسند إليه ثالثا: وضع قوانين دينية وسياسية، ومدنية وجنائية، واقتصادية واجتماعية وعسكرية، غير خاصة بالقرن السابع للميلاد الذي بعث فيه، بل عامة لجميع البشر في جميع الأزمنة والأمكنة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ وهي منة كبرى على البشرية نقلتها من الطور المحلي والإقليمي والوطني إلى الطور الإنساني العالمي، المسترسل إلى آخر يوم من الدنيا، وهي - أيضا - مهمة عظمى لا يقدر عليها إلا من جمع جميع أوصاف الكمال البشري".

فقد عملت الطريقة الكتانية على إحياء السنة النبوية في اتجاهات عديدة:

- بتدريس كتب السنة وحفظها ونشرها.
- بالدعوة للاجتهاد والبحث عن الأحكام من أدلتها الأصلية من الكتاب والسنة ووسائل الاستنباط.
- بنشر كتب فقه الأثر والدعوة لتدريسها.
- بإحياء علم الإسناد وبثه.
- بالتأليف والنشر والخطابة في هذا المجال.
- بإحياء السنن التي أميتت وعفت آثارها.
- بالدعوة إلى الحكم بما أنزل الله، والعمل على ذلك بكل الوسائل المتاحة...إلخ.

حتى قال فيهم شيخ الإسلام بالأستانة الشيخ المكي ابن عزوز رحمه الله تعالى في رسالة له مشتملة على كراريس، مؤرخة بـ: 10 ربيع الثاني سنة 1329 ما نصه: "إن في الزوايا خبايا، وفي الناس بقايا، وان أولئك السادة الكتانيين هم الطائفة القائمة بأمر الله، هم العلماء بالله ورسوله وبالدين، هم

المعانون من الله في أوقاتهم وكتبهم، هم الذين كلامهم أشد وقعا على المبتدعة من مدافع المتراليوز؛ لا المكي بن عزوز!".

أما جهود السادة آل الكتاني عموما في إحياء السنة وعلومها؛ فهي أشهر من نار على علم، فكم ألفوا وصنفوا وكدرسوا وكتبوا، وخطبوا ونثروا ونظموا في ذلك، وما تراجم وجهود الأئمة: جعفر بن إدريس وأنجاله محمد وأحمد وعبد الرحمن وعبد العزيز، وجهود مؤلف هذا الكتاب الطاهر بن الحسن، ومحمد الزمزمي ومحمد المكي ابني محمد بن جعفر الكتاني، ومحمد المنتصر بالله ومحمد الناصر لدين الله ابني محمد الزمزمي، وإدريس بن محمد بن جعفر، ومحمد إبراهيم بن أحمد الكتانيين وغيرهم بعازبة عن الباحثين في هذا المجال.

11 - موضوع الكتاب وتلخيصه

أصل موضوع الكتاب هو: قرن ذكر: "محمد رسول الله"، بذكر: "لا إله إلا الله"، أثناء الذكر، وهو أمر مهم جدا رام أرباب الطريقة - رضي الله عنهم - من خلاله شد الأذهان إلى مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه وسنته في الدين الإسلامي، في وقت تقاسمه التقليد الأعمى للرجال، والعلمانية المحضة، وخرجت دعاوى تنفي السنة النبوية من جهة أخرى.

وقد أسس شيخ الطريقة ومجدد الإسلام أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني - قدس سره - لهذا الموضوع في كثير من كتبه - كما أسلفنا - خاصة في رسالته في قرن الذكرين المنشورة ضمن المجموعة الأولى من "النفائس الكتانية" بتحقيقنا، والتي كاد أن يستوعبها مؤلف هذا الكتاب "مطالع السعادة" رحمه الله. وفي ذلك يقول الشيخ أبو الفيض رادا على قول أبي حفص عمر ابن الفارض قدس سرهما:

عليك بها صرفا ودع عنك مزجها   فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم

فأجابه الشيخ:

عليك بها مزجا ودع عنك صرفها   فنحن أناس لا نرى الصرف مذ كنا

فذكر الهيللة في الطريقة الكتانية بقرنهما، وذكرها في التحية بقرنهما، وأثناء الإنشاد لا ينشدون أشعار الزهد والرقائق، والمحبة والشمائل النبوية الطاهرة إلا إذا خللوها بالهيللة خللوها مقترنة لا صرفة بذكر شقها الأول دون الثاني.

كما توسع شيوخ الطريقة وشراح صلواتها وأركانها في هذا الأمر؛ كالعلامة عبد السلام بن المعطي العمراني في "حل الطلاسم"، وشيخ الجماعة علي بن عبد القادر العدلوني الدمناتي في كتبه، والشيخ عبد الحي الكتاني في كتبه، ومن أهمها "السر الحقي الامتناني الواصل إلى ذاكر الراتب الكتاني"، فقد توسع في هذا المبحث من ص147 إلى ص170. ذلك المبحث الذي استوعبه - كذلك - الشيخ الطاهر الكتاني في هذا الكتاب، مواضيع ونقولا وأفكارا، وزاد عليه أضعاف ذلك.

قال الشيخ عبد الحي الكتاني في رسالة له مطولة للشيخ المكي ابن عزوز رحمهما الله: "ما عددتموه فائدة واهتبلتم به من البحث الذي أجريته في "السر الحقي الامتناني" من الحض على قرن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالأذكار كلها، وعدم التفرقة بين ذكر الله وذكر صفيه في كل حين ووقت؛ هو بحث نفيس على الحقيقة، ولو علمت موجب ذلك الإسهاب والتطويل في نقل النقول والاحتجاج بأرباب الطرق لقضيت بالعجب".

"وهو أن الطائفة الدرقاوية هنا لما أمر شيخنا الوالد وشقيقنا الشيخ أبو الفيض مواريدهم بسلوك هذا المسلك، وصار الكتاني يعرف من غيره بمزج كلمتي الشهادة في الذكر كله؛ قامت قيامتهم، وتوغرت صدورهم، وكثرت قلاقلهم، وما قصروا إعراضا ومغالطة، وانتصب بعض جهلتهم للتأليف. فذاك الذي حملني على ذلك الإسهاب، وإلا فتلك المسألة ما كنت أظن أن مؤمنا يخالف فيها، أو نحتاج معه إلى نصب نص أو جلب حجة. إذ دليل ذلك للمحمدي بين في نفسه، ولكن البلاء والمنافسة والمعاصرة مع الجهل يوقع في أكثر من ذلك وأخشن"..

ففي هذا الإطار ألف الشيخ أبو الجمال - رحمه الله تعالى - "مطالع

السعادة" - الذي صدره بتمهيد وفاتحة، ثم أربعة مسالك، وخاتمة.

أما التمهيد؛ فخصصه لذكر سبب كتابة الكتاب، وأنه رد على بعض المبتدعة من المتأخرين الذين ادعوا جهلا أن ذكر النبي ﷺ وعلى آله والاعتناء بشأنه يعد حجابا عن الحق تعالى، قائلا: "إنه كثيراً ما كان يختلج في صدري، ويقع في خاطري وفكري؛ وضع تقييد في مسألة ضم إثبات الرسالة إلى التهليل عند ذكر الكلمة المشرفة؛ أعني: كلمة الشهادة، رداً على بعض الفرق الضالة، المبتدعين المارقين البالغين الغاية في العماية والجهالة، الذين يقولون: إن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجابٌ عن الله تعالى، وإن إفراد التهليل عن إثبات الرسالة أبلغ وأسرع في تأثير معنى التوحيد؛ لأن للتوحيد معنى، ولإثبات الرسالة معنى، وإذا اختلفت المعاني على الباطن ضعف التأثير وبعدت الثمرة، ونحو هذا من كلامهم السخيف المعنى، المختل الأصل والمبنى".

ثم جعل فاتحة للكتاب، تطرق فيها لوجوب سكوت من لا يعلم، وأن الكتاب والسنة هما سبيلا الهداية والرشاد، ولا غنى لأحد عنهما وعن البحث فيهما، وأنه لا يتم إيمان لأحد إلا بالمتابعة التامة لهما حتى لا يكون في قلبه حرج مما قضى الله ورسوله ويسلم تسليما، مستشهدا بآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]. وأقوال الأئمة فيها.

قائلا إثر ذلك: "وحيث كان الأمر كما ذكرنا، وانتهى الحال إلى ما وصفنا وسطرنا؛ فلنرجع في هذه المسألة - كغيرها - إلى كتاب ربنا تعالى، وسنة نبينا ﷺ، ثم إذا أعوزنا وجود الدليل فيهما؛ لقصورنا وتقصيرنا لا لعدم وجدانه فيهما، نرجع إلى أمناء ديننا، وحملة شرعنا، الذين أمنهم الله تعالى على دينه، المعنيين بقوله ﷺ: يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين".

ثم بعد ذلك دخل المؤلف - رحمه الله تعالى - في موضوع الكتاب مستشهدا للمسألة بالكتاب والسنة، وأقوال الأئمة وأفعالهم، ثم بأمور خارجية.

أما المسلك الأول؛ فجعله للاستدلال على وجوب قرن الشهادتين بأدلة من الكتاب العزيز، جالبا من الآيات القرآنية وأحوال كتاب الله تعالى ما يقتضي وجوب القرن المذكور، ناقلا على ذلك أقوال أئمة التفسير ودهاقنته.

وجعل المسلك الثاني في الاستدلال لذلك بالسنة النبوية الغراء، جالبا عشرات الأحاديث التي تقتضي ذلك، متحدثا عنها تخريجا وشرحا، بما يقتضي ما يرمي إليه، حالا إشكال تضمن نصوص بعض الأحاديث شطر كلمتي التوحيد الأول دون الثاني، وأن الأول كناية عن الثاني.

أما المسلك الثالث؛ فقد خصه بالنقل عن أئمة العلم ورواد الإسلام من المتكلمين والمفسرين، والفقهاء والصوفية الذين نصوا على وجوب قرن ذكر النبي ﷺ وعلى آله بذكر الله تعالى، وعدم التفريق في الذكر بينهما.

ثم خصص المؤلف - رحمه الله تعالى - المسلك الرابع للاستدلال على ذلك بأمور خارجية، وهو مسلك توسع فيه وأبدع من حيث تفصيل الموضوعات وتفقيره إلى عدة أوجه بلغت عشرة أوجه، وهي أوجه استنباطية، بمعنى أنه يستنبط من مفهومها وجوب قرن اسم النبي ﷺ وعلى آله باسم الحق تعالى.

ثم ختم المؤلف الكتاب بخاتمة طويلة تشتمل على فوائد عشرة، هي من فروع المسألة المبحوث فيها، من مباحث فقهية دقيقة، وفوائد تعود لتجارب الأذكار، وفوائد أخرى.

والمؤلف - رحمه الله تعالى - لا يتوانى في كافة فصول الكتاب عن نصب عدة مباحث قد يطيل النفس فيها أحيانا، وهي مباحث كلامية، وتفسيرية، وأصولية، وفقهية، وحديثية، وصوفية. . .إلخ، يناقش فيها بحرية فكر، ومقارنة الحجة بالحجة، والترجيح بين أقوال مختلف أرباب الأقوال، وهو أسلوب يدل على تضلع واجتهاد كبيرين في البحث والمناظرة في عدة علوم.

ففي المسلك الأول؛ تطرق لمباحث لغوية وتفسيرية وعرفانية؛ كالحكمة من زيادة لفظة "لك" في آية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، والحكمة من

فصل لفظتي الشهادة بدل وصلهما، ومبحث في أن ثواب الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله أجزل من ثواب الذكر المطلق.

وفي المسلك الثاني؛ تطرق لمباحث في أصول الفقه ومصطلح الحديث؛ منها: أن ما روي عن الصحابة والتابعين من الغيب له حكم المرفوع، ومتى يعمل بالحديث الضعيف، وشروط ذلك، وطريقة أدائه، وسر اختلاف الروايات في حديث: "أُمرت أن أقاتل الناس..."، حيث في بعضها قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي البعض الآخر قول: لا إله إلا الله. فقط.

أما المسلك الثالث؛ فتغلب عليه المباحث الفقهية؛ كهل يلزم قرن الذكرين في الفدية، وهي ما يقرأ على الميت من مائة ألف من الهيللة بنية الفدية له من النار كما ورد في بعض الأحاديث، وتلقين الميت للشهادتين هل كليهما أم الشطر الأول فقط، والكف عمن لم يؤمن من أهل النبي ﷺ وعلى آله، ثم شرح حديث اللبنة المشهور...وغير ذلك.

وفي المسلك الرابع نجد المؤلف - رحمه الله تعالى - يتوسع في مباحث من الرقائق والدقائق الصوفية والعرفانية، وأسرار الأذكار، رادا على السراج البلقيني الذي نهى عن ذكر اسم النبي ﷺ مجردا.

ومن المباحث المهمة في هذا المسلك: أسماء النبي ﷺ وعلى آله، وهي توقيفية أم اجتهادية، وسر تعددها، وأن النبي ﷺ وعلى آله جليس من ذكره كما أن الحق تعالى جليس من ذكره، وفوائد وملاحظ قيمة حول التعلق بالنبي ﷺ وعلى آله ومقتضى ذلك ونتائجه.

والمؤلف في كل ذلك باحث عن الأسرار والحكم التشريعية في مختلف المباحث التي يبحث فيها، بأسلوب شائق مجلب للقاريء ومحبب لذكر النبي ﷺ وعلى آله، بحيث تشعر به يتلذذ في ذلك، ويستطرد، ويأتي بالفوائد والأشعار، وكلام أئمة المعاني والأذواق، بطريقة الاسترسال والتحبيب، غير متكلف سجعا ولا تقعرا في الكلام.

كما تستشف منه الإحاطة والإدراك لما ينقله، والوعي التام بأبعاده، بحيث

ينبه القاريء إلى كل ذلك، ويناقش ما يحتاج للمناقشة، سواء بالشرح والإيضاح، أو الرد والإصلاح. وقد يبين المسألة الجزئية على أي مذهب من المذاهب هي، ومن قال بها، وإن كان السياق لا يتوقف على ذلك.

وهو يستدرك في جميع العلوم على أهلها، ويناظرهم، كمناقشاته للزمخشري، والقاضي أبي بكر ابن العربي، والنووي، والبلقيني، والرصاع، والقسطلاني، كل ذلك بالحجة والدليل.

فمن ذلك مناقشته للقسطلاني الذي عزا حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله؛ ما لقيتُ من عقرب لدغتني البارحة...". حيث عزاه القسطلاني لأصحاب السنن فقط، مع أنه في صحيح مسلم، قائلا: "وقد تقرر عند المحدثين أن الحديث إذا كان في الصحيحين أو أحدهما فلا يعزى إلى الغير إلا بعد عزوه لمن خرجه منهما". مبينا بعد ذلك أن الرجل المضمر إنما هو بلال رضي الله عنه.

ومما يتميز به المؤلف - رحمه الله تعالى - أنه في نهاية المبحث يلخص نتيجة البحث، وما توصل إليه، مما يدل على تنظيم أفكاره، ومجاهدته من أجل إيصال المعلومة واضحة للقارىء.

ونظامه في الاحتجاج: أنه يذكر الآيات القرآنية، ثم الأحاديث النبوية مخرجة معزوة، ثم أقوال العلماء ومذاهبهم في المسألة، ثم يردف ذلك بذكر بعض الحكايات التي يستأنس بها في الباب.

كما أنه يحدد مناط المسألة المبحوث فيها، حتى لا يتشعب ذهن القاريء، ومن ذلك مناقشته للإمام الرصّاع الذي لم ير الذكر بأسماء النبي ﷺ وعلى آله مجردة، قائلا: "...وتقدم قول الرصاع: وتأدب عند ذكر أسماء حبيب الله بما أدب الله تعالى به العباد. ولعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ...﴾ الآية [النور: 63]، فهو موافق للحطاب في هذا، وإنما أنكرنا إنكاره أصل مشروعية الذكر بالأسماء النبوية رأسا، وزعمه أن ذلك بدعة لا يؤجرون عليها...".

وتجده في الرد والمناقشة يخلل المحبة بالوعظ، بالمناظرة، ومثال ذلك:

قوله في الخاتمة في الفائدة الثامنة: "أما أولاً؛ فإنه لا حرج في ذلك ولا مشقة أصلاً، وأي مشقةٍ في قول الإنسان: ﷺ عقب قوله: محمدٌ رسول الله. وكذا سامعه؟. وتجد الرجل يستغرق الأوقات المتطاولة في الكلام الذي لا يجدي له نفعاً أصلاً، بل ربما كان وبالاً عليه؛ من كذبٍ وغيبة..ونحو ذلك، ولا يمل من ترديد ذلك وكثرته، لا هو ولا جلساؤه، بل يتفكهون به ويتلذذون، فإذا جاء إلى ما يرضي الله ورسوله، وما هو كفيلٌ بكل خيرٍ دنيوي وأخروي؛ تراه يتعلل بهذه العلل الخاوية، مما يلقيه الشيطان إليهم، ويثقل عليهم ذلك. ولكن صدق أرباب القلوب حيث قالوا: "إذا التبس عليك أمران؛ فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإن الخير فيه".

ومما ينتبه إليه؛ أن المؤلف - رحمه الله تعالى - يكثر من النقل عن شيخه وابن خالته الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، بحيث كاد ينقل جل رسالته في اقتران كلمتي الشهادة، والرسالة لأهل سلا في الحض على الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله، المطبوعتين بتحقيقنا ضمن المجموعة الأولى من "النفائس الكتانية"، غير أن جل نقله من غير تسميته، وبتوريته بقوله: بعض العارفين، أو شيخنا الإمام، أو: قال بعضهم، أو: قال بعض أهل الحقائق. . .إلخ. وهو أمر وجدت العلامة أبا الفضل محمد المهدي بن محمد بن عبد الكبير الكتاني يثور من أجله في بعض كتاباته حتى دعا على ناشر الكتاب دعوة قبيحة، وكأنه يشير إلى أن حذف اسم الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني قدس سره، إنما كان مقصودا من الناشر، والله أعلم بالحقائق.

كما يستشف القارىء قدرة المؤلف على التوجيه والترجيح، وغوصه على المعاني ورد كل فرع لأصله، مما يدل على ذكاء فطري، وتمكن بالغ من العلوم. ومن ذلك قوله في الخاتمة في الفائدة التاسعة: " قلت: يمكن - والله أعلم - الجمع بين القولين بحمل الكراهة على: ما إذا كان التعجب من شيء مما يرجع لأمور الدنيا وأحوالها، كما هو الغالب، ويحمل القول بالجواز على التعجب مما يرجع لأمور الآخرة والتفكير في مصنوعات الله وعجائب قدرته، ونحو ذلك. بدليل قول الحليمي؛ لأنه ﷺ أعظم المخلوقات وأعمها. فتأمل ذلك. والله أعلم".

ومن أهم ما يلاحظ على المؤلف: الاطلاع الواسع على متون الأحاديث والآثار، وشدة الاستحضار لها، مع ذكر مخرجيها ومراتبها، بحيث تجده مطلعا على دقائق في السنة، وغوامض في فك مبهمات الأحاديث، ومعرفة الأطراف على تشعبها، وهو أمر يدل على ملكة حديثية واعتناء بالسنة بالغين، يقل أن تجده عند علماء عصره.

وملخص خطة المؤلف في الكتاب: أنه ابتدأ بذكر حكم الاقتران، ثم مشروعية ذكر النبي ﷺ وعلى آله، وأنواع ذلك الذكر، ثم آداب ذكره ﷺ وعلى آله، ونوع ذلك ومعناه.

والكتاب من عدة وجوه يؤكد الرابطة الضرورية التي بين الحق تعالى ونبيه ورسوله ﷺ وعلى آله، بحيث لا يستغني عنه أحد في باب الله تعالى كما أوضحنا ذلك فيما مضى.

وختاما؛ يظهر من نص الكتاب، أن مؤلفه ألفه نحو عام 1342، حيث تحت عنوان: ذكر اسم النبي ﷺ من أعظم الأذكار. ذكر واقعة حصلت بينه وبين العلامة أحمد بن الشمس الشنقيطي، المتوفى بالمدينة المنورة سنة 1342هـ، مترحما عليه.

12 - سندي للكتاب

أروي هذا الكتاب من طرق إلى المؤلف؛ منها بروايتي عن سبطه ابن بنته علامة فاس وبركتها الشيخ عبد الحميد بن عمر زويتن عن مولانا الجد الإمام محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني.

ح. وعن الجد مباشرة.

وأرويه عن عم والدتي العلامة العارف بالله أبي الأنوار مَحمد بن محمد الباقر الكتاني، عن والده الإمام محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني.

وأرويه عن مسند الحجاز ومحدثها السيد محمد بن علوي المالكي الحسني عن المؤرخ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري.

وجد والدتي محمد الباقر الكتاني، وجدي لوالدي محمد المنتصر بالله بن

محمد الزمزمي الكتاني، وعبد السلام ابن سودة المري كلهم عن المؤلف مباشرة بالإجازة العامة.

13 - عملي في الكتاب

كنت أعتبر وقوفي على أثر من آثار الإمام أبي الجمال الطاهر الكتاني رحمه الله كنزا ثمينا، وذلك نظرا لندرة مؤلفاته وعزيز الوقوف على بعض منها، فلما وقفت على هذا الكتاب الذي أهداه لي مشكورا أخي العزيز المؤرخ البحاثة المتقن محمد الراضي بن محمد بن محمد كنون حفظه الله وبارك فيه، اهتبلت به أيما اهتبال، واعتبرته كنزا لا قيمة له. خاصة وأن النسخة التي أحذانيها نسخة مطبوعة واضحة.

فعزمت إثر ذلك على الاشتغال بالكتاب وتحقيقه، ونظرا لكثرة الأشغال، ووسع مادة الكتاب؛ تعذر علي تحقيقه بطريقة تفصيلية، وطال أمده وهو بين يدي، فآثرت أن يكون صدور الكتاب أولا بمقدمة تفصيلية تعريفية بالمؤلف والكتاب، إذ لم يُدرس المؤلف من قبل، والاعتناء التام بمقابلة الكتاب وتصحيحه، ريثما تسنح الفرصة لي أو لغيري من أجل تحقيقه تحقيقا واسعا، على أن محققا للكتاب سأكون أرحته من مسألة المطابقة والتصحيح، وغير ذلك مما هو أشد إتعابا.

والنسخة التي وقفت عليها هي النسخة المطبوعة، التي طبعت بفاس بالمطبعة العصرية بأبي الخصيصات بفاس العليا، عام 1346، باعتناء وتصحيح محمد بن العربي أَشَرْقي(1). ولم أقف على سواها، فكان عملي

(1) ترجم له الأستاذ عبد السلام ابن سودة في "إتحاف المطالع" ص499، قائلا: "وفي أوائل حجة [عام 133] توفي محمد بن العربي أشرقي، من أولاد أشرقي المعروفين بفاس، وأصلهم من تلمسان. علامة مشارك مدرس، أدرج في النظام القروي يدرس فيه علوم الآلة، فكان مقبولا عند الطلبة. له ترجمة في "سل النصال".

وقال في "سل النصال" ص104: "محمد بن العربي أَشَرْقي، أصله من تلمسان، العالم العلامة المدرس المشارك، كان - رحمه الله - يتنزل مع الطلبة ويوضح لهم متن الأجرومية بعبارة سهلة حتى يفهموه. أخذ عن الشيخ محمد بن رشيد العراقي الحسيني، وعن الشيخ محمد - فتحا - القادري الحسني، وعن الشيخ عبد السلام الهواري، وعن الشيخ أحمد ابن =

كالتالي:

- نسْخ الكتاب.

- مراجعة الكتاب ومطابقته قدر المستطاع.

- الاعتناء بتفقير الكتاب إلى فقرات، ووضع علامات الترقيم الشارحة، وهو أمر عسير يحتاج إلى فهم وإدراك للنص.

- وضع العناوين الشارحة للنص، وقد ميزتها بمعقوفتين مربعتين: [].

- عزو الآيات القرآنية إلى مصدرها من القرآن الكريم، بذكر السورة والآية.

- توضيح ما قد يشكل من مضمون النص.

- التقديم للكتاب بدراسة حوله وحول موضوعه.

- ترجمة المؤلف رحمه الله تعالى ترجمة مسهبة قدر الإمكان.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل عنده، ويبارك فيه، ويرحم المؤلف وينور عليه في قبره، ويبارك في ذريته...آمين.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه
الدكتور الشريف محمد حمزة بن علي بن
المنتصر الكتاني غفر الله ذنبه وستر عيبه
الرباط: 20 ذو القعدة الحرام عام 1427
الموافق: 12 ديسمبر عام 2006
الرباط–المغرب

= الخياط، وعن الشيخ عبد الرحمن ابن القرشي الفيلالي، وعن الشيخ أحمد بن الجيلالي الأمغاري...وغيرهم. حضرت عنده درسا واحدا في الأجرومية في أول الطلب، أدخل إلى النظام القروي من أوله، وحج وزار. توفي في رابع حجة متم عام ثلاثة وستين وثلاثمائة وألف، ودفن بروضة قرب جامع الأندلس بعدما مرض وترك الخروج مدة".

ترجمة المؤلف محمد الطاهر بن الحسن الكتاني[1]

أ - اسمه ونسبه

هو الشيخ الإمام، العالم العلامة، الفقيه المحدث المشارك، المحقق الناقد، الخطيب الداعية إلى الله تعالى، العارف بالله المربي؛ أبو الجمال محمد الطاهر ابن الفقيه العالم العدل الحسن المتوفى بفاس سنة 1322 هـ، ابن الفقيه الصالح العابد الذاكر عمر المتوفى بفاس سنة 1278 هـ، ابن العارف المعمر سيدي الطايع المُسَلْطَن، المتوفى بفاس سنة 1264هـ، ابن الفقيه سيدي إدريس، المتوفى بفاس سنة 1194هـ، ابن الفقيه المعمر سيدي محمد الزمزمي الحلبي، المتوفى بفاس سنة 1176هـ، ابن العارف المعمر سيدي محمد الفضيل، المتوفى بفاس سنة 1160هـ، ابن الوجيه سيدي العربي، المتوفى بفاس سنة 1122هـ، ابن الزاهد سيدي محمد، المتوفى بفاس سنة 1083هـ، ابن الصالح سيدي علي، المتوفى بفاس حوالي سنة 1054هـ ابن العارف سيدي قاسم، المتوفى بفاس حوالي سنة 1030هـ، ابن العارف الكبير المعمر، سيدي عبد العزيز، المتوفى بفاس حوالي سنة 997 هـ، ابن العارف المعمر سيدي مَحمد (فتحا)، المتوفى بفاس أوائل القرن العاشر، ابن العارف المعمر سيدي قاسم، المتوفى أواخر القرن التاسع، ابن العارف المعمر سيدي عبد الواحد، المتوفى بمكناس في العشرة الخامسة من القرن التاسع، ابن الزاهد سيدي علي، المتوفى أواخر القرن الثامن، ابن العلامة المعمر سيدي محمد المتوفى بمكناس أواسط القرن الثامن، ابن العلامة المعمر سيدي علي، المتوفى بمكناس أواخر القرن السابع، ابن

---

(1) المراجع: "التاج" ج1 مخطوط. و"طبقات الكتانيين طريقة"، و"رياض السلوان" ص148، و"الأعلام" (1/ 108)، و"إتحاف المطالع" (2/ 450)، و"سل النصال" (49)، و"من أعلام المغرب العربي" (67)، "المطبوعات الحجرية بالمغرب" ص170.

الصالح المُعَمَّر سيدي موسى، المتوفى بمكناس أواسط القرن السابع، ابن الصالح الزاهد المعمر سيدي أبي بكر، المتوفى بشَالَّة أواخر القرن السادس، ابن الصالح المعمر سيدي محمد، المتوفى أواسط القرن السادس، ابن الإمام القطب المعمر سيدي عبد الله، المتوفى بقسنطينة أواخر القرن الخامس، ابن العارف المعمر سيدي هادي المتوفى أواسط القرن الخامس، ابن أمير المومنين سيدي يحيى الثالث الكتاني، المتوفى بزواوة أواخر القرن الرابع، ابن العارف الكبير، سيدي عمران، المتوفى بتلمسان أوائل القرن الرابع، ابن العارف المعمر سيدي عبد الجليل، المتوفى بالبُليدة أواخر القرن الثالث، ابن أمير المومنين سيدي يحيى الثاني، المتوفى بفاس سنة 252هـ، ابن أمير المومنين الفاتح سيدي يحيى الأول، المتوفى بفاس سنة 249هـ،ابن أمير المومنين محي السنة سيدي محمد المتوفى بفاس سنة221هـ،ابن أمير المومنين الفاتح الشهيد مولانا إدريس الثاني المتوفى بفاس سنة213هـ، ابن أمير المومنين، وناقل الخلافة الإسلامية من المشرق إلى المغرب، الفاتح الشهيد؛ مولانا إدريس الأول، المتوفى بزَرْهُون سنة 177هـ، ابن الإمام المحدث القطب الشهيد؛ سيدنا عبد الله الكامل، المتوفى بالكوفة سنة143هـ، ابن الإمام المحدث القطب المعمر؛ سيدنا الحسن المثنى، المتوفى بالمدينة سنة 97هـ، ابن أمير المومنين، وخامس الخلفاء الراشدين، القطب الشهيد؛ سيدنا الحسن الأول، المتوفى بالمدينة سنة 50هـ، ابن أمير المومنين، ورابع الخلفاء الراشدين، الشهيد العظيم؛ سيدنا علي، المتوفى بالكوفة سنة 40هـ، وابن سيدة المسلمين، وصاحبة القطبية العظمى؛ مولاتنا فاطمة الزهراء، المتوفاة بالمدينة سنة 11هـ، بنت أفضل الخلق وسيد الرسل؛ أبي القاسم وأبي الطاهر، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله.

ب - ولادته ونشأته

ولد بفاس في جمادى الأولى عام 1299، ونشأ في بيئة الطهر والعفاف، والولاية والصلاح، سليل ستة أخوة وأخوات تنشّأ من نسلهم أئمة الإسلام وقادته، أفرد بعضهم بالترجمة، وهم جديرون بالافتخار، وهم: جعفر،

وفضيلة، وعائشة، والبتول، وخديجة، وأحمد أبناء إدريس الكتاني.

أما أولهم جعفر بن إدريس الكتاني: فهو شيخ الإسلام، وإمام أئمة الأعلام في المغرب وقته، اشتهر صيته شرقا وغربا، وانتشر تلاميذه في عامة المغرب، حتى لم يكد يتولى القضاء به أحد إلا وهو تلميذ له. وكان المولى الحسن الأول رحمه الله لا يخرج عن فتاواه، ولا يقبل فتوى ما لم يوقعها هو. وكان أحد أعضاء مجلس الشورى . توفي رحمه الله عام 1323.

وترك عدة أبناء كانوا أئمة العلم، ورواد السنة، والذابين عن البلاد ضد المستعمر؛ منهم:

محمد بن جعفر الكتاني: الإمام شيخ الإسلام، حافظ عصره ومحدثه، الذي اشتهر ذكره وذاع صيته في عموم العالم، خاصة بما ألفه من المؤلفات السائرة؛ ك: "سلوة الأنفاس" بتراجم علماء فاس وصلحائها، "والرسالة المستطرفة بمشهور كتب السنة المشرفة" وغير ذلك. توفي بفاس عام 1345هـ، وكانت له جنازة مشهودة حضرها مائة ألف أو يزيدون.

وأحمد بن جعفر الكتاني: الإمام في العلوم الاثني عشر، مدرس القرويين الكبير، والمصنف المكثر المفيد، شارح البخاري وغيره، وصاحب المصنفات النافعة. نشأت الحركة الوطنية بمنزله. توفي عام 1340 هـ عن تسعة وأربعين عاما فقط، وكانت جنازته مشهودة، حضرها أكثر من عشرين ألفا تحزيرا.

وعبد الرحمن بن جعفر الكتاني: الإمام العالم النابغة، سريع البديهة والفهم، الأديب البارع، والمدرس المفتي النافع، اشتهر ذكره بفاس، وكانت له يد بيضاء في إصدار كتب المطبعة الحجرية الفاسية، بحيث يعد في الرعيل الأول للمحققين المغاربة الذين أخرجوا تراث المغرب وبرزوه. توفي في ريعان شبابه عن 37 سنة، عام 1334هـ، بفاس.

وعبد العزيز بن جعفر الكتاني: العلامة الأديب، المؤلف المدرس المفيد، من خيرة جيله، والمتصدرين - على حداثة سنه - للتدريس بجامع القرويين الأعظم. توفي عن ثلاثين عاما فقط عام 1325هـ بفاس.

والحسين بن جعفر الكتاني: العالم الصالح، الناسك المتعبد، من أهل

الذكر الجميل، والسير على سنن الصالحين، له رواية عن علماء المشرق والمغرب. المتوفى عام 1332 بفاس كذلك.

وثاني الإخوة: فضيلة بنت الشيخ إدريس الكتانية: العالمة الداعية إلى الله تعالى، المجاهدة المبتلاة، المفردة بالترجمة، والمتوفاة بفاس عام 1334. وهي حرم جبل السنة والدين الإمام أبي المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني، ولها منه:

محمد بن عبد الكبير الكتاني: الإمام المجدد، والمصلح الكبير، مؤسس الطريقة الأحمدية الكتانية، والداعية الأول للاجتهاد، والتجديد الديني والعلمي، ورائد الحركة الدستورية المغربية. المستشهد بفاس عام 1327.

وعبد الحي بن عبد الكبير: حافظ العصر ومحدثه، مسند الزمان ومؤرخه، الذي عرف عنه بأنه الخزانة المتنقلة، وصاحب الدور العظيم في نشر العلم وإحيائه، وبثه بين الناس، وإحياء التاريخ المغربي، والدراسات النقدية الاستقرائية، أبو الإسعاد وأبو الإقبال. المتوفى عام 1382.

وثالث الأخوة: عائشة بنت إدريس الكتانية، هي زوجة العلامة الشريف مَحمد بن علال بن إدريس المريني، وهي والدة الشريفة العفيفة الداعية إلى الله ملكة بنت محمد المرينية، زوج الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، ووالدة أبنائه الشيخ محمد المهدي، والإمام محمد الباقر، والشيخ إبراهيم. وقد أفرد ترجمها ابنها الشيخ محمد الباقر الكتاني بمؤلف خاص.

ورابع الأخوة: خديجة المسماة خدّوج؛ هي زوجة الشيخ العابد الذاكر الحسين بن جعفر بن إدريس الكتاني رحمه الله تعالى..

وخامس الأخوة: أحمد بن إدريس الكتاني. شيخ من مشايخ الطريقة الشاذلية بفاس، وخليفة إمامها محمد ابن إبراهيم الأندلسي، وهو والد:

محمد الفاطمي بن أحمد الكتاني: علامة فاس، ومدرس جامع القرويين الأعظم، من الطبقة الأولى من رجالاتها الذين تخرج عليهم جل أعلامها، وشهد لهم بالتبرز والتفنن في سائر العلوم، كان يقول: لا أعلمَ في فاس مني ومن فلان (أنسيته، وأظنه الجواد الصقلي رحم الله الجميع). توفي عام 1394.

وسادس الأخوة: البتول بنت إدريس الكتانية..وهي والدة المترجم، وتأتي ترجمتها لاحقا إن شاء الله تعالى.

فبيئة كهذه، عدم وجود مثلها في العالم الإسلامي وقته، بل دهورا قبله، هي البيئة التي نشأ وظهر فيها مترجمنا الإمام أبو الجمال، وهي المدرسة الأولى التي تعلم فيها، وتخرج منها، وكرع من مناهلها ورياضها.

جـ - طلبه العلم

أخذ بجامع القرويين الأعظم، والزاوية الكتانية الكبرا، وغيرهما من معاهد فاس ومساجدها وزواياها عن جمع كبير من الشيوخ وأهل العلم، ترجم لهم وذكرهم تفصيلا في فهارسه التي منها: "المقاصد المهمة، فيمن قرأت عليه أو أجازني من الأئمة". منهم:

والده الشيخ الحسن بن عمر الكتاني، به تربى، وعليه تهذب وتأسس، وتأتي ترجمته لاحقا إن شاء الله تعالى. ووالدته الولية الصالحة البتول بنت إدريس الكتانية، وتأتي ترجمتها لاحقا أيضا بإذنه تعالى.

وخاله جعفر بن إدريس الكتاني، قال فيه في كناشته: "شيخنا وشيخ شيوخنا...لي منه إجازة عامة، وكان يحبني محبة شديدة والحمد لله حق حمده؛ حضرت مرة صلاة العصر فأبى إلا تقدمي للصلاة، فتقدمت وصليت به إماما!". وقد استفاد منه كثيرا، وقرأ عليه أول الصحيحين و"المختصر"، وجميع السنوسية.

وابن خاله محمد بن جعفر الكتاني. ونقل في كنانيشه فوائد كثيرة من دروسه ومجالساته. وله منه إجازة كما في "سل النصال". وقد قرأ عليه عدة علوم، من حديث وفقه، وأصول وعربية..وغيرها، وانتفع به كثيرا.

وابن خاله كذلك: أحمد بن جعفر الكتاني، وصفه في كناشته بقوله: "شيخنا وابن خالنا، وصديقنا وحبيبنا وصفينا".

وزوج خالته عبد الكبير بن محمد الكتاني، قال فيه: "شيخنا وسندنا وقدوتنا، وولي نعمتنا... وكان - رضي الله عنه - يحبني محبة عظيمة جدا،

ويرحب بي إذا أقبلت عليه، ويدنيني منه، وينوه بي، ويقدمني للصلاة بالزاوية وبغيرها، وربما قدمني للمذاكرة مع الإخوان بحضرته. وأوصاني بذلك حين كان مسافرا". وله منه إجازة كما في "سل النصال". وأجازه بعلمي الظاهر والباطن وسائر الطرق والأوراد.

وابن خالته محمد بن عبد الكبير الكتاني وسلم له القياد، واعتبره شيخ علمه وفتحه، وكان من كبار أصحابه، قال فيه في كناشته: "شيخنا وأستاذنا وإمامنا، وملجأنا وملاذنا، ووسيلتنا إلى ربنا سبحانه". أجازه بعلمي الظاهر والباطن وسائر الطرق والأوراد. وأخذ عنه النزعة الاجتهادية، والفكر الإصلاحي، وفلسفة التشريع.

وأحمد بن الطالب ابن سودة المري، قال فيه في كناشته: "شيخنا وشيخ شيوخنا... أجازني - رحمه الله - بلفظه وخطه إجازة عامة تامة".

وأحمد بن محمد ابن الخياط الزكاري الحسني، قال فيه في كناشته: "قرأت عليه طرفا من البخاري، و"الحكم"، و"الشفا"، وذاكرته في مسائل عدة منها وغيرها، وأجازني".

وحميد بن محمد بناني النفزي، قاضي فاس، وشيخ جماعتها..وله منه إجازة كما في "سل النصال". قرأ عليه أول الصحيحين، و"المختصر" للشيخ خليل.

وعبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلوي، قاضي الجماعة بفاس، وقال فيه في كناشته: "لي منه إجازة". وقرأ عليه أول الصحيحين، و"المختصر". وفي أيامه ختم "المرشد المعين" لابن عاشر، وقيد ختمة عليه، وأطلع والده الشيخ عليها فسر بها كثيرا، وقال له: "لقد أدرجت ولدك في طبقات العلماء"، وذلك عام 1321.

وعبد السلام الهواري، وقال عنه في كناشته: "ولي منه إجازة عامة بخطه".

ومَحمد بن محمد بن عبد السلام كنون، قرأ عليه طرفا من "المختصر" من باب اليمين، وحضر في بعض مجالسه بالزاوية التجانية في رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

وحميد بن محمد بناني، قال: "لي منه إجازة عامة". والشيخ أحمد العلمي.

وقاضي الجماعة محمد بن رشيد العراقي، قرأ عليه طرفا من "المختصر" وغيره...

ومَحمد بن قاسم القادري، قال في كناشته: "كان..على غاية من النفع والإرشاد. قرأت عليه بعض "المختصر"، و"جمع الجوامع" لابن السبكي، و"الجرومية" في مجلس حفيل، وقراءته جيدة؛ خصوصا "جمع الجوامع"، يحضره نجباء المدرسين... كان - رحمه الله - متواضعا غاية، ويحبني كثيرا، وكانت بينه وبين والدي ألفة كبيرة، ولي منه إجازة عامة بالقول". وأسهب في ذكر الكرامات التي وقعت في جنازته.

وأحمد بن الشمس الشنقيطي، قال فيه في كناشته: "شيخنا العلامة المحقق النحرير". وأجازه بطريقة الشيخ ماء العينين الشنقيطي.

كما حصل على إجازات من عدة علماء؛ كمن ذكر عدا والديه، وماء العينين الشنقيطي، وأدرج كما سبق عام 1321 في طبقة العلماء.

كما أن من شيوخه في التبرك؛ الشيخ الصالح المجذوب الشريف الطاهر بن مَحمد بن أبي النصر العلوي، المتوفى عام 1333، قال في كناشته: "دخلت مرة لمحل فوجدته فيه في جملة أناس، فسأل عني، فقيل له: فلان. فقال:

نور النبوة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر!

وقد أخبرني شيخنا - سبط المترجم - العلامة العارف عبد الحميد بن عمر زُوَيْتِن - حفظه الله - بكرامة وقعت لجده - المترجم - مع شيخه العلوي هذا، قال: "في يوم من الأيام كتب جدي خطبة الجمعة لقراءتها في مسجد المنية الذي كان يخطب فيه، فلقيه سيدي الطاهر العلوي في طريقه للجامع، فأخذ بيده إلى بيت في الطريق وقال له: ادخل هذا البيت. فدخل، فوجد قباب الحمام ساخنة، فتذكر أنه كان على جنابة ذلك الصباح ونسي الغسل، فدخل واغتسل، ثم انصرف إلى خطبته، وعدها كرامة بينة من كرامات شيخه رضي الله عن الجميع".

د - أخذه الطريقة الكتانية وإجازة الشيخ أبي الفيض له

يعد الإمام أبو الجمال - رحمه الله تعالى - من أعمدة الطريقة الأحمدية الكتانية التي أسسها ابن خاله الإمام الشيخ أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني قدس سره، ومن خلالها كان يقوم بمختلف جهوده العلمية والوعظية والإصلاحية، وقد ملأ من وطابها مختلف كتبه التي كان - رحمه الله تعالى - يقصد فيها الموسوعية والشمول، إضافة إلى النفع العام.

قال في كناشته: "مما من الله سبحانه به علي، وله الحمد والشكر كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه: دخولي في طريقة سيدنا وسندنا، وقدوتنا وممدنا، وعزنا وفخرنا، وعنايتنا وذخرنا، وشيخنا وأستاذنا، وملجئنا وملاذنا، الشيخ الأكبر، والعارف الأشهر، والكبريت الأحمر، القطب الواصل، والوارث الكامل، الفرد المحمدي، والختم الحقيقي الأحمدي، تاج العارفين، وإمام الواصلين، ابن عمي، ونجل خالتي شقيقة أمي؛ أبي الفيض سيدنا ومولانا محمد ابن الشيخ الكامل، المربي الواصل، القدوة النفاع، الكريم الأخلاق والطباع، العارف بالله، الدال بحاله ومقاله على الله، الولي الكبير، والسني الشهير، عالم الصلحاء، وصالح العلماء، الفرد الرباني؛ أبي المكارم مولانا عبد الكبير الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني، حفظهما الله جل سلطانه بالسبع المثاني بمنه...آمين".

"فأخذت منه الورد الكريم الكتاني، وذلك بمنزله الشريف ضحوة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة الحرام عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف، ثم جددته بوادي فاس، في نزهة كنا فيها هناك يوم الخميس ثامن محرم الحرام فاتح عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، وشبك أصابع يده الشريفة اليمنى بأصابع يدي اليمنى، وقال لي: نحن على عهد الله تعالى في المحيى والممات، وفي القبور والنشور والحساب، وفي كل موطن".

"وقد رأيت قبل أخذ الورد الشريف وبعده مرائي شريفة أحببت أن أوردها هاهنا، لما أنها من المبشرات المقوية لليقين كما هو مقرر معلوم، فنقول: رأيت قبل أخذ الورد الشريف بنحو الثلاثة أشهر فيما يرى النائم، كأني دخلت

لمسجد لصلاة الجمعة، فوجدته ممتلئا بالناس، وكلهم كبيرهم وصغيرهم بأيديهم كتاب يقرأون فيه، ولا يقرأ منهم مِن حِفظه بدون كتاب قط. ثم خرج الخطيب، فالتفتُّ إليه، فإذا هو بعض من ينتمي للعلم من أهل العصر، فرقي المنبر ومكث هنيئة ثم نزل، فنظرت إليه فإذا هو غير الرجل الذي رأيته أولا، بل صار رجلا آخر متزي بزي النصارى، عليه كبوط وشمرير، وجميع لباسهم، ثم نزل وصار ينتزع من الناس الكتب التي بأيديهم بعد أن يمتنعوا من ذلك حتى يأخذها منهم قهرا، حتى لم يُفلت واحدا ممن في المسجد إلا أخذ منه كتابه قهرا عليه. ثم جمع تلك الكتب ورقى بها المنبر، وحصل ضجيج في المسجد من أجل ذلك. ثم التفت فيإذا من جملة من في المسجد هذا: الشيخ الأستاذ الإمام ووالده الفرد الهمام، وكل منهما قابض كتابه بيده يقرأ فيه من غير مشوش أصلا، ولم يقربهما الرجل المذكور ولا التفت إليهما خصوصا لهما دون سائر من بالمسجد، واستيقظت".

"ثم بعد ذلك في يوم الاثنين 8 ذي القعدة المذكور طلعت لداره السعيدة مرافقا لشقيقي الطالب النجيب سيدي عبد الرحيم، وطلبنا منه الإنعام علينا بالورد الشريف بعدما كنت طلبته منه قبل ذلك وأمهلني إلى يوم الاثنين، فمكثنا معه - رضي الله تعالى عنه - من صلاة العصر إلى صلاة العشاء في المذاكرة العجيبة المطربة، ثم لما فات الحال أذن لنا في الذهاب لمحالنا وأن نأتيه من الغد في الساعة العاشرة، فذهبنا، وبعدما نمت في هذه الليلة؛ رأيت في منامي كأني وأخي سيدي عبد الرحيم المذكور وسيدنا الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه، وسيدنا ومولانا الشيخ، وسيدنا والده مولاي عبد الكبير جالسين عند قبر النبي ﷺ ملاصقين به، رافعين أيدينا إلى الدعاء، وقد غمرنا خشوع وهيبة وجلال وبكاء، فمكثنا كذلك هنيئة، ثم إن مولاي عبد الكبير افتتح وقال: أستغفر الله لي وللمومنين والمومنات. فقلناها معه سبعا وعشرين مرة، ثم مسحنا وجوهنا بأيدينا وقمنا وأنا أتعجب في نفسي في المنام وأقول: قبر النبي ﷺ لا يمكل لأحد الوصول إليه، فكيف وصلنا نحن؟!"

"هذا ما أمكن شرحه وما ضبطته من الرؤيا، واستيقظت. ثم ذهبنا من الغد وفق ما مر، فقصصتها عليه رضي الله تعالى عنه، فظهر السرور في وجهه

الشريف، وقال لي: فيها بشارة عظيمة، وإشارة إلى أن الإذن بإعطاء الورد خرج منه ﷺ، وأنه يعرض عليه. ثم أنعم علينا - رضي الله تعالى عنه - بالمطلوب، وزاد كما هي عادة الكرام. ولما قصصتها على سيدنا والده وذكرت له ما قال فيها مولانا الشيخ ولده؛ قال لي: ولذلك أخركم إلى غد. يعني حتى يخرج الإذن النبوي الشريف. فذكرت ذلك لسيدنا الشيخ، فقال: ليحيى من حي عن بينة".

قال: "وفي اليوم الذي أخذنا الورد الكريم؛ أطلعنا - رضي الله عنه - على تأليفه العجيب الذي سماه: "روح الفصوص فيما وقع فيه المفسرون من الهفوات مع الأنبياء عليهم السلام وقوفا مع ظاهر الآيات"، في سفرين، سرد علينا منه ما شاء الله، وأخبرنا أنه ابتدأه في رمضان الفارط يكتب منه الورقة ثم ينزلها تيبس، ويكتب أخرى من التفسير وينزلها...وهكذا. وهو كتاب نفيس جدا لم ينسج أحد على منواله، يكتب بسواد العيون. سمعت والده رضي الله عنه يقول في هذا الكتاب: لا نظير له في الدنيا!. فجزاه الله خيرا".

قال الشيخ أبو الهدى محمد الباقر الكتاني في "طبقات الكتانيين طريقة": "صار يجتمع مع الأخوان في الزاوية، ويحضر الحضرات الذكرية، والمجالس العلمية والعرفانية، ويقوم بأعمال الطائفة كلها، من ذكر وتصلية، وعبادة وعشيات جمعية، وليالي مولدية، وعظمت محبته في السادات، وثبت قدمه في النسبة، وشاهد مشاهد ورأى مرائي رفيعة...إلخ".

هـ - إجازة الشيخ أبي الفيض الكتاني للمترجم

وإليك نص إجازة الشيخ أبي الفيض - قدس سره - له، وقد أرخها الشيخ أبو الجمال في كناشته يوم الاثنين سابع شعبان المبارك من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف. قال: "وفي هذا اليوم ناولته هذا الكناش ليجيزني فيه بعد أن كتبت له استدعاء، فأجازني بالإجازة يمنته، وأسفلها خطه المبارك بالتوقيع عليها، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات". وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على النبي الفاتح الخاتم وعلى آله وصحبه

حمدا لمن بالعلم شرّف، وبه بعد التنكير عرّف، وأعلى المراتب، وأكمل المناقب، وصير الخامل نبيها، والحقير وجيها.

والصلاة والسلام على من به علّى قدره على الأقدار، سيدنا محمد خير الأخيار، وقدوة الأتقياء والأصفياء والأبرار، الذي نزل عليه في فضله ما هو شهير، وورد عنه في إشادة ذكره ما يُروي ويمير، مما يوجب الحث عليه، وصرف كل الوجهة إليه، وإفراغ الجهد والطاقة في تحصيله، والسعي في درك كثيره وقليله.

ورضي الله عن آله الكرام، وسائر صحبه الفخام، الذين بذلوا في ذلك المجهود، ونبذوا في سلوك طريقه الراحة والهجود، وعلى كل من سلك طريقهم الأقوم، ممن تأخر أو تقدم.

أما بعد، فإن ممن سلك في اقتباس أنواره، واجتلاء لوامع أسراره، ابن عمنا وابن خالتنا، الفقيه الأجل، المشارك الأمثل، الخيّر الأنبل، الحيي الأديب، الفاضل الأريب، فرع الشجرة الطاهرة، وسليل سلك المآثر الفاخرة، العالم المدرس، أبو الفضل سيدي محمد الطاهر نجل الشريف الماجد الأصيل، البركة السند، الذاكر الأعمد، الأشهر الأحمد، الفقيه الوجيه، العدل النبيه، مولاي أبي علي سيدي الحسن نجل الولي الصالح البركة أبي حفص سيدي عمر ابن جد والدتي من أبيها، الولي الكبير، العارف الناسك السالك، مولانا الطائع الحسني الإدريسي الكتاني، منحه الله دار التهاني.

فطلب - لحسن نيته، وصفاء طويته - إجازة العلوم الشرعية، والفنون الأثرية والعقلية، على عادة الطلاب، المقتفين في طلبهم سبل الصواب، وتبركا بآثار من سلف، وبالصفات الحميدة اتصف. فلم يكن بد من الإسعاف، إذ ذاك وسم من تحلى بالإنصاف، فأقول والله المستعان:

أجزت الشريف أبا الفضل محمد الطاهر بن الحسن الكتاني، نفعه الله ونفع به آمين، بكل ما تصح لي روايته، وتثبت لي درايته، من العلوم الشرعية، والآلات الفرعية، وعلى الخصوص: الكتب الستة المشهورة،

والأجزاء المشورة [كذا]، إجازة عامة، مطلقة تامة.

كما أجازني كذلك شيوخ هذا العصر، من خصوا بالتقديم في كل مصر، كسيدنا بركة العصر، رباني الوقت، مولانا الشيخ أبي المكارم عبد الكبير ابن القطب محمد بن عبد الواحد الكتاني، وعلامة المعارف بالحجاز، العارف المتأله الشيخ حبيب الرحمن الرَّدَولوي الحسيني، وعارف بلاد الهند العلامة المشارك الشيخ محمد حسين الإله أبادي الحنفي الجشتي، ثلاثتهم عن محدث المدينة الشيخ عبد الغني الهندي المدني عن الحافظ الشيخ محمد عابد السندي المدني بأسانيده التي في كتابه "حصر الشارد"، وقد أحاط بأسانيد غالب الكتب الموجودة والمسموعة، فكان أجمع الفهارس وأولاها بالقبول، فأي كتاب شاء الإنسان إسناده يجده فيه، وقد أردت - على سبيل الاختصار - ذكر بعض أسانيدي إلى مشاهير الكتب النافعة، والمؤلفات الجامعة:

أروي "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي مسلسلة بالصوفية عن الوالد والمشايخ بعده الصوفية عن الشيخ عبد الغني النقشبندي الصوفي عن أبيه أبي سعيد الصوفي عن الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي الصوفي عن أبيه الشهاب أحمد بن عبد الرحيم الصوفي عن المسند أبي طاهر الكوراني الصوفي عن أبيه علامة العارفين الملا إبراهيم الكوراني الصوفي عن الختم صفي الدين القشاشي الصوفي عن الشهاب أحمد بن علي بن عبد القدوس الصوفي عن والده علي الصوفي عن شيخ الصوفية عبد الوهاب الشعراني عن القاضي زكرياء الأنصاري الصوفي عن أبي الفتح المراغي الصوفي عن القطب إسماعيل الجبرتي شيخ الصوفية باليمن عن أبي الحسن الداني الصوفي عن إمام العارفين ومربيهم الشيخ محيي الدين الحاتمي مهذب التصوف عن المعمر محمد بن عَيشون المغربي الصوفي عن الإمام أبي بكر ابن العربي الفقيه الصوفي عن الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه.

وأروي كتب القطب عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه عن الشيخ محمد حسين الهندي عن الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي الأنصاري عن الشيخ محمد بن عبد الله الشرقي عن الحافظ محمد بن علي الشِلفي المكي

عن محمد بن عامر المعداني عن الشيخ محمد بن عبد السلام البناني عن الشيخ مَحمد بن عبد القادر الفاسي عن أبيه شيخ الإسلام سيدي عبد القادر عن أبيه العارف عن الشيخ مَحمد بن قاسم القصار عن البدر القرافي عن العارف الشعراني. وأسانيده مذكورة في فهرسته الصغرى المطبوعة بهامش "العهود الكبرى"، فأسانيد الفقه على المذاهب الأربعة تؤخذ من هناك على التمام.

وأروي "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" عن الشيخ حبيب الرحمن والشيخ محمد حسين كلاهما عن الشهاب أحمد بن زين العابدين المكي عن ارتضا علي خان العُمري عن عمر بن عبد الرسول المكي عن علي بن عبد البر الونائي عن الشيخ مرتضى الزَبيدي عن علي بن العربي السقاط عن محمد بن عبد السلام بناني عن القاضي أحمد بن العربي ابن الحاج عن سيدي عبد القادر الفاسي عن الشيخ عبد الواحد ابن عاشر رحمه الله.

وأروي شرحي الخرشي والزرقاني على "المختصر" بهاذا السند إلى الشيخ ابن عبد السلام بناني عنهما مكاتبة باستدعاء أبيه له.

وبقية أسانيدي تنظر في فهارس المتأخرين الجامعة، كثبت شيخ المالكية في عصره الشمس محمد بن محمد الأمير الكبير، فإني أرويها كغيرها عن الشيخ محمد حسين الإله أبادي عن الشيخ أحمد دحلان عن الشيخ عثمان بن حَسَن الدمياطي عن الأمير.

والشيخ الأمير يروي عن الصعيدي حواشيه وفهرسته، وهو عن الشيخ محمد بن عقيلة المكي فهرسته ومسلسلاته وكافة مؤلفاته.

وأوصيك أيها السيد الأغر بالتقوى، والاعتصام بحبل الله الأقوى، والإعراض عن الدنيا الفانية والدعوى، وتطهير القلب من الغير والسوى الذي عمت به البلوى، والتثبت في المسائل العلمية فنصف العلم: "لا أدري"، وحسن الظن بجميع المسلمين، والإحسان إلى كافة المومنين، والتعلق برسول الله ﷺ وعلى آله، والله تعالى ينفعك وينفع بك على الدوام،

ويقيك أسواء الليالي والأيام، ويثبتني وإياك يوم الختام...آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. كتب عن إذن أسير ذنبه وكسبه: محمد ابن الشيخ عبد الكبير الكتاني، حمد الله جل لطفه مسعاه وأعانه في الدارين...آمين.

انتهت الإجازة المباركة، ومن طرائفها: أنها كتبت بخط الشيخ عبد الحي الكتاني، وخاتمتها من قوله: "كتب عن إذن. . .إلخ"، بخط المجيز الشيخ أبي الفيض رضي الله عنه.(انظر الصورة رفقته).

و - وظائفه وجهوده الإصلاحية

توفي والد المترجم - رحمهما الله - أواخر عام 1322، وترك عائلة كبيرة، فألزم القاضي ابن خضراء الشيخ أبا الجمال بالجلوس في محل والده من سماط العدول من أجل كفالة عائلته، فجلس به على كره، وبقي كرهه يتجدد له كل وقت من صعوبة الزمان وأهله، كما في "رياض السلوان".

ثم ما فتيء أن تابع مسيرته العلمية بجد ونشاط، بحيث تولى عدة وظائف غير رسمية؛ كالعدالة بسماط عدول فاس، والتدريس بجامعة القرويين الذي اعتنى فيه بتدريس الفقه، والزاوية الغازية التي اعتنى فيها بتدريس السيرة النبوية، والخطابة بجامع المنية بها، والإفتاء. علاوة على قيامه بالوعظ والإرشاد في الزوايا الكتانية، والمساجد والدور.

كما كان - رحمه الله - من العلماء القلة الذين تجرأوا في بداية الاستعمار بالتدريس في المدارس الوطنية الأولى، التي كانت الغاية منها سد الباب في وجه الاستعمار الثقافي الذي عمل جهده في مسخ الهوية الإسلامية المغربية. فعمل على التدريس - بالموازاة مع جامع القرويين الأعظم - بالمدرسة الناصرية، التي تعد من أوائل المدارس الحرة بالمغرب بعد الاستعمار الفرنسي.

كما كان له اعتناء بنشر وتحقيق التراث العلمي؛ فقد نشر بتصحيحه اشتراكا: نبذة من خطب الشيخ أبي مدين الفاسي، و"عدة الفروق" للونشريسي. .

ز - حاله

كان من كبار علماء وقته، فقيها مفت، مدرسا بجامع القرويين وغيره من مساجد وزوايا فاس، متضلعا من علوم الحديث واللغة والأدب، والسيرة النبوية، مؤرخا مؤلفا، شاعرا مبدعا كتب في مختلف مواضيع الشعر.

وكان مبرزا في علم التوثيق، ماهرا في الفرائض، جيد الفهم، سديد النظر، تجمعت فيه أوصاف حميدة، ومآثر عديدة، يقضي جل أوقاته في نشر العلم تدريسا وتأليفا، وفي العبادة ليلا ونهارا، زاهدا في الدنيا ومناصبها وما إليها.

وكان الناس يحضرون من بعيد لسماع خطبه المنبرية التي كان يلقيها بمسجد المنية بفاس كل جمعة؛ لما اشتملت عليه من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما تضمنته من حملات شعواء على أهل البدع والضلالة. كما كان أحد المدرسين الوطنيين الذين درسوا بالمدارس الحرة التي كانت تنافس مدارس الاستعمار، من خلال تدريسه بالمدرسة الناصرية التي كانت من أوائل المدارس الحرة بفاس.

وقد كان - رحمه الله تعالى - عالما موسوعيا مناظرا، لا يتوانى عن المناقشة بحرية فكر، ومقارنة الحجة بالحجة، والترجيح بين أقوال مختلف أرباب الأقوال سواء من مباحث كلامية، وتفسيرية، وأصولية، وفقهية، وحديثية، وصوفية. . .إلخ، مما يدل على تضلع واجتهاد كبيرين في البحث والمناظرة في عدة علوم، باحثا عن الأسرار والحكم التشريعية في مختلف المباحث التي يبحث فيها، والمجالس التي يعقدها.

كما كان فقيها عالما واعيا، محيطا ومدركا لما ينقله ويحفظه من العلوم، مع الوعي التام بأبعاده، بحيث ينبه السامع إلى كل ذلك، ويناقش ما يحتاج للمناقشة، سواء بالشرح والإيضاح، أو الرد والإصلاح. وقد يبين المسألة الجزئية على أي مذهب من المذاهب هي، ومن قال بها، وإن كان السياق لا يتوقف على ذلك، مما يدل على أنه كان مطلعا على المذاهب الأربعة، بخاصة، ومذاهب المجتهدين بعامة، عارفا للخلاف داخل تلك المذاهب.

وهو يستدرك في جميع العلوم على أهلها، ويناظرهم، فيناقش الزمخشري، والقاضي أبا بكر ابن العربي، والنووي، والبلقيني، والرصاع، والقسطلاني، كل ذلك بالحجة والدليل، والاعتماد على الحجج النقلية والعقلية والعلمية، مع القدرة على التوجيه والترجيح، والغوص على المعاني ورد كل فرع لأصله، مما يدل على ذكاء فطري، وتمكن بالغ من العلوم، وهو أمر تجديدي ندر في وقته، ينم عن فتح كبير، وحس علمي رفيع.

ويستشف من كتاباته - رحمه الله - الاطلاع الواسع على متون الأحاديث والآثار، وشدة الاستحضار لها، مع ذكر مخرجيها ومراتبها، بحيث تجده مطلعا على دقائق في السنة، وغوامض في فك مبهمات الأحاديث، ومعرفة الأطراف على تشعبها، وهو أمر يدل على ملكة حديثية واعتناء بالسنة بالغين، يقل أن تجده عند علماء عصره. وقديما قيل: "لا يكون الفقيه فقيها حتى يعرف الحديث من أربعين وجها على الأقل". يعني: فقه الحديث والأثر.

كما يستشف أن المترجم - رضي الله عنه - كان هائما مولعا بالنبي ﷺ وعلى آله، ليس له حديث ولا متعة سوى بذكره وذكر آثاره وشمائله، بحيث يتحدث عنه بحديث شائق مجلب للسامع، معتن ومحبب لذكر النبي ﷺ وعلى آله، إذ تشعر به يتلذذ في ذلك، ويستطرد، ويأتي بالفوائد والأشعار، وكلام أئمة المعاني والأذواق. ويظهر ذلك جليا في كتاباته، والمواضيع التي أفرغ لها الجهد كما يأتي بإذنه تعالى في فصل مؤلفاته رحمه الله تعالى.

ومن طريف أجوبته في الموضوع، ما أجاب به من رأى التعارض بين آيتين: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، و: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . .﴾ [الأنفال: 2]، فأثبت في الآية الأولى الاطمئنان لقلب الذاكر، وأثبت له في الآية الثانية الوجل الذي هو الخوف والخفقان، وهو ضد الاطمئنان..

قال: "فأجبت على البديهة بأن: الآية الأولى على ظاهرها، وأن الذاكر الذكر الحقيقي لا محالة يحصل له الخوف والخفقان، كما هو ظاهر. وأما الآية الثانية؛ فالمراد بـ "ذكر الله" فيها: سيدنا محمد ﷺ، لأن من

أسمائه ﷺ: "ذكر الله" كما ذكره منها الجزولي وغيره..وذلك أواخر شعبان عام 1333". قلت: وهذا من باب علم التأويل، أما لا يُشك أنه تارة يتجلى على الإنسان البسط والاطمئنان أثناء الذكر، وتارة القبض والخوف من الله تعالى أثناءه أيضا، والسالك دائما بين جناحي خوف ورجاء.

وكان المترجم - رحمه الله - من أهل الولاء والبراء، لم يعامل الاستعمار الفرنسي بعد دخوله في شيء، ولا قبل منصبا تحت ظله، ولا حتى التداوي بالأطباء الفرنسيين، كل ذلك غيرة على الشريعة، وبغضا لأعداء النبي سيدنا محمد ﷺ، وتعلقا بالعزة الإسلامية والنخوة الهاشمية.

والحاصل؛ يلخص حاله ومقاله، ما قاله فيه تلميذه الإمام أبو الهدى محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني رحمه الله تعالى في كتابه "التاج": "وبالجملة...فقد كان آية من آيات الله في الكون"!

ح - شهادة الأعلام فيه

قال عنه الإمام محمد بن جعفر الكتاني في "النبذة"[1]: "الفقيه العلامة...إنه من أهل العلم والتقوى والديانة، والمروءة والعفاف والصيانة، له مجالس بالقرويين يقرأ فيها صحيح البخاري وغيره، ويجلس بسماط العدول للشهادة، ولوائح البركات ظاهرة في غرته، وأنوار السعادة لائحة في طلعته...".

وقال عنه الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه "التاج": "كان - رحمه الله - عالما جليلا، وصوفيا نبيلا، مشاركا في الأصلين والفقه وكثير من العلوم المتداولة في عصره، مبرزا في علم التوثيق، ماهرا في الفرائض، جيد الفهم، سديد النظر، تجمعت فيه أوصاف حميدة، ومآثر عديدة، ترغمك على الاعتراف بأنه من بقايا السلف الصالح القلائل".

"يقضي جل أوقاته في نشر العلم تدريسا وتأليفا، وفي عبادة ربه ليلا ونهارا...وكان الناس يحضرون من بعيد لسماع خطبه المنبرية التي كان يلقيها

(1) "النبذة اليسيرة" ص290.

بمسجد المنية بفاس كل جمعة، لما اشتملت عليه من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما تضمنته من حملات شعواء على أهل البدع والضلالة".

"وكان كثير التواضع، سالم السريرة، لاهجا بذكر الله تعالى والثناء على النبي ﷺ وأصحابه، وأقطاب شريعته، معدودا من كبار علماء القرويين والطريقة الكتانية"[1].

وقال عنه عبد السلام ابن سودة في "سل النصال": "العلامة المشارك، المطلع المحدث، المدرس الكاتب المقتدر..."[2].

وقال عنه الشيخ إدريس بن الماحي القيطوني في "معجم المطبوعات المغربية": "الفقيه العلامة، المحصل المدرس النفاعة، المحدث الخطيب البليغ، المؤلف العدل النزيه...".

"كان فقيها عالما، مدرسا نفاعة، عارفا بالنحو والفقه والحديث، والسير والتفسير، خيرا دينا، هينا لينا، صالحا زاهدا ورعا. طويل الصمت، حسن السمت، كثير الوقار، متواضعا، كريم الأخلاق، مشتغلا بما يعنيه، مقبلا على عبادة ربه، مقلا من الدنيا، جانحا إلى الخير، محبا في أهل الصلاح، متمسكا بالسنة، مكبا على التدريس والإفادة، محسنا للتلقين. سهل العبارة، كثير التواضع، متحريا في الشهادة"[3]...بخ.

ط - تلامذته والآخذون عنه

أخذ عنه جمهرة من أعلام المغرب، غير أنني بعد طول البحث لم أقف سوى على ذكر: أخويه الأديب الكاتب عمر، والشاعر الخطيب الداعية عبد الرحيم ابني الحسن الكتاني، ونجله النقيب إدريس بن الطاهر الكتاني، والإمام أبي الهدى محمد الباقر بن محمد الكتاني، والبحاثة المجاهد أبي

---

(1) "التاج المرصع" (1/ 120).

(2) "سل النصال" ص49.

(3) "معجم المطبوعات المغربية" ص301.

المزايا محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني، ومحدث الحرمين الشريفين محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني، والعلامة الكبير أبي بكر جسّوس، والفقيه المشارك محمد بن محمد ابن سودة المري، والمؤرخ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري...وغيرهم.

ي - مؤلفاته

وترك ما يدنو من مائة مؤلف في مختلف فنون المعرفة، جلها لم نقف عليه، غير أنها يرجح أنها في ملك أحفاده. منها:

1 - "إتحاف الخليل بشرح حديث جبريل".

2 - "إتحاف الطالب بما ينفعه من المطالب".

3 - "إذهاب الرسن فيما أسندناه عن والدنا أبي علي الحسن".

4 - "الأجوبة المرضية عن الأسئلة الحديثية والفقهية".

5 - "إرشاد السالك إلى خطبة ألفية ابن مالك".

6 - "الأزهار الندية في الأحاديث القدسية".

7 - "إسعاف الراغب في شرح إتحاف الطالب".

8 - "إشراق البدر بشرح أسباب الغنى والفقر".

9 - "الإعلام ببعض شيوخنا الأعلام".

10 - "الإعلام بحكم من سب النبي عليه السلام".

11 - "الإعلان بما التقطته من الفوائد الحسان".

12 - "البحر الزاخر بمفاخر سيد الأوائل والأواخر".

13 - "البدور المتبعة في مناقب الخلفاء الأربعة".

14 - "بلوغ الآمال فيما يستمر أجره من الأعمال".

15 - "بلوغ الأمنية فيما يتعلق بالنية".

16 - "بلوغ المرام، في التعريف ببعض العلماء الكرام".

17 - "بهجة البصر بذكر بعض أعيان القرن الرابع عشر".

18 - "تأليف في تعمير وسماع القرآن من المذياع".

19 - "تحرير الكلام فيما يتعلق بالوضوء قبل الطعام".

20 - "تحفة الأخيار بفضل بعض الأذكار".

21 - "تحفة الأذكياء بما حدثنا به سيدنا الوالد من كرامات بعض الأولياء".

22 - "تحفة أهل الذكاء بفضيلة الدعاء".

23 - "تحفة أهل النظر بقول صاحب المختصر: ونزع مأكول أو مشروبٍ أو فرج طلوعَ الفجر".

24 - "تحفة ذوي الذنوب والأوزار فيما يكون فداء من عذاب النار".

25 - "تحفة ذوي الصفا والوفا في التمتع بذات المصطفى".

26 - "تحفة الصادر والوارد بولادة صاحب الشفاعات في المواقف والمشاهد".

27 - "التحفة المهداة لمن أراد التثبت عند الوفاة".

28 - "تذكرة الغافل في التحذير من الخوض في الباطل".

29 - "ترجمة الإمام مولاي الطيب الكتاني رضي الله عنه".

30 - "تقييد على أوائل القصيدة الهمزية للبوصيري".

31 - "تنبيه الطالب من التحريف فيما يتعلق بشروط التصنيف".

32 - "تنوير الفكرة في خصال الفطرة".

33 - "الجواهر الثمينة في فضائل المدينة".

34 - "الجواهر الحسان في ذكر أربعين حديثا من كلام سيد ولد عدنان".

35 - "الجوهر المكنون في ذكر فرع الحلبي المصون". منظومة في تراجم الفرع الحلبي المنتمي للسيدة فاطمة بنت الإمام أحمد بن عبد الحي الحلبي رضي الله عنهم.الجواهر الملمة لما اتفق عليه من أحاديث الأئمة".

36 - "الجواهر الملمة لما اتفق عليه من أحاديث الأئمة"

37 - حاشية على أوائل صحيح مسلم.

38- حاشية على أوائل صحيح البخاري.

39 - "ختم شمائل الترمذي".

40 - "الخطب المنبرية". ضمنها ما يدنو من مائة خطبة محررة. في سفر.

41 - "الدر النظيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: 4]".

42 - "الدر الثمين في بذل السلام بين المومنين".

43 - "الدر المنيف في طلب العلم الشريف". وهي أربعون حديثا مخرجة في فضل طلب العلم الشريف، مع مقدمة وخاتمة، قمنا بتحقيقها وسنعرضها للطباعة قريبا بإذنه تعالى.

44 - "الدرر البهية في ذكر الأمور السبعة المخفية".

45 - "الدرر المنتشرة، في النهي عن تعظيم يوم العنصرة".

46 - "الدرر المنيفة في ذكر شمائله عليه السلام بصلوات منيفة".

47 - ديوان شعر.

48 - السماعات من الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد رضي الله عنه.

49 - "السيف المسلول في الرد على من أنكر القيام بمولد الرسول" صلى الله عليه وآله وسلم.

50 - "شرح الحكم الكتانية" للشيخ أبي الفيض.

51 - "شرح خطبة ابن مالك". في سفر كبير.

52 - "شرح المرشد المعين".

53 - شرح الورد الأحمدي الكتاني.

54 - "شفاء الغرام بمولد خاتم الأنبياء وصفوة الرسل الكرام".

55 - "شفاء الصدور بخير الأيام والشهور".

56 - "شموس الحقائق في اللهج بأسماء خير الخلائق".

57 - "العقد المنضد بجواهر الاسم المفرد".

58 - "الفتح المبين في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين".

59 - "فتح الملك الجليل فيما التقطته من الفوائد في مختصر خليل".

60 - "فتح المنان في شرح تذكرة الإخوان". وهي قصيدة له في التحلي وضده.

61 - قصيدة في القبض في الصلاة المفروضة.

62 - قصيدة في مدح الإمام إدريس الأزهر. رضي الله عنه.

63 - قصيدة في مدح الإمام إدريس الأكبر رضي الله عنه.

64 - قصيدة في مدح الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد رضي الله عنه.

65 - قصيدة في نظم أسماء النبي ﷺ التي في "دلائل الخيرات".

66 - "القول الشافي في عقوبة تارك الصلاة الجافي".

67 - "القول المنصور في العمل بالحديث المخالف للمشهور".

68 - كتاب في سيرة الطريقة الأحمدية الكتانية.

69 - "كشف الغمة فيما يوجب خصائص هذه الأمة".

70 - "كشف القناع في الرد على أهل الزيغ والابتداع".

71 - "كشف اللثام فيما يوجب حسن الختام".

72 - كناشة. ذكر فيها فوائد ووفيات مهمة، بحوزتنا صورة عنها.

73 - "كنوز الأسرار في فضل حديث النبي المختار".

74 - "الكواكب الدرية في الصلاة على خير البرية".

75 - "الكواكب السيارة على شرح ميارة".

76 - "مطالع السعادة، في اقتران كلمتي الشهادة".ط. وهو الكتاب الذي بين يدي القاريء الكريم.

77 - "مفتاح الوصول بفضائل المدينة وزيارة الرسول".

78 - "المقاصد المهمة، فيمن قرأت عليه أو أجازني من الأيمة".

79 - "منتهى الأماني في التعريف بالنسب الكتاني".

80 - "منتهى الأماني وطريق السعادة، في شرح حديث الشفاعة".

81 - "المنح القيومية في ختم الآجرومية".

82 - "المواهب الربانية في شرح الحكم العطائية".

83 - "المواهب الرحمانية في الشعبة الكتانية".

84 - "المورد العذب الزلال فيما يصلح القلب وينوره من الأعمال".

85 - "النجم الثاقب فيما تضمنه كتاب الله من مدح النبي العاقب".

86 - "نظم الدرر والجواهر في معجزات سيد الأوائل والأواخر".

87 - "نفحات الأسرار العرفانية في شرح الحكم القدسية الكتانية". يعني: "الحكم الإلهية والمحمدية". لابن خالته وشيخه الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الشهيد رضي الله عنه.

88 - "النفحات القدسية في ترجيح مقام العبودية".

89 - "نيل الابتهاج، بتخريج أحاديث مدخل ابن الحاج".

90 - "نبذة من وفيات القرن الرابع عشر". جمعتها من كناشته السالفة الذكر، وأقوم بتحقيقها عجل الله صدورها عن قريب بمنه وكرمه...وغير ذلك.

ك - شعره

ذكر مترجمو الشيخ أبي الجمال - رحمه الله تعالى - بأنه كان شاعرا، وفي ضمن عد مؤلفاته ذكر أشعار مطولة في مدح النبي ﷺ وعلى آله، ومدح جمع من أئمة الإسلام، وقد وصف الشيخ الباقر الكتاني شاعريته بأنه[1]: "الشاعر المجيد".

غير أنني لم أقف من شعر الشيخ - رحمه الله - سوى على قصيدتين، أذكر الأولى بنصها، وهي في مدح شيخه وابن خالته الشيخ أبي الفيض قدس

(1) "ترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني الشهيد" ص 265.

سره، وأما الثانية؛ فهي منظومته في الفرع الحلبي من الشرفاء الكتانيين.

قال - رحمه الله - في مدح الشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه:

يا سائلا كيف الوصول وقد نأت ... طرق الرشاد بهذه الأزمان؟
حجّرت بحرا واسعا متراكما ... أمواجه تعلو على الجدران
هلا أتيت البيت من أبوابه ... تنجو من التخبيط[1] والهجران
فاقصد حمى الشيخ الإمام المجتبى ... شيخ الشيوخ ومعدن العرفان
تاج الولاية ركنها وأساسها ... إرث النبوءة شيخنا الفرداني
بحر الشريعة والحقيقة والهدى ... محيي طريق المصطفى العدناني
العارف المكتوم والختم الذي ... قد جاءنا بالسر والبرهان
العالم النحرير قطب ذوي النهى ... الكامل المحبوب في العمران
ذاك السني الهاشمي ومن به ... نرجو المفاز ونحظى بالغفران
أعني به شيخي الهمام المرتضى ... غوث البرايا محمد الكتاني
نجل الإمام الفرد في أوصافه ... ونعوته وكماله المتداني
ركن السيادة شمسها وسراجها ... قطب الوجود إمامنا الصمداني
شيخ الشيوخ وفخرهم وإمامهم ... وإمام كل موحد رباني
عبد الكبير ومن به نرجو الكريـ ... ـم يمن بالإفضال والإحسان
تالله مافي الغرب من شبه له ... كلا ولا في العصر منه مدان
هذا هو الكنز المطلسم يا فتى ... هذا هو الفرد العظيم الشان
هذا الذي حاز المعالي كلها ... هذا الذي قد خص بالتبيان
هذا الذي حزنا به شرفا كما ... بطريقه نسمو على الأقران
هذا الذي حفظ الإله جنابنا ... بوجوده من سائر الحدثان

(1) التخبيط: الحيرة.

هذا الذي صقل الجليل قلوبنا بشهوده من سائر الأدران
هذا الذي عم البرية فيضه في سائر الأقطار والأوطان
هذا الذي تأتي الوفود لبابه من شاسع الأمصار والبلدان
يرجون ما قد عم من أفضاله ونواله بتيقظ الأذهان
فيلقن الأوراد والأذكار مع ما فيه إسعاد لذي عصيان
أضحى بهذا العصر ينقذ أهله ويقيهم ما عم من خسران
يهديهم سبل الرشاد بفيضه ويحفهم بذخائر الرحمن
ويؤمهم فضلا بكل فضيلة ويخصهم بدقائق العرفان
ويحوطهم بعناية أحدية ويقودهم للهدي والقرءان
أحيى شريعة خير من وطئ الثرى وأزاح شبهة كل ذي خذلان
وغدا لدين الهاشمي مجددا ومرقيا للقاصي ثم الداني
لله ما أحلى شمائله وما أحلى فضائله بكل أوان

ومن شعره في مدح النبي ﷺ، كما في كناشته:

نبينا أفضلُ خلق اللهْ أجمِلْ او فصِّلن بلا اشتباهْ
أرسله المولى لكافة البشرْ صلى عليه الله ما لاح قمر

ومنه في نفس المعنى:

محمدٌ أفضل من كل أحدْ بعثه الحق المهيمنُ الصمدْ
أفضل من صلى وصام وعبد عند سواد الليل قام وسجد

ومنه قوله كذلك:

محمدٌ نبينا أفضلُ مَن كل نبيء ورسول وشهيد
وكلِّ الاملاكِ كذاك فاعلمِ صلِّ عليه ربنا وسلمِ

ل - أسرته

يعد فرع المترجم - رحمه الله تعالى - من الفروع العلمية البارزة في البيت الكتاني، فيه العلماء الكبار، والشعراء، والعدول، والمؤلفون،

والمدرسون، والأدباء، والمحدثون. . .إلخ، كما أنه يعد مجمعا للفروع الكتانية؛ فوالدته أخت الشيخ جعفر الكتاني، وخالته فضيلة زوجة الشيخ عبد الكبير الكتاني، وخالته هشّوم زوجة الشريف محمد بن محمد بن عبد الواحد الكتاني، عم الشيخين محمد وعبد الحي ابني عبد الكبير الكتانيين، ووالدة الشيخ الولي الصالح العارف بالله عبد الله بن محمد الكتاني.

وعمته زبيدة زوجة الإمام محمد بن جعفر الكتاني ووالدة ابنيه محمد الزمزمي ومحمد المكي، وعمته لبابة زوجة خاله الشيخ أحمد بن إدريس الكتاني، وعمته أم كلثوم؛ زوجة الشريف محمد بن عبد الحفيظ الكتاني، وعمه حمزة زوج أخت الشيخ عبد الكبير بن محمد الكتاني. . .وهكذا.

وعمه: الإمام المشارك النبيه أبو الفضل محمد المأمون بن عمر الكتاني، كان من العلماء الكبار، مؤلفا، خطيبا، شاعرا، ناثرا، مصلحا، مفكرا، وكان متصدرا للتدريس بجامع القرويين الأعظم بفاس، وترك مؤلفات عدة من أهمها: "هداية الضال المشتغل بالقيل والقال"، يدل على علم غزير وقلم سيال. توفي - رحمه الله - بفاس عام 1310.

أما عمه الآخر؛ حمزة بن عمر الكتاني، فقد كان من سادة الأشراف وصلحائهم، أخذ عن الشيخ أبي المفاخر محمد بن عبد الواحد الكتاني.

قال الإمام ابن جعفر الكتاني في "النبذة اليسيرة"[1]: كان - رحمه الله - أحد الأفاضل المتبرك بهم بهذه الحضرة، جميل الأخلاق، كثير التبسم كثير الدعابة، محببا في قلوب الخلق، جليلا وجيها، وتُنسب له بركات وكرامات، رحل إلى الحج، فحج وزار ولقي الأخيار. . .توفي - رحمه الله - ليلة السبت ثامن وعشرين جمادى الأخيرة، عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة (1322)، ودفن خارج باب الفتوح بروضة لأولاد ابن كيران". .

وعمه الثالث: محمد بن عمر الكتاني: كان يلقب بالمزيان لحسن صورته، قال في "النبذة"[2]: "الشريف البركة، الصالح العفيف المتدين. . .توفي يوم

---

(1) المراجع: "النبذة اليسيرة النافعة" (292). . .

(2) المراجع: "النبذة" (293).

الاثنين رابع - أو خامس - جمادى الأولى عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة - 1343 - للهجرة، ونودي بجنازته فحضرها جم غفير من الناس وسائر الطوائف المنتسبة، ودفن بسيدي حماموش خارج باب الفتوح، داخل قبته رحمة الله عليه".

أما والده الحسن بن عمر الكتاني[1]: فكان رحمه الله تعالى من عدول فاس المبرزين، والفقهاء الصلحاء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وله في ذلك قصص وأخبار اعتنى مؤرخوه بذكرها وسردها.

وقد كان - رحمه الله تعالى - متفردا عن أهل زمانه بالاعتناء بالسنة في الأساسيات والفرعيات وكل شيء، بحيث أجمع مترجموه على ذلك، ومن شدة استقامته ظهرت عليه كرامات عدة اعتنى أبناؤه بتدوينها في كتب خاصة.

قال فيه نسابة فاس إدريس العلوي الفضيلي في "الدرر البهية": "من الشرفاء الأخيار، وأهل الوفاء الأبرار، ملازم للسنة، مخالف سبيل البدعة، سالك سبيل المهتدين، عامل بعمل أهل الدين، وهو أحد عدول هذه الحضرة - فاس - المبرزين، وأفرادها المشهورين".

"كان لأهل فاس عليه إقبال، وإذا رأى فجورا غلب عليه الحال وخرج عن إحساسه، حدث عنه السيد العربي ابن عبد الوهاب أنه كان مدة معه في جامع القرويين، وأراد المولى عبد العزيز - ملك المغرب حينه - صلاة الجمعة فيه، فأخرج وزعته جميع من في البلاط الأول منه حتى وصلوا المترجم فطلبوه بالنهوض، فقال لهم: إن المساجد لله وليست للسلطان!. ولم يحد عن محله..إلخ".

وقال في ترجمته الشيخ الحافظ عبد الحي الكتاني من "النجوم السوابق الأهلة": "كان للمترجم طرف من الفقه وملازمة لدروس ابن عمه سيدي جعفر [الكتاني] وغيره، وصحب الشيخ سيدي محمد بوطربوش الدباغ، وصافحه بالسبابة كما صافح بذلك شيخه المذكور القاضي شمهروش،

---

(1) المراجع: "الإعلام بمن حل مراكش" (3/ 198)..وغيرها.

وصحب - أيضا - زوج والدته العارف بالله سيدي محمد بن عبد الواحد الكتاني وشاهد كثيرا من كراماته، وأدرك جده الولي الكبير مولاي الطائع المعروف بالمسلطن، وشاهد كثيرا من أسراره، وكان له ورد من القرآن وصدقات سرية، وكان له اهتمام بأمر المسلمين عظيم. . .وحضر جنازته جل أهل فاس"[1].

وقال ابن أخته، جد والدنا الشيخ أبو الفداء محمد الزمزمي الكتاني في مذكراته: "كان يحضر مجالس مولانا الجد وغيرها من مجالس العلم الدينية، ويتنسك ويتعبد، ويتلو كتاب الله عز وجل، ويقرأ "دلائل الخيرات"، ويحب أهل الخير والصالحين، ويهتم بأمور المسلمين".

"وكان يأوي كثيرا إلى شيخ الوالد أبي عبد الله محمد بن أحمد الغيّاثي، دفين باب الفتوح، وكان الشيخ المذكور يحبه أيضا، ويهتم بشؤونه، وربما لقنه بعض الأذكار أو الأسماء"..

ومن لطيف كراماته: ما أخبرني به شيخنا ازويتن المذكور، أنه كان مرة في سماط العدول، فجاءه رجلان للإشهاد في زواج، فتبعهما إلى أن بلغ قنطرة حي بين المدن - الذي بين عدوتي فاس - وإذا به فجأة وجد نفسه داخل بيت كبير، وفيه حفلة زفاف كبيرة، وعروسين أمامه، فكتب الإشهاد، فما أتمه حتى وجد نفسه أمام القنطرة مرة أخرى، فتيقن أنه كان عرسا للجن أرادوا إشهاده عليه!.

وقد توفي - رحمه الله تعالى - بعد زوال يوم الجمعة أول يوم من شهر الله المحرم، فاتح عام 1322، ودفن بخارج باب الفتوح بروضة الإمام إدريس بن الطائع الكتاني، المجاورة لروضة مولانا عبد العزيز الدباغ قدس سرهما، وزدج قبره، وأدير به حوش بناء صغير للتميز.

وقد ألفتْ فيه وفي ترجمته مؤلفات؛ منها ما ألفه المترجم الشيخ الطاهر،

(1) عن كتاب "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام" للعباس ابن إبراهيم التعارجي المراكشي (3/ 198).

وهو: "إذهاب الرسن فيما أسندناه عن والدنا أبي علي الحسن"، و "تحفة الأذكياء بما حدثنا به سيدنا الوالد من كرامات بعض الأولياء".

أما والدته؛ البتول بنت إدريس الكتانية: فهي الشريفة الفقيهة الناسكة العفيفة، رابعة زمانها، ونفيسة أوانها، أخت شيخ الإسلام جعفر الكتاني، وبنت الإمام المجاهد إدريس بن الطائع الكتاني، كانت ممن ذُكر فنفعته الذكرى، ونشأت أبناءها على العلم والدين، فكانوا كلهم علماء صلحاء مؤلفين، سارت الركبان بذكر شمائلهم، وتعمرت الكتب بمدحهم وكريم خصالهم.

قال مولانا الجد الإمام محمد المنتصر بالله الكتاني في كناشته: "كانت مرة تصلي خلف ابنها الطاهر، فقال بعد الفاتحة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، فسقطت مغشيا عليها، ثم استيقظت وهي تبكي قائلة: ما لهذه العصاة ماذا صنعت؟".

وكانت صاحبة حكمة وتأمل، وذكر وتذكير، قال مولانا الجد: "قالت: محمد نعمة من عند الإله، وكل ما جاء به قد صدقناه"..

وصفها الجد بقوله: "كانت عابدة...صائمة قائمة، معرضة عن زخارف الدنيا وزينتها...توفيت سنة 1324 ... ودفنت بالروضة الحلبية بالقباب".بخ.

وللمترجم - رحمه الله تعالى - إخوان كانوا من العلماء العاملين، والفقهاء المتفننين، والدعاة المهديين؛ وهم:

مريم بنت الحسن الكتانية: وصفها - رحمهما الله - بقوله: "كانت - رحمها الله - من العابدات الزاهدات، القانتات الخاشعات الخيرات. وكانت تحفظ نحو النصف من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، و"دلائل الخيرات" بأكمله عن ظهر قلب، وكذلك "البردة" و"الهمزية"، وقصائد ودعوات، وتبارك الملك...إلى آخر السلكة، وجل "المرشد المعين"، وعلى بالها جميع حكايات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم التي وقعت لهم مع أممهم، وتحفظ سورة يس عن ظهر قلب، وسورة الواقعة، وشيئا من سورة الكهف، والآيات المشهورة بآية الكرسي، وآخر البقرة، ونحوهما، وعقيدة شيخنا التي

مطلعها: يقول عبد الله. . .إلخ".

"وكانت فقيهة في دينها، تعرف أمور الصلاة وأحكامها، والوضوء، والغسل، ومفروض ذلك ومسنونه، وتعرف القراءة كيف كانت، إذا التبست عليها مسألة راجعت شراح "المختصر" و"الرسالة"، وتسأل حتى يتبين لها وجه الصواب، محافظة على الصلاة في وقتها الاختياري، عارفة بمسائل كثيرة من أحكام الفقه من غير العبادة، كثيرة الصيام والقيام، والصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام". .قال ناقل ذلك الشيخ محمد الباقر الكتاني في "التاج": "وهي ترجمة حافلة وطويلة أيضا". .(1/ 116).

وقال فيها الإمام الباقر الكتاني في "التاج"[1]: "العالمة الجليلة، العارفة بالله، أم البركات". . .

وقد كانت وفاتها - رحمها الله تعالى - بفاس عام 1317.

لبابة بنت الحسن الكتانية: لم أقف على ترجمتها.

ريحانة بنت الحسن الكتانية: لم أقف على ترجمتها.

محمد بن الحسن الكتاني: ترجم له الشيخ محمد الباقر الكتاني في "طبقات الكتانيين طريقة" قائلا: "هذا السيد من أعيان العدول، ومن المبرزين بالسماط، ومن أعيان أهل البيت النبوي. كان يحضر مع السادات [عبد الكبير بن محمد الكتاني ونجله الشيخ أبي الفيض] في زاويتهما في مجالسهما الحديثية والصوفية والعلمية، ويقتبس من معانيهما، ويهتدي بهدايتهما، ويقتدي - في الغالب - بأخلاقهما، ويحبهما كثيرا، ويفتخر بوجودهما، ويثني عليهما، وربما يحضر في حضراتهما ويصلي معهما، ويحضر حفلاتهما، ويصل الرحم بهما، ويثني عليهما كثيرا. وقد وقعت له كرامة رفيعة. . .ثم ذكرها وقال: ولازال على محبته إلى أن لقي الله تعالى". ولم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

---

(1) "التاج المرصع بالجوهر الفريد في ترجمة الشيخ الإمام محمد الكتاني الشهيد" مخطوط (1/ 115).

عمر بن الحسن الكتاني[1]: عالم فقيه مؤرخ، أديب كاتب مشارك. ولد بفاس عام 1301، وأخذ بها عن أعلامها، كما تحصل على إجازات من طائفة من أعلام العصر. وكان من العلماء المشاركين، والأدباء الأفذاذ، مؤرخا كاتبا شاعرا، كثير المذاكرة والحكايات اللطيفة، والنوادر الأدبية.

استوطن مدينة الرباط، وتقلب في بعض الوظائف؛ كالعدالة بها، وكاتبا بدار النيابة بطنجة، ثم عين عام 1332 بالمكتب السياسي بإدارة الشؤون الشريفة بالرباط، ثم كاتبا بالقسم الحُبُسي بالإدارة المذكورة. وفي عام 1334 عين كاتبا بمجلس الاستئناف الشرعي بالأعتاب الشريفة، ثم كاتبا بالمراقبة الحُبُسية بمدينة الجديدة، وفي عام 1339 عين كاتبا بالمحكمة العليا، ثم عضوا بمجلس الجنايات بالأعتاب الشريفة...وغير ذلك.

زار عدة دول أوروبية، كما زار السنغال وغيرها، وتحصل على وسام من الملك محمد الخامس وآخر من باي تونس.

ترك عدة مؤلفات؛ منها: "السراج المنير، في الصلاة على البشير النذير". و"مطالع الأفراح والتهاني، وبلوغ الآمال والأماني، في ترجمة الشيخ عبد الحي الكتاني" في مجلدين كبيرين.

توفي بمدينة الرباط آخر جمادى الأولى عام 1370، ودفن بمقبرة العلو بها.

عبد الرحيم بن الحسن الكتاني[2]: علامة مشارك مؤرخ، أديب شاعر، رحالة متجول، داعية إلى الله تعالى. ولد بفاس عام (1304)، وأخذ بها عن أعلامها. والتزم في طريق التصوف ابن خالته الشيخ أبا الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، وهو معدود من رجال طريقته.

---

(1) المراجع: "إتحاف المطالع" (2: 526)، "طبقات الكتانيين طريقة"، و"إتحاف المطالع" (2/ 526)، و"رياض السلوان بمن اجتمعت بهم من الإخوان" (ص114)، و"السبحة النورانية" (ص92)، و"منطق الأواني" (ص156)...وغيرها.

(2) المراجع: "طبقات الكتانيين طريقة"، و"إتحاف المطالع" (2/ 548)، "سل النصال" (157)، و"السبحة النورانية" (ص93)، و"منطق الأواني" (ص167)...وغيرها.

عين عدلا بسماط عدول فاس، ثم بالنظارة بتازا، ثم مدرسا بالجامع الكبير بتازا. ورحل إلى بلاد السنغال، وبقي بها تاجرا وداعية مدة اجتمع فيها بعدة شخصيات علمية وصوفية وجهادية كبرى؛ أبرزها الشيخ أحمد بنبا الذي زاره بمعتقله بها، وحصلت بينهما محادثات مهمة أورد بعضها الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه: "طبقات الكتانيين طريقة"، كما تجول داعية وناشرا للعلم في مختلف مدن وقرى المغرب.

وكان له إلمام بالتاريخ والوفيات، واعتقاد في الصالحين، وكتب عدة مقالات في جريدة "السعادة" مترجما لعدة أعلام ممن توفوا حياته، يترجمهم ترجمة طنانة، ويصف جنائزهم، ومحال دفنهم والصلاة عليهم، ويعدد شيوخهم؛ بحيث يستفاد من مقالاته عدة تراجم علمية عالية.

كما كان أحد شعراء المغرب المبرزين؛ رثى ومدح ووصف، وزاول مختلف ضروب الشعر، ومن شعره قوله:

ضحكتْ؛ فغار البدر من وجناتها والثغر منها كالجواهر والدرر

وبدَت؛ فأخجلت الشموس بخدها وبلحظها الفتاك تسبي من نظر

ترك الشيخ عبد الرحيم الكتاني عدة مؤلفات؛ منها: ديوان شعر، وكناش علمي، ورحلة إلى بلاد السودان، و"مقصورة المفاخر في عد أشياخي ذوي المفاخر"؛ منظومة في 380 بيت، ومجموعة تراجم لأعلام القرن الرابع عشر الهجري، وغير ذلك.

ثم لازم في آخر عمره مدينة فاس، وتوفي بها عن غير عقب من الذكور يوم الأحد عشري قعدة عام 1374، ودفن بروضة الشرفاء الكتانيين بالقباب، خارج باب الفتوح.

م - ذريته

ترك الإمام أبو الجمال - رحمه الله تعالى - ذرية طيبة، ما زالت فروعها باسقة يانعة إلى الآن، فقد ترك من الأبناء: الطيب، ومحمد، وإدريس، وخديجة، وزبيدة، وفاطمة، وعائشة.

أما الطيب ومحمد فقد توفيا - رحمهما الله تعالى - من غير عقب.

وأما إدريس؛ فقد كان - رحمه الله - من العلماء العدول الموثقين، وكان نقيب البيت الكتاني في وقته، ومن خاصة ابن خالة والده الحافظ الشيخ عبد الحي الكتاني رحمه الله تعالى. وتوفي نحو سنة 1390، وترك من العقب: محمد وسعيد.

أما محمد بن إدريس بن الطاهر؛ فقد خلف أنس وأسامة وإدريس وجعفر.

وعقّب من أولاده: جعفر بن محمد بن إدريس بن الطاهر: محمد وخديجة وأسماء.

أما السعيد بن إدريس بن الطاهر؛ فعقب الطاهر، وأمين، ويوسف، وثريا، وأمينة ولبابة. بارك الله فيهم وجعلهم على خطا أسلافهم بمنه وكرمه.

كما أن سبط المترجم - رحمه الله - من بنته الشريفة فاطمة؛ هو شيخنا علامة فاس وصالحها وبركتها، المشارك العارف بالله الشيخ عبد الحميد بن عمر زْوِيتِن، وهو أشهر من نار على علم بفاس، بارك الله في أنفاسه بمنه وكرمه.

ن - وفاته ومدفنه

قال الشيخ محمد الباقر الكتاني - رحمه الله تعالى - في "طبقات الكتانيين طريقة": "ولازال على حالته، ووفور عهده ومحبته، إلى أن مرض بالحمى، فعول بالطبيب المسلم فلم ينفع العلاج، واستأثر الله بروحه إلى الملأ الأعلى". وذكر في "سل النصال" أن الحمى استمرت معه اثني عشر يوما.

قلت؛ وقد كان متقدموا الكتانيين - رضي الله عنهم - لا يتداوون بالكفار، ولا يقبلون إشرافهم على صحتهم، ويقولون: "عدو حبيبي لا يكون طبيبي"، درج على ذلك - خاصة - خال المترجم شيخ الإسلام جعفر الكتاني وأبناؤه، وقد تطرق لهذا الموضوع في كتابه "الدواهي المدهية للفرق المحمية" بما لا مزيد عليه.

فسار المترجم - رضي الله عنه - على ذلك النهج في الولاء والبراء، وكانت وفاته شهيد الغيرة الإيمانية بمدينة فاس يوم الجمعة 2 صفر عام 1347 عن ثمانية وأربعين عاما فقط، ودفن من يومه بعد صلاة المغرب بروضة أولاد بناني خارج باب الفتوح. قال في "الطبقات" : "فاجتمع خلق كثير وصلوا عليه، ثم حمل إلى روضة القباب خارج باب الفتوح..فأقبر فيها. عليه من الله الرحمات".

وقد حدثني سبط المترجم شيخنا العلامة عبد الحميد بن عمر زويتن - حفظه الله - عن والدته الشريفة فاطمة - رحمها الله تعالى - بأن الشيخ المترجم - رحمه الله تعالى - كان رأى قبل وفاته فيما يرى النائم زبديتين سقطتا، فتأولهما بوفاة عالمين، فكانت وفاته ووفاة عالم آخر.

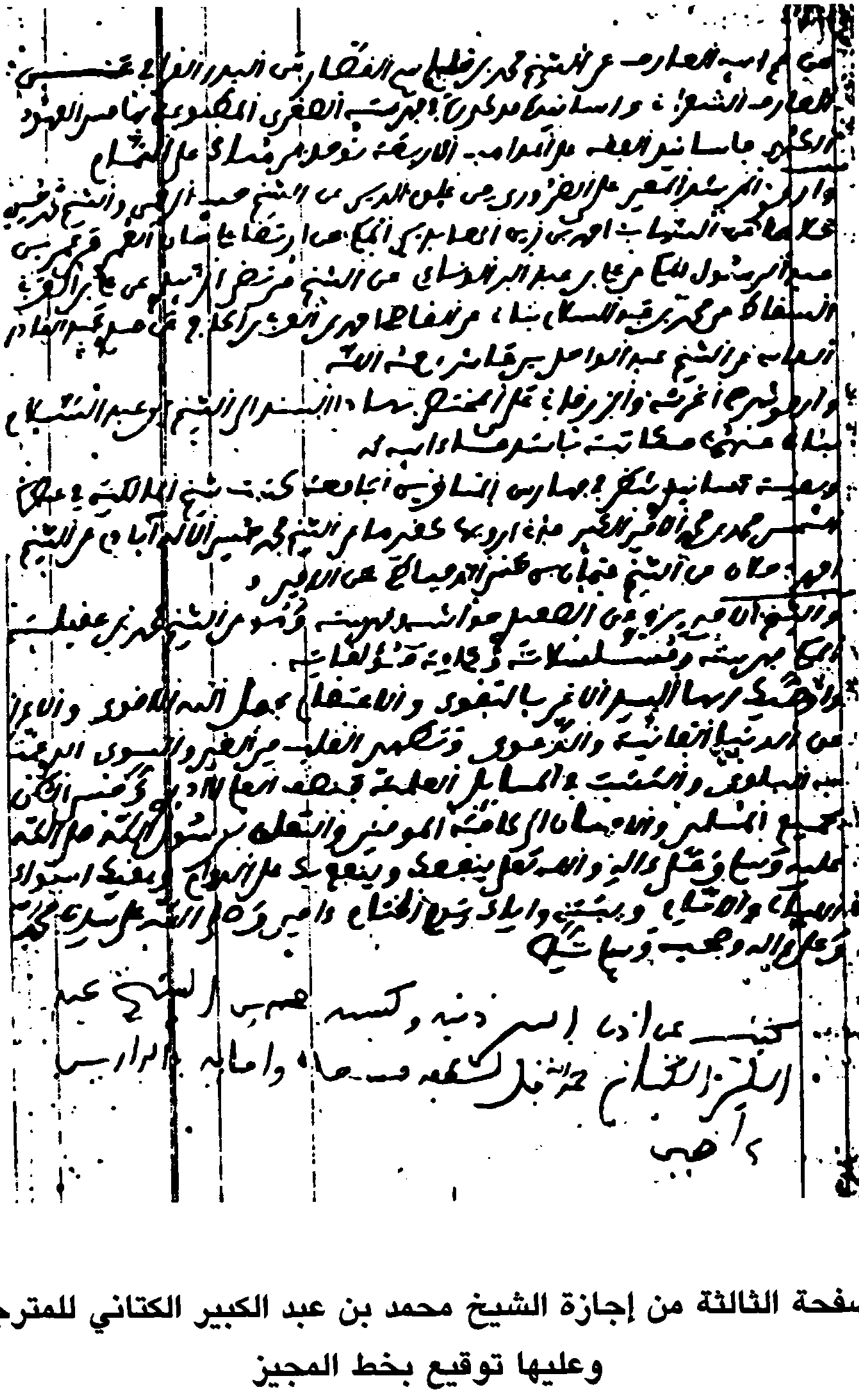
كما أخبرني بكرامة وقعت لجده أبي الجمال عند وفاته، ذلك أنه قال لأهله: "اطلقوا الخامية - الستارة - ها سيدي جا". يعني بسيده النبي ﷺ، حيث ثبت أنه ﷺ كثيرا ما يحضر عند وفاة أحد الكتانيين، كما ذكره الإمام محمد بن جعفر الكتاني في "النبذة اليسيرة" ص160، وكما هو مشاهد معلوم. ثم توفي الشيخ رضي الله عنه.


بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صل على النبي العاقب ...

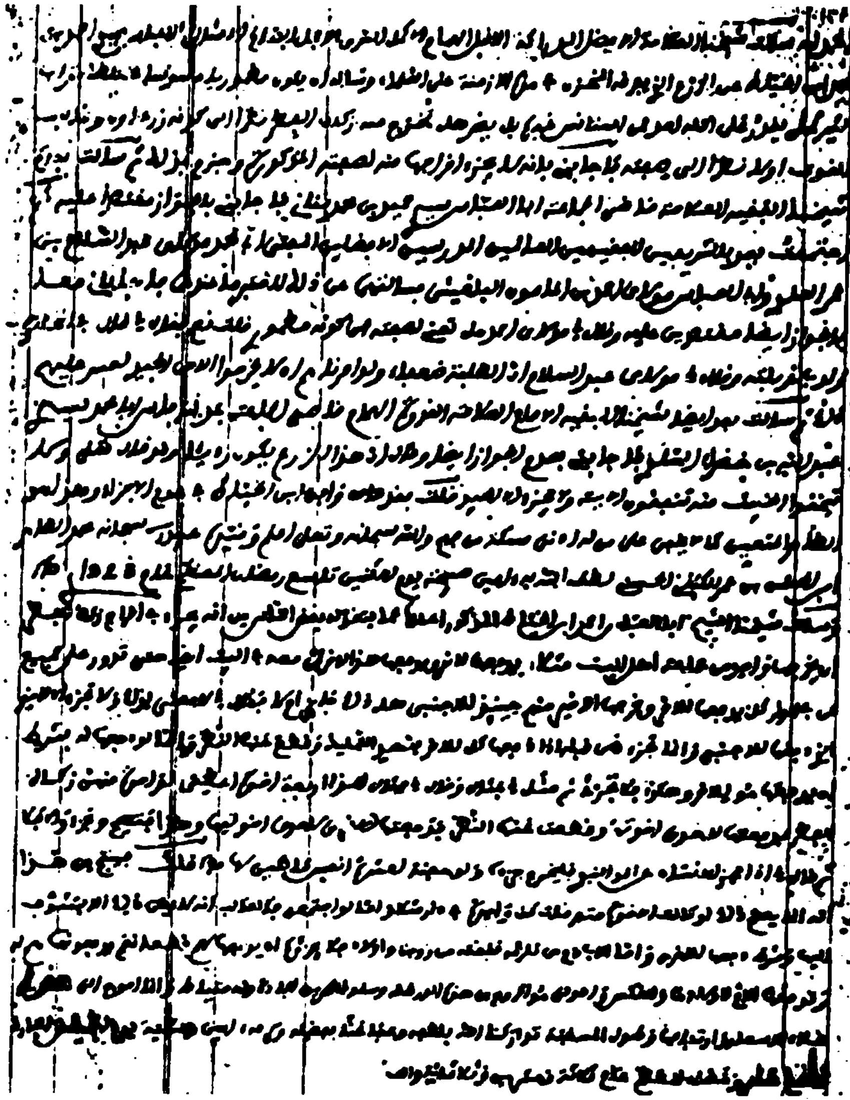
الصفحة الأولى من إجازة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني للمترجم، بخط الشيخ عبد الحي الكتاني



الصفحة الثانية من إجازة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني للمترجم، بخط الشيخ عبد الحي الكتاني



الصفحة الثالثة من إجازة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني للمترجم، وعليها توقيع بخط المجيز



نبذة من خط المؤلف - رحمه الله - من كناشته

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم

حمداً لمن رفع قدر نبينا سيدنا ومولانا محمدٍ صلى الله عليه وسلم على كل قدر، وأولاه الشرف الكامل والحكم النافذ والأمر، وامتن سبحانه عليه، مقرراً لعظيم نعمه لديه، برفع الذكر، ووضع الوزر، وشرح الصدر.

نحمده تعالى على أن أصعد على منصة الإجلال والتشريف عروس جماله، وأطلع في سماء المعالي بدور كماله، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو شهادةً نبلغ بها مقام القرب والوصال، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، ومصطفاه من خلقه وحبيبه وخليله، المخصوص بأكمل الخلال وأشرف الخصال، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه بالغدو والآصال، صلاةً وسلاماً دائمي الاتصال.

أما بعد؛ فيقول العُبيد الفقير الجاني، محمدٌ الطاهر بن الحسن بن عمر الحسني الإدريسي الكتاني، عامله الله بالعفو والعافية والقبول والأماني، وأكرمه وجميع الموحدين بالمقر الأسنى في دار الفضل والتهاني، في جوار النبي العدناني، بفضله وكرمه. . .آمين:

إنه كثيراً ما كان يختلج في صدري، ويقع في خاطري وفكري؛ وضع تقييد في مسألة ضم إثبات الرسالة إلى التهليل عند ذكر الكلمة المشرفة؛ أعني: كلمة الشهادة، رداً على بعض الفرق الضالة، المبتدعين المارقين البالغين الغاية في العماية والجهالة، الذين يقولون: إن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجابٌ عن الله تعالى، وإن إفراد التهليل عن إثبات الرسالة أبلغ وأسرع في

تأثير معنى التوحيد؛ لأن للتوحيد معنى، ولإثبات الرسالة معنى، وإذا اختلفت المعاني على الباطن ضعف التأثير وبعدت الثمرة، ونحو هذا من كلامهم السخيف المعنى، المختل الأصل والمبنى، فكنت أرى أن الإعراض عن رد مثل هذه العقائد الزائغة أولى، والاشتغال بغيره من أعمال البر أجل وأعلى؛ لأمرين:

أحدهما: أن هذه مسألة لا تحتاج إلى سرد دليلٍ، ولا إلى إقامة حجةٍ ولا تعديل.

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة ... أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وتقريريَ المعلوم ضربٌ من الجهل

وفي المثل يقال: ولا يستنجى من ريحٍ.

ثانيهما: أنه قد تكفل برد هذا الكلام السقيم، وإبطال هذا الاعتقاد الوخيم، جماعةٌ من الأيمة، وعظماء مشايخ الأمة؛ كالشيخ السنوسي في شرح صغراه؛ فإنه قال بعد نقله ما نصه: "وهذه المقالة - والعياذ بالله تعالى - من الفتن التي لا مورد لها غير النار، ولا عقبى لقائلها سوى دار البوار، وما ذاك إلا مكرٌ واستدراجٌ إلى رفض الشريعة والانحلال من ربقتها، وتعطيل رسومها، ولو علم هذا الضال ما تحت قوله: محمدٌ رسول الله من الأسرار التوحيدية، والحكم التهليلية؛ لانقشع عنه ذلك العمى، فأصاب المرمى".اهـ. وأصله للإمام الساحلي في "بغية السالك"، وأيده جماعةٌ كثيرةٌ من الأيمة المحققين، والجهابذة المدققين، كما ستقف عليه بحول الله تعالى وقوته، وتأييده ومعونته.

ثم إنه بلغني عن بعض الجهلة الأغبياء، ممن أنبأ مقاله عن سوء طويته لما فيه من عظيم الجفاء، أنه قال: "إن الأولى هو: الاقتصار على التهليل؛ لأنه لا واسطة بين العبد وبين الرب الجليل"، وقال آخر، وإنه بصفع قفاه وقطع لسانه لحقيق: "إن ذكر النبي ﷺ مع الله تعالى عيبٌ عند أهل التحقيق"، حسبما أخبرني عنه بذلك بعض ثقات أهل العلم ممن سمعه يقول ذلك، وقد

طبع الله على قلبه وطمس بصيرته عن إدراك ما هنالك.

فحركتني دواعي الغيرة الإيمانية إلى إبطال هذا الكلام، وبيان أن ذكره ﷺ من ذكر ربه ذي الجلال والإكرام، نصرةً له ﷺ وإعزازاً لجنابه الشريف، ورفعةً لمنصبه العلي وقدره المنيف، الذي أمر الله تعالى بتوقيره وإعزازه في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وقريء: وتعززوه. بزاءين؛ من العز، وقلت في نفسي: يا ليت شعري؛ لو قابلنا شخصٌ فحط من قدرنا بكلمة، أو صدر منه ما يخل بتعظيمنا، أو بلغنا عنه أنه تكلم بسوءٍ في جانبنا؛ أليس يتمعر وجهنا ويتربد، ويتلكأ لساننا ونكفهر في وجهه إذا رأيناه، ويصير عندنا من أعدى الأعادي؟، والحال أنه أمر نفساني، وغضب شيطاني غالباً. فما عسى يقال أو يعبر عنه في حق سيد السادات، وإمام أهل الأرض والسماوات، إذا سمعنا في جانبه الكريم، ما يخل بالإجلال والتعظيم؟.!

فيتعين الذب والمنافحة عن علي ذلك المقام، والانتصار والمدافعة والتوقير والاحترام، تقرباً إليه ﷺ وخدمةً لجنابه الشريف، وإلا؛ فهو غنيٌ بنصرة الله تعالى له وتأييده عن التبيين والتعريف، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 40]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: 62]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 64]، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: 95]، وفي المعنى قال الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهيها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

ويا ترى؛ كيف تكون فضيحة هذا الجاهل الغبي الذي يعتقد هذا ويذهب إليه، ويرجحه ويستدل عليه، يوم العرض على الله، بكذبه وافترائه على الله، وتقوُّله في الجناب النبوي ما ليس له به علم، ودفعه خصوصيته بمجرد العصبية وسوء الفهم؟!، إذ هذا كلامٌ يئول بقائله إلى أمرٍ عظيم، ويجر لمعتقده وبالٌ كبيرٌ جسيم، فإن الغلط في هذا الجناب العظيم ليس بالأمر الهين، والتسوُّر على حصنه المنيع أمره واضحٌ بيِّن، يحتاج إلى أدبٍ كبير، وتحفُّظ في المقالة والتعبير.

وليت شعري؛ كيف يسوغ له أن يفوه بذلك الكلام السخيف المعنى،

المختَل الأصل والمبنى؟، وكيف لا يذوب قلبه، ويطير عقله في ساعة الاشتغال بالاستدلال على تصحيح الإعراض عن ذكر رسول الله ﷺ، ولولاه ﷺ لم يكن له نورٌ ولا إيمان، ولا عقل ولا علم ولا إيقان، ولا فهم ولا خير من الخيرات بالكلية، ولكان غريقاً في بحر الضلالة كما كان أهل الجاهلية؟، فكيف يليق بالمؤمن - والحالة هذه - أن يعرض عن ذكره؟، أم كيف يجمل به أن يغفل عنه في سره وجهره؟.

هذا على فرض أن الله تعالى لم يتعبدنا بذكره معه في الصلاة وغيرها من شعائر ديننا، ولا أمرنا بالصلاة عليه والتسليم وجعل ذلك من أعظم ما نتقرب به إليه ومن أفضل عبادتنا، ولا أنه ورد في الكتاب ولا في السنة ولا في كلام الأيمة ما يقتضي مقارنة ذكره ﷺ بذكر ربه تعالى في حالة الذكر، ولا أن ذلك من الأعمال المرضية التي تنوّر القلب والفكر.

أما حيث كان ذكره ﷺ على الوجه المذكور من ضروريات ديننا وشرعنا، ومن مقتضيات ملتنا الحنيفية وطبعنا؛ فمنكر ذلك منكرٌ لمقتضى من مقتضيات الدين، ويخاف أن يكون بإنكاره من جملة الملحدين؛ فلأجل ذلك زيفتُ هذا الكلام، بما فتح الله تعالى به من الكتاب والسنة وكلام الأيمة الأعلام، إسعافاً لمن رغب في ذلك من بعض الأصدقاء، من الطلبة الأماجد النجباء، وحررت المسألة بلسان العلم؛ إذ له السلطنة على كل أحد، ولا يحتشم من أحد، ولذلك سمى الله سبحانه الحجج: "سلطاناً مبيناً"؛ لما في لسان العلم من السلطنة والترفع وعدم مطاولته؛ لأنه سيفٌ صارمٌ لا ينبو، وفارسٌ بطلٌ لا يكبو، وضوءٌ لامعٌ لا يمتزج بأصداف الظلام، ونورٌ ساطعٌ على ممر الليالي والأيام.

وقد امتن تعالى بإتيان الحجج أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام في غير ما آية من كتابه العزيز، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 153]، وقوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: 83]، وقال تعالى إخباراً عن قوم نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]. وذم تعالى على الجدال بالباطل، فقال: ﴿وَجَٰدَلُوا۟

﴿بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: 5]، ففيه أن الجدال بالحق لإدحاض الباطل محمودٌ، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

لكن من سنة الله في خلقه: أن الارتداع بحجة العلم إنما يقع للألباء أهل الإنصاف، الذين ينصفون من أنفسهم لغيرهم، وهو صعبٌ لا يعطاه إلا من له حظٌ في الإنسانية، وأما من لا حظ له فيها؛ فتراه يتكبر وتشمئز نفسه عن قبول الحق والطواعية والانقياد. أخرج مسلمٌ والترمذي عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر"، فقال رجلٌ: "إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً"، فقال: "إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبر: بطرُ الحق - أي: دفعه ورده - وغمْط الناس - أي: ازدراؤهم واحتقارهم".

وقد رتبت هذا التقييد، راجياً من الله تعالى إصابة الصواب بمنه والتوفيق، والعون والتسديد؛ على فاتحةٍ وأربعة مسالك وخاتمة.

المسلك الأول: فيما يدل على اقتران الكلمتين المشرفتين من الكتاب العزيز.

المسلك الثاني: فيما يدل على اقترانهما من السنة الغراء.

المسلك الثالث: في الاستدلال لذلك من كلام الأيمة المقتدى بهم من علماء الظاهر والباطن. وختمت هذا المسلك النفيس بتتمتين مهمتين.

المسلك الرابع: في الاستدلال لذلك بأمورٍ خارجيةٍ.

والخاتمة: تشتمل على عشرة فوائد. وبتمامها يتم الكتاب، بعون الملك الوهاب، فيشرق قلب المؤمن ويضيق صدر الغبي المرتاب، وسميته:

مطالع السعادة في اقتران كلمتي الشهادة

واللهَ أسأل أن يكسوَه حلة القبول، وأن يجعله من العمل الخالص الغير المعلول، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فاتحة

روينا في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا"، وروينا فيهما - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً: "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت". وأخرج أبو نُعيم في "الحلية" عن عبد الله بن عمر، والحكيم الترمذي والبيهقي في "الشعب" والخطيب في التاريخ عن عبد الله بن عباس مرفوعاً: "إن الله عند لسان كل قائل؛ فليتق الله عبدٌ ولينظر ما يقول".

وقد حكى الشافعي في رسالته، والغزالي في "الإحياء"، والقرافي في "الفروق"...وغيرهم الإجماع على أنه لا يحل لامرئٍ مسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقْدِم على أمرٍ - قولاً كان أو فعلاً - حتى يعلم حكمَ الله فيه، والأصل في ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36].

فكيف بنا وقد أُهملت السنة الغراء، وأُهمل العمل بها، وعَدَم التضلع منها، ولم يبق إلا متابعة الهوى، والتمشي بمقتضى الأغراض والأهواء والآراء، وعم داء الجهل ورؤية النفس فوق الناس، وعدم الإنصاف، حتى يظن الظان بما سوّلت له نفسه أنه لا علم إلا ما عنده، وأنه ليس هناك من يسايره في علمه وفهمه، وأصل هذا الداء الوخيم: من أمراض القلب، والرضى عن النفس، ورؤيتها بعين الكمال، وما ذاك إلا مكرٌ واستدراج. نسأل الله السلامة والعافية، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، وقال جل ذكره: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [الكهف: 114].

وقد أغنانا الله سبحانه بكتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، وبسنة نبيه ﷺ المبيّن عن الله تعالى، القائل:

"تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالكٌ"، والقائل: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي".

وقد أكمل الله تعالى لنا ديننا الذي ارتضى لنا والحمد لله، فما من مسألةٍ إلا وهي في الكتاب والسنة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وقال عز من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال جل وعز: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44].

ولذا أمرنا بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع؛ لأنهما الحاكمان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 89]، و"شيء": هو أنكر النكرات، فدلت الآية الكريمة على أنه: ما من شيء شيء إلا ويجب رده إلى الكتاب والسنة عند التنازع، وأن من لم يفعل؛ فليس بمؤمنٍ كما يدل عليه الشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 59]، ووصف سبحانه ذلك بالخيرية والأحسنية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، ومنه قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

قال الإمام العارف ابن عطاء الله رضي الله عنه في تأليفه العجيب؛ المسمى بـ: "التنوير في إسقاط التدبير"، عند ذكر هذه الآية الكريمة ما نصه: "فيها دلالةٌ على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكّم الله ورسوله ﷺ قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً. ويشمل ذلك حكم التكليف، وحكم التصريف، والتسليم والانقياد واجبٌ على كل مؤمن في كليهما، فأحكام التكليف: الأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد. وأحكام التصريف: هو ما أورده عليك من قهر المراد. فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين: بالامتثال لأمره، والاستسلام لقهره".

"ثم إنه سبحانه وتعالى لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكم أو حكم ووجد الحرج في نفسه على ما قضى حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة

برسوله ﷺ، رأفةً وعنايةً، وتخصيصاً ورعايةً؛ لأنه لم يقل: فلا والرب. وإنما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65]، ففي ذلك تأكيد في المقسَم عليه، علماً منه سبحانه بما النفوس منطويةٌ عليه من حب الغلبة ووجود النصرة، سواءٌ كان الحق عليها أو لها، وفي ذلك إظهارٌ لعنايته برسوله ﷺ؛ إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه، فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه، والإنقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بألوهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ؛ لأنه كما وصفه ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: 3، 4]، فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ وأكد ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]".

"وفي الآية إشارةٌ أخرى لعظيم قدره، وتفخيم أمره ﷺ، وهي: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾، فأضاف نفسه تعالى إليه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كهيعص ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝﴾ [مريم: 1، 2]، فأضاف الحق سبحانه اسمه إلى سيدنا محمدٍ ﷺ، وأضاف سيدنا زكريا إليه؛ ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين، وتفاوت ما بين الرتبتين".

"ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج؛ وهو: الضيق من نفوسهم في أحكامه ﷺ، سواءٌ كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار، ووجود الأغيار؛ فعنه يكون الحرج؛ وهو: الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك، إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحت، فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودةً بوجود فضله العظيم، مهيأةً لواردات أحكامه، مفوضةً إليه في نقضه وإبرامه". اهـ، منه بلفظه، ونقلته بتمامه لنفاسته ومناسبته.

وحيث كان الأمر كما ذكرنا، وانتهى الحال إلى ما وصفنا وسطرنا؛ فلنرجع في هذه المسألة - كغيرها - إلى كتاب ربنا تعالى، وسنة نبينا ﷺ، ثم إذا أعوزنا وجود الدليل فيهما؛ لقصورنا وتقصيرنا لا لعدم وجدانه فيهما، نرجع إلى أمناء ديننا، وحملة شرعنا، الذين أمنهم الله تعالى على دينه،

المعنيين بقوله ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"، أخرجه ابن عدي والدارقطني وأبو نعيم وغيرهم عن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما، وطرق هذا الحديث كثيرةٌ وكلها لا تخلوا عن ضعف، لكن بكثرتها ينجبر، بل جزم بعضهم بأنه حديثٌ حسن، وقال الخطيب: "سئل عنه أحمد فقال: هو صحيحٌ؛ سمعته من غير واحد".

قال النووي في تهذيبه: "هذا إخبارٌ منه ﷺ بصيانة هذا العلم وحفظه، وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصرٍ خلفاً من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف، فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر؛ وهكذا وقع ولله الحمد، وهو من أعلام النبوة...قال: ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئاً من علم الحديث؛ فإن الحديث إنما هو إخبارٌ بأن العدول يحملونه، لا أن غيرهم لا يعرفون شيئاً منه". اهـ. قال السعد التفتازاني: "على أن ما يعرفه الفساق ليس بعلمٍ حقيقي؛ لعدم العمل". اهـ.

وقال بعضهم: "في هذا الحديث تخصيص حملة السنة بهذه المنقبة العلية، وتعظيمٌ لهذه الأمة المحمدية، وبيانٌ لجلالة قدر المحدثين وعلو مرتبتهم في العلمين: لأنهم يحمون مشارع الشريعة ومتون الروايات من تحريف الغالين وتأويل الجاهلين، بنقل النصوص المحكَمَة لرد المتشابه إليها". اهـ.

وقد رددنا الأمر إلى الله ورسوله، وإلى أولي الأمر منا من أيمتنا وعلمائنا؛ فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والحمد لله، فوجدنا كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وعلماء الأمة؛ حكموا بوصل الذكرين، واقتران الكلمتين المشرفتين، فما بقي إلا أن يقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: 115].

وإن شئت بيان ذلك، وتحقيق ما هنالك؛ فاصغ لما يتلى عليك بأذنٍ واعية، ونفسٍ عن قبول الحق غير آبيه.

واملأ السمع من محاسن يمليها عليـ ـك الإنـــشـــاد والإنـــشــــاء

المسلك الأول

في الاستدلال لذلك من الكتاب العزيز
ذي الحكمة البالغة واللفظ الوجيز

قال مولانا العظيم، في محكم كتابه الحكيم، خطاباً لنبيه الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، مقرراً لعظيم نعمه عليه، ومبيناً لكبير منزلته لديه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[الانشراح: 1-4]. عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال لي جبريل - وفي رواية: أتاني جبريل - فقال: إن ربي وربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟. قال: الله تعالى أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي"، قال الحافظ السيوطي في "الدر المنثور في تفسير القرآن العظيم بالمأثور": "أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى، وابن حبان وصححه، وأبو نعيم في "الدلائل"، والطبراني. قال النور الهيثمي: وإسناده حسن. قاله المناوي، والضياء في "المختارة"، وابن خزيمة في صحيحه...وغيرهم". اهـ، ونحوه له في "الخصائص"، وفي الجامعين الكبير والصغير.

قلت: وقد أخرج هذا التفسير عن جماعةٍ من السلف؛ من الصحابة والتابعين، جماعة من الحفاظ والمحدثين؛ كابن مردوية، وابن المنذر، وعبد بن حميد في مسنده، وسعيد بن منصور في سننه، وعبد الرزاق في مصنفه، والشافعي في رسالته، وابن عساكر في تاريخه، والبيهقي في سننه، وفي "الدلائل"، والرهاوي في أربعينه، والبغوي، والثعلبي...وغيرهم، وقد استوعب ألفاظهم الحافظ السيوطي في "الدر المنثور" فراجعه. كـ: "الخصائص الكبرى"؛ فإنه عقد لذلك أبواباً عدة، ولنذكر بعض ذلك؛ فنقول:

أخرج ابن عساكر عن الحسين أنه قال في تفسير هذه الآية: "ألا ترى أنه لا يُذكر الله في موضعٍ إلا ذُكر معه نبيه ﷺ؟!"، وأخرج البيهقي في سننه عن الحسن قال: "لا يذكرُ الله تعالى في موضعٍ إلا ذكر رسولُه ﷺ".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة قال: "رفع الله تعالى ذكره ﷺ في الدنيا والآخرة؛ فليس خطيبٌ ولا متشهدٌ ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله"، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره، والقاضي عياض في "الشفا"، وغيرهما.

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الآية: "لا يذكر الله إلا وذكرتَ معه"، وقال أيضاً: "يريد الأذان والإقامة، والتشهد والخطبة على المنابر؛ فلو أن رجلاً عبد الله وصدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله؛ لم ينتفع من ذلك بشيء، وكان كافرا".

وأخرج سعيد بن منصور وابن عساكر وابن المنذر عن محمدٍ بن كعب قال: "إذا ذُكر الله تعالى ذُكر معه: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله"، وأخرج عبدٍ بن حميد عن الضحاك قال: "إذا ذكرتُ ذكرتَ معي، ولا تجوز خطبةٌ ولا نكاحُ إلا بذكرك معي"، وقال أيضاً: "لا تقبل صلاةٌ إلا به، ولا تجوز خطبةٌ إلا به". وحكاه البغوي عن ابن عباس ومجاهد، وأورد عليه من كلام حسان بن ثابت".

أغرٌّ عليه للنبوة خاتمُ ... من الله من نورٍ يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

قلت: هكذا اشتهر نسبة هذه الأبيات لشاعر الحضرة المحمدية سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه؛ نسبها له غير واحد من الأيمة، قديماً وحديثاً، مع أن البيت الثالث منها نسبه بعضهم لأبي طالب عم النبي ﷺ، حسبما أخرجه البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن يزيد قال: "كان أبو طالب يقول:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمودٌ وهذا محمد"

ومعلوم أن حسان بن ثابت متأخر في الوفاة عن أبي طالب بكثير؛ كانت وفاته في خلافة سيدنا علي كرم الله وجهه، وكانت وفاة أبي طالب سنة عشر من النبوة، قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح؛ فلعله مما وقع فيه الحافر على الحافر، أو قاله حسان متمثلاً به من كلام أبي طالب؛ فنسب له واشتهر عنه، والله أعلم.

وفي بعض روايات حديث الإسراء: أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ في جملة ما امتن به عليه: "وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبةٌ حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي"، وقوله: "لا تجوز لهم خطبة"...إلخ، تقدم نحوه عن ابن عباس ومجاهد والضحاك.

قلت: ويشهد له ما أخرجه أبو داود في كتاب "الأدب" من سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "كل خطبة ليس فيها شهادة؛ فهي كاليد الجذماء". ومعلومٌ أن لفظ: "الشهادة" يطلق على الكلمتين المشرفتين معاً: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

وقد قرر جميع المفسرين الآية الكريمة بهذا المعنى: قال الخازن: "قيل: رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله: محمدٌ رسول الله"، وقال النسفي في "مدارك التنزيل": "رفع ذكره: أن قُرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطب، والتشهد"، وقال في "الكشاف": "ورفع ذكره: أن قُرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: 13]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [آل عمران: 132]، وفي تسميته: رسول الله ونبي الله"، وقال البيضاوي: "أي: رفعٍ مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته؟".

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "وما أحسن ما قال الصَرْصَري - رحمه الله: لا يصح الأذان في الفرض إلا باسمه العذب في الفم المرضي به. وقال أيضاً: لا يصح آذاننا ولا فرضنا إذا لم نكرره فيهما".

وقال في "روح البيان": "﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: بعنوان النبوة وأحكامها، أي: رفع حيث قرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والإقامة".

وقال أبو حيان في تفسيره: "هو: أن قَرَنه بذكره تعالى في كلمة الشهادة، والآذان والإقامة، والتشهد والخطب...وفي غير موضع من القرآن، وفي تسميته: نبي الله، ورسول الله، وذكره في كتب الأولين، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به".

وقال الفخر الرازي عند ذكره للحجج الدالة على أفضليته ﷺ على جميع الخلق ما نصه: "الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ فقيل فيه: لأنه تعالى قرن ذكر محمدٍ ﷺ بذكره في كلمة الشهادة، وفي الأذان، وفي التشهد. ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك". اهـ.

وقال أيضاً: "واعلم أنه عامٌّ في كل ما ذكروه من نبوته ﷺ وشهرته في الأرض والسماوات، وأن اسمه مكتوبٌ على العرش، وأنه يُذْكَر معه تعالى في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره ﷺ في القرآن مقروناً بذكره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: 13]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: 12]. ويناديه باسم: الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم: يا موسى يا عيسى".

"وأيضاً جعله في القلوب؛ بحيث يستطيبون ذكره ﷺ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 69]، كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك، ويحفظون سنتك، بل ما من فريضةٍ من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك، وجعلتُ طاعتك طاعتي، وبيعتك بيعتي: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، لا تأنف السلاطين من اتباعك، بل لا جراءة لا جهل ملوك

الأرض أن ينصب خليفةً من غير قبيلتك، فالقرَّاء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون وعظك. بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويصلون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باقٍ إلى يوم القيامة. . . ".اهـ منه بلفظه.

قلت: ويزيد على ذلك يوم القيامة: الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، والوقوف عن يمين العرش؛ ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيره، والوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وسيادة ولد آدم، والمحامد التي يفتح بها عليه، وآدم فمن دونه تحت لوائه. . .وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصرٍ ولا يخطر على بال .﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 72]، ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]. وكل هذا من رفع ذكره ﷺ.

وقال الورتجبي في تفسيره المسمى بـ: "عرائس البيان": "قال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: 4]؛ جعلتُ تمام الإيمان في ذكرك معي. وقال أيضاً: جعلتك ذكرا من ذكري؛ فكان من ذكرك ذكرني". ونحوه نقله في "الشفا" و"المواهب" عن ابن عطاء المذكور؛ وهو: أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء الزاهد البغدادي.

وكتب الملا علي القاري في "شرح الشفا" على قوله: "جعلتك ذكراً من ذكري" ما نصه: "أي: جعلتك نوع ذكرٍ من أذكاري". اهـ. وقال بعضهم: "أي: جعلت اسمك الكريم نوع ذكرٍ من أذكاري، أفيض على ذاكره أسراري، وأحليه بإزاري". اهـ.

وقال الزرقاني في "شرح المواهب": "أي: جعلت ذكرك ذكراً من ذكري، أو: جعلت ذاتك مبالغة حتى كان من رآى ذاته ذكر الله، أو المعنى: كان ذكرك عين ذكري؛ لعدم انفكاكه عنه غالبا، أو: هو مثله في التقرب به والأجر، أو: هو معدودٌ من أفراده؛ لأن كل مطيعٍ لله ذاكره". اهـ.

وقال في "الشفا": "﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾: قال يحيى بن آدم: بالنبوة.

وقيل: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي في قول: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله. وقيل: في الآذان". اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"، في كتاب: التفسير من صحيح البخاري، عند كلامه على سورة: "ألم نشرح"، ما نصه: "لم يذكر - يعني: البخاري - في سورة "ألم نشرح" حديثاً مرفوعاً، ويدخل فيها حديثٌ أخرجه الطبراني وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رفعه: أتاني جبريل، فقال: يقول لك ربك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟. قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي. وهذا أخرجه الشافعي، وسعيد بن منصور، وعبد الرزاق، من طريق مجاهد". اهـ بلفظه.

وقال الحافظ السُّيُوطي في "الخصائص": "باب اختصاصه ﷺ بشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر؛ وهو: اقتران اسمه باسم الله تعالى..."، ثم ساق حديث أبي سعيد الخدري، وأثر قتادة وغيرهما في تفسير الآية كما مر.

ونحوه: قول الحافظ أبي نعيم: "ومن خصائصه ﷺ: أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه، عند ذكر طاعته ومعصيته، وفرائضه وأحكامه، ووعده ووعيده؛ تشريفاً وتعظيماً". اهـ بخ.

وقال العيني في "عمدة القاري"؛ شرحه على صحيح البخاري: "فذكرُه ﷺ مقرونٌ بذكره تعالى، ولقد قالوا في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: ذكرتَ معي حيث ذُكرتُ، وفي رسالة الشافعي عن مجاهد في تفسير هذه الآية، قال: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وروي ذلك مرفوعاً عن رسول الله ﷺ إلى جبريل إلى رب العالمين. قاله النووي في شرح مسلم". اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في فتاويه الحديثية ما نصه: "ومما يدل على أفضليته ﷺ على جميع الخلق: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، وسياق الآية قاضٍ بأن المراد: رفع عظيم، ومن ثم فسروه بأن المراد به: لا أذكر إلا وتذكر معي، وبأن ذاك الرفع العظيم على جميع الخلق؛ لأنه لم يذكر المرفوع

عليهم، والأصل: عدم التخصيص". اهـ، بلفظه.

وقال الشيخ سيدي عبد العزيز الديريني في كتابه: "طهارة القلوب" ما نص المراد منه: "فضائل رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصى، ومعجزاته ومناقبه لا تستقصى، فإن الله تعالى جعل محبته مشروطة بمحبته، وطاعته منوطة بطاعته، وذكره مقروناً بذكره، وبيعته مقصودةً ببيعته، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ وقال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾..."، ثم ذكر حديث جبريل المتقدم في تفسيرها، ثم قال: "ويقال معناه: جعلت تمام الإيمان بذكرك معي. ويقال: معناه جعلتك ذكراً من ذكري؛ فمن ذكرك ذكرني، ومن أثبتك أثبتني، ومن أنكرك فما عرفني. ويقال: معناه لا يذكرك أحدٌ بالرسالة إلا وذكرني بالربوبية". اهـ.

وفي "الشفا" عن جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح: 2]، قال: "من تمام نعمته عليه: أن جعله حبيبه، وأقسم بحياته، وقرن ذكره بذكره، ورضاه برضاه، وجعله أحد ركني التوحيد". اهـ.

ثم قال في "الشفا" بعد ما مر عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾، ما نصه: "فهذا تقريرٌ من الله - جل اسمه - لنبيه ﷺ على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده وكرامته عليه، وتنويهه بعظيم مكانته وجليل رتبته، ورفعة ذكره، وقرانه مع اسمه اسمه...ثم قال: وقال جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحدٌ بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية، ومِنْ ذكره معه: أن قرن طاعته بطاعته، واسمه باسمه، فقال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عمران: 32]، و: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: 15]، فجمع بينهما بواو العطف المشركة، ولا يجوز جمع هذا الكلام في حق غيره ﷺ". اهـ.

وقال الشهاب الخفاجي في شرحه عليها: "الذكر محمولٌ على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدها، فإن ذكره ﷺ مقرونٌ بذكره تعالى فيها في الواقع، في الصلوات والخطب، فلا ترى مشهدا من مشاهد الإسلام إلا وهو كذلك، فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى في يومٍ من الأيام ولا ليلة من الليالي، بل

ولا وقت من الأوقات المعتد بها، فإن المراد: التنويه بذكره ﷺ، وإشاعة عليِّ قدره الدال على قربه ﷺ من ربه عز وجل؛ كقرن اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا في ذكره في المحافل والمشاهد، والجوامع والمساجد. وأي إشاعةٍ أقوى من الآذان؟!".

"واعلم أن تحقيق هذا المقام: ما قاله الشافعي في رسالته الجديدة، وبينه السبكي في تعليقه على "الرسالة"؛ فقال رحمه الله تعالى: قال الإمام رضي الله عنه عن مجاهدٍ في تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قال الشافعي: يعني ذكره ﷺ عند الإيمان بالله تعالى والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية".

"قال السبكي: هذا الاحتمال من الشافعي جيد جيداً؛ وهو مبني على أن المراد بالذكر: الذكر بالقلب، وهو صحيحٌ، فعلى هذا يعم؛ لأن الفاعل للطاعة والكافّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به ذاكرٌ للنبي ﷺ بقلبه؛ لأنه المبلغ لنا عن الله تعالى، وهذا أعم من الذكر باللسان؛ فإنه قاصرٌ على الإسلام، والأذان والتشهد والخطبة ونحوها. قال الشافعي: فلم تمس بنا نعمةٌ ظهرت ولا بطنت نلنا بها حظاً في دينٍ أو دنيا، أو دفع عنا بها مكروهٌ فيهما أو في واحدٍ منهما؛ إلا ومحمد ﷺ سببها". اهـ.

قال الخفاجي بعده: "أقول: عُلم من هذا أنه: إن أبقى العموم والحصر على ظاهره؛ حمل الذكر على الذكر القلبي، فيشمل كل موطنٍ من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله تعالى تذكر من دله على معرفته وهداه إلى طاعته؛ وهو: رسول الله ﷺ، كما قيل:

فأنت باب الله أيُّ امرىء أتاه من غيرك لا يدخل

"ومن كلام النبوة الأولى: من أراد الوصول إلى الله تعالى من غير باب النبوة؛ قطعه الله عنه". اهـ كلام الشهاب الخفاجي.

قلت: ويحتمل عندي: إبقاء العموم والحصر على ظاهره؛ فإنه لا مانع من ذلك، ويكون قول الشافعي: "يعني: ذكره ﷺ عند الإيمان بالله تعالى"؛

معناه: أنه كلما ذكر الله تعالى بما يقتضي الإيمان به - كالتهليل مثلاً - يذكر معه النبي ﷺ بما يقتضي الإيمان به أيضاً؛ فهو عامٌ في كل موطن، وهذا الاحتمال هو المتبادر، إذ هو الملايم لما نقله عن مجاهد في تفسير الآية الكريمة من قوله: "لا أذكر إلا ذكرت معي"، ولا يصح حمله على الداخل في الإسلام؛ لأنه يقتضي أن المسلم أصالة لا يُطلَب بذكره؛ وهو خلاف مقتضى الآية الكريمة؛ فإن سياقها يقتضي رفعاً عظيماً، وليس إلا بمداومة ذكره ﷺ.

وقد قال المُناوي في شرحه الكبير على "الجامع الصغير" عند قوله في الحديث: "لا أذكر إلا ذكرت معي": "أي: كثيراً أو عادةً، أو في مواطن معروفة؛ كالخطب والتشهد والتأذين، ولا يصح شيء منها من أحدٍ حتى يشهد أنه رسوله شهادة تيقن، وأي رفعٍ أعظم من ذلك؟.! وبتأمله يعرف اندفاع الاستعقاب بأن الشهادة الثانية قد لا تذكر. فتدبر". اهـ بلفظه.

وقوله: "قد لا تذكر"؛ يفيد أن الأكثر والغالب هو ذكرها، وهو أول الاحتمالات عنده وأولاها، وهو الواقع في الخارج؛ إذ هو الذي تقتضيه الدلائل النقلية والعقلية مما تقدم، ويأتي مما يقتضي وصل الذكرين واقترانهما إلا ما قام الدليل فيه على التخصيص، كما يأتي، ويمكن رد الاحتمالين الآخرين إلى هذا كما لا يخفى على متأملٍ.

وأيضاً؛ فكما طلب ذكره عند الدخول في الإيمان؛ طلب فيما بعده، فلا فرق بين البداية والنهاية، ويلزم من قال بالفرق بينهما: أن الله تعالى لم يتعبدنا بذكره ﷺ معه تعالى إلا عند الدخول في الإيمان، وهذا لا يفوه به مؤمن، فإذاً؛ لا سبيل للتفريق بين الذكرين.

ألا ترى أن الآذان الذي هو شعار الإسلام لا يصح إلا باتصال الذكرين جميعاً على الدوام؟، فكما لا ينتقل الأذان عن حالته التي شرع عليها من اتصال الذكرين؛ فكذلك لا ينتقل المؤمن عن الحالة التي لا يقبل فيها إيمانه إلا بعد إتيانه بالأصلين، إلا أن اتصال الذكرين عند الدخول في الإيمان وفي الأذان شرط صحة، بحيث لا يصح الإيمان وكذا الأذان ونحوه إلا بالذكرين

جميعاً، بخلاف مطلق الذكر؛ فإن ذلك فيه شرط كمالٍ فقط.

وكما يطلب السالك بما يحرك عنده قوة الإيمان بذكر التهليل، كذلك يطلب بما يحرك عنده قوة شرط الإيمان بإثبات رسالة الدليل كما قاله ابن عطاء الله، وسيأتي.

وأما قول الشهاب الخفاجي: "إن أبقي العموم والحصر على ظاهره؛ حمل الذكر على الذكر القلبي"؛ فلم يظهر لي وجهه، وأي مانع يمنع من إبقائهما على ظاهرهما، ويحمل الذكر على الذكر اللساني والقلبي معاً؟، ولعل مراده: في بعض المواطن التي تختص بذكر الله تعالى. ويدل لهذا: تعليله بأن العاقل المؤمن إذا ذكر الله تعالى تذكّر من دله على معرفته وهداه إلى طاعته؛ وهو: رسول الله ﷺ، فإن من لازم تذكره حينئذٍ وشهود واسطته؛ ذكره باللسان بما يقتضي حبه وتعظيمه، فإن اللسان ترجمان القلب، بل يود المؤمن لو كانت ذاته كلها لسنا تثني عليه ﷺ على حد قول بعضهم:

في كل جارحةٍ عينٌ أراك بها   مني، وفي كل عضوٍ للثناء فم
فإن تكلمتُ لم أنطق بغيركمُ   وإن سكتُّ فشغلي عنكمُ بكمُ

وتأمل قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: "فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظاً في دينٍ أو دنيا، أو دفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحدٍ منهما؛ إلا ومحمدٌ ﷺ سببها". فهو كالتعليل لمطلوبية ذكره ﷺ كلما تجددت على الإنسانِ نعمةٌ في دينه أو دنياه، أو صرفت عنه نقمةٌ شكراً لوساطته؛ لأنه إنما نال ذلك ببركته ﷺ وبواسطته وعلى يده، وشكر الوسائط واجبٌ ولو بالدعاء، لحديث: "من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه". الحديث، ولا يصح أن يكون شكر الوسائط والدعاء لهم من الأمور القلبية فقط، ونعم الله علينا متوالية عدد أنفاسنا ولحظاتنا، بل أكثر، وكلها على يده ﷺ، فتعين واجب حقه علينا بكثرة ذكره والصلاة والتسليم عليه في جميع الأوقات.

وأيضاً؛ إذا طلب ذكره بالقلب عند الأمر والنهي: يطلب ذكره باللسان عند ذكر الله تعالى بالأحرى، محافظةً على وصل الذكرين واقترانهما، وعدم التفريق بينهما. فتأمله.

وقول السبكي: "ذكر اللسان قاصرٌ على الإسلام، والأذان، والتشهد، والخطبة"، ليس معناه الحصر فيما ذكر قطعاً، وإنما هو تمثيلٌ بالمتكرر في المحافل والمشاهد غالباً. وقوله في هذا الاحتمال: "وهو مبنيٌ على أن المراد بالذكر: الذكر بالقلب، وهو صحيحٌ...". إلخ، ليس معناه: أن مقابله - الذي هو الاحتمال الأول - غير صحيح، بل معناه: أنه كما يصح حمله على الأول - الذي هو: ذكر اللسان - يصح حمله على الثاني الأعم، الشامل لذكر اللسان وغيره من فعل الطاعة وترك المعصية. فتأمل ذلك، والله أعلم.

فانظر - رحمك الله - كيف فسر الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته الآية الكريمة بأنه: لا يذكر جل اسمه إلا وذكر معه حبيبه ﷺ، ودرج على ذلك السلف الصالح رضوان الله عليهم من الصحابة والتابعين وجمهور المفسرين والمحدثين...وغيرهم من كل من تكلم على الآية من الأيمة كما سمعت؛ فهل بقي لقائلٍ ما يقول؟، وما ذا بعد الحق إلا الضلال.! فلم يبق إلا الإيمان بذلك والتصديق والإذعان .﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

فكان ذلك حكماً شرعياً؛ إذ الحكم الشرعي هو: خطاب الله تعالى في الأزل بأمرٍ أو نهيٍ أو خبرٍ، وهذا خبرٌ أزليٌ إلهيٌ يجب قبوله وإظهاره والإيمان به والعمل بمقتضاه، كما أنه أمرٌ إلهي ضِمني أيضاً، ضرورةَ أن التخلق بأخلاقه - سبحانه وتعالى - مطلوبٌ، وقد أخبرنا - جل ذكره - بأنه قرن ذكره بذكر حبيبه ﷺ، واسمه باسمه، وأظهر ذلك سبحانه في عوالم ملكه العلوية والسفلية، وفي كل موطنٍ من العرش فما دونه، وكتب الاسمين الكريمين على ساق العرش وقصور الجنة وغرفها وحورها، وبين أعين الملائكة...وغير ذلك كما سيأتي.

فوجب أن لا يُذكر - جل اسمه - إلا وذُكر معه نبيه ﷺ، تأسياً به سبحانه وتعالى وتخلقاً بأخلاقه الكريمة المأمور بالتخلق بها، أي: بما يليق التخلق به منها، وفي الحديث: "ابدأو بما بدأ الله به"، يعني: في السعي بين الصفا والمروة، ففيه طلب الائتساء به سبحانه في نحو ذلك، ولو لم يكن من الدلائل

على ذلك إلا هذا الوجه وحده لكان كافياً، أما حيث ثبت بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة؛ طُلب وصل الذكرين في عبادتنا ومعظم شعائر ديننا.

فالمفرق بينهما في الذكر هو المطالَب بالدليل على التفرقة، وأنى له به؟!، ولا نأمن أن يصدق عليه قول مولانا العظيم: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27]، فقد ذكر في "سلسلة الأنوار" نقلاً عن ابن عطاء الله في كتاب "الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الكريم الفتاح" عن بعض المفسرين أنه قال في هذه الآية الكريمة: "أمر الله تعالى أن يوصَل ذكرُ نبيه بذكره، فمن قطع بين ذلك؛ فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن قطع ما أمر الله به أن يوصل؛ فقد أطلق عليه اسم: الخسران، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: معناه: لا أذكر إلا ذكرت معي". اهـ.

قلت: وعليه؛ فقد مدح سبحانه في الآية الأخرى أقواماً سلكوا هذا السبيل الأقوم، وواعدهم بجزيل الثواب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: 21] الآية، والسالك غير هذا المسلك الواضح؛ لم يُنزل رسول الله ﷺ المنزلة التي أنزله فيها ربه تعالى، وقد أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونُهينا عن غمص الحقوق، وأول من يصدُق عليه هذا: رسول الله ﷺ، فيجب علينا أن ننزله المنزلة التي أنزله فيها ربه تعالى، وأن نوفيه حقه قدر المستطاع، وإلا؛ كنا مفرطين ومضيعين ومقصرين فيما وجب علينا من حقه العظيم.

وانظر كيف ذم الله تعالى أقواماً بذلك في آي عدة؛ كقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية [المجادلة: 8]، وإن كانت الآية في المنافقين، ولكنها تجر ذيلها على غيرهم، فالحذر الحذر.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: 63] إنهم الذين ينصرفون عن رسول الله ﷺ وعلى كتابه وعلى ذكره، ذكره أبو حيان في تفسيره. وذكر أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]. عن أبي هريرة وعطاء الخراساني: أن كلمة التقوى هي: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ﷺ. قال: "وأضيفت

الكلمة إلى التقوى؛ لأنها سبب التقوى وأساسها". اهـ.

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: 59]، قال المفسرون: أمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بحمده تعالى، وبالسلام على المصطفين من عباده؛ وهم: الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، فإنه تعالى لما أخذ في تقرير مباينة واجب الوجود سبحانه للأصنام التي أشركوها مع الله تعالى وعبدوها؛ ابتدأ هذا التقرير بالحمد لله وبالسلام على المصطفين، وكأنها صدر خطبةٍ لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة، وهذا أصل لما جرت به العادة من افتتاح كتب العلم والرسائل ونحوها بالحمدلة والصلاة على النبي ﷺ.

وقيل: إن الآية متصلةٌ بما قبلها، وإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بتحميده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الأمم، وبالسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين. وعلى كلٍ؛ ففيها دلالة واضحة على مشروعية ذكره ﷺ عند ذكر ربه تعالى؛ لأن أمره ﷺ بذلك يتضمن أمر أتباعه بالأحرى.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 180- 182]، قال المفسرون: في ختم سورة "والصافات" بالتسبيح بعد ما تضمنته من بيان تخليط المشركين وأكاذيبهم ونسبتهم إلى جلاله تعالى الأقدس الأرفع ما لا يليق به؛ تعليم للمؤمنين ما يختمون به مجالسهم؛ لأنه لا يخلو كل مقامٍ يجلس فيه الإنسان من فلتات وهفوات، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه: أن يتلو هذه الآية لتكون مكفرة لتلك السقطات، ويحمد الله لما وفق إليه من الطاعات، ويسلم على المرسلين الذين هم وسائط بينه وبين الله تعالى، ولاسيما الواسطة الأعظم ﷺ.

وقد أخرج البغوي وغيره عن سيدنا علي - كرم الله وجهه - قال: "من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة؛ فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: 180 - 182]". وأخرج ابن مردوية عن عائشة رضي الله عنها أنها: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 12]، أي: تقولوا: الحمد لله الذي من علينا بمحمدٍ عبده ورسوله، ثم تقولوا: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مجلز قال: "رآى حسين بن علي رضي الله عنه رجلاً يركب دابةً، فقال: سبحان الذي إلخ. . . قال: أو بذلك أمرت؟، قال: فكيف أقول؟. قال: قل: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي منَّ علينا بمحمدٍ ﷺ، الحمد لله الذي جعلنا في خير أمة أخرجت للناس. ثم تقول: سبحان الذي. . .الخ". فهذه الآية - أيضاً - مما يستشهد بها لما نحن بصدده، حيث أمر الراكب بذكره ﷺ مع ذكر ربه، وحض على شهود واسطته، وحمد الله تعالى على ما من به من إيجاده.

وأرى أن السبب الوحيد الذي حط الأمة عن أوجها وشامخ مجدها، وصيرها إلى الحضيض الأسفل؛ إنما هو: التعصب المثير للضغائن والأحقاد، والعاقل الكيس، الناصح لنفسه وللناس في هذه الأزمنة التي غلب فيها الفساد ورقت الديانة، وعم داء الجهل البلاد والعباد، وقل الاكتراث بأمور الدين، ونزعت هيبة الشرع من قلوب أكثر المخلوقين، إذ نحن في زمان تأخر أهله في كل فضيلة من علم وعمل؛ هو من يحمل الناس على مزيد التعظيم والترفيع للشريعة المحمدية، التي استنار بها العالم أجمع، واقتبست منها الأمم على اختلاف مللها ونحلها، ما أرشدها لمصالحها من قوانين وآداب وتهذيبات ومعارف، كما يعترف بذلك كل منصف، وذلك بتعظيم صاحبها صلوات الله وسلامه عليه، وإظهار شرفه وإعزازه، وإعلان توقيره وإجلاله، وإفراغ ذلك في قالب المحسوسات التي بها يتأثر الناس، خصوصاً العامة، ودلالتهم على ذلك، وتوصيله إليهم بالقول والفعل.

فلو فرضنا أن ذكره ﷺ لم يكن من عادة السلف؛ اكتفاء بما في بواطنهم وما انطوت عليه قلوبهم من محبته ﷺ وتعظيمه؛ لكان الواجب اليوم - حيث

ضعف الدين ورقت الديانة - هو: إشادة ذكره، ولهج العبد به في سره وجهره، واستمطار نفحاته وبره؛ لِما أن ذلك يُثمر محبته في القلوب وتعظيمه وإجلاله وتكريمه.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: 4]: إنه الوقار والعظمة لله ولرسوله. حكاه أبو حيان في تفسيره، ولا شك أنه على قدر وقاره وعظمته في القلب يكون اتباعه ﷺ والاهتداء بهديه الذي هو أصل السعادة، فكيف وقد أمرنا مولانا تعالى بذكره معه أمراً لزوميا في معظم عباداتنا، وكلفنا بإعلان ذكره في جل أوقاتنا وساعاتنا، ونبهنا - سبحانه - على عظيم قدره لديه لو شعرنا، فجعل اسمه ﷺ مصاحباً لاسمه تعالى، وداخلاً في أشرف العبادات، لا تكمل إلا به؛ كاسمه تعالى.

فهذه الصلاة التي هي عماد الدين؛ لا يقال فيها: التحيات لله...الخ، إلا ويقال: السلام عليك أيها النبي. وتسن الصلاة عليه ﷺ في التشهد الأخير منها، أو تجب. على اختلاف العلماء في ذلك، وما من فريضة من فرائضها إلا وبجانبها سنة أو سنن، وكذا بقية قواعد الإسلام الخمس، وكذلك الطهارة الصغرى والكبرى، وبدلهما، كل ذلك قد احتفت به عدة سنن مما سنه ﷺ وشرعه لأمته، إشارة إلى ملاحظته ﷺ وشهود واسطته، وتذكره مع الله تعالى، وعدم الغفلة عنه.

وتأمل قوله ﷺ في شهر رمضان: "فرض الله عليكم صيامه، وسننتُ لكم قيامه"، ومن تتبع الأوامر الشرعية كلها يجد الأمر هكذا: ما من أمر إلهي إلا وبجنبه أمر محمدي أيضاً، وهذه الخطب لا يثني على الله فيها إلا ويثني على حبيبه ﷺ أيضاً، وهذه الرسائل تستفتح بحمد الله تعالى وبالصلاة عليه ﷺ، وكذلك كتب العلم، وتلاوة القرآن، وكل أمر مهم، وهذا الأذان والإقامة؛ لا يكملان إلا بذكره ﷺ مع ربه تبارك وتعالى، فجعل التعبد بذكره ﷺ كالتعبد بذكره تعالى، وجعل لاسمه من الاحترام بالانضمام إلى اسمه ما لاسمه تعالى، كل ذلك تعليماً وإرشاداً وتنبيها منه تعالى لعباده، ودلالة على عظيم

قدر نبيه عنده وشريف منزلته لديه، أفلا يتأكد على المؤمن أن يتأدب بهذه الآداب الشرعية ويعمل بمقتضاها، ويتخلق بهذه الأخلاق الإلهية ولا يتعداها؟.!

وها هنا فوائد ثلاثة:

[الحكمة من زيادة لفظة "لك" في آية ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾]

الفائدة الأولى: قال في "الكشاف" عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، ما نصه: "فإن قلت: أي فائدة في زيادة "لك" والمعنى مستقل بدونه؟. قلت: في زيادة "لك" ما في طريقة الإبهام والإيضاح، كأنه قيل: (ألم نشرك له)، ففهم أن ثم مشروحاً، ثم قيل: صدرك. فأوضح ما علم فهما، وكذلك: "لك ذكرك"، و"عنك وزرك". اهـ.

قال الشيخ الإمام أبو الفيض رضي الله تعالى عنه: "وثم ما هو أرشق وأرق وأملح؛ وهو: التنبيه على مقام المحبوبية الأعلى؛ فإنه لا تعلل فيه الهبات والعطايا بأوصاف ولا بأعمال، فاللام للتعليل، والمعنى: ورفعنا ذكرك لأجلك لا لعمل مخصوص أو وصف معين؛ إذ لو كان لذلك لاقتضى عروض الرفع، وأن التقريب عارض، فبين أن الرفع أصلي سابق، وأن التقريب لذاته محبة فيه. وأيضاً؛ العطاء المعلل بالوصف والعمل يكون على حسبهما، والعطاء للمحبة؛ لا يحد ولا يقدر. وقولنا: لا بعمل مخصوص أو وصف معين. مأخوذ من مفهوم العلة، ولا نقول: بإفادة تقديم بعض معمولات الفعل على بعض الحصر؛ لأنه خلاف الراجح". اهـ. قلت: ولعمري إنه لنفَس عال، مؤذن بنورانية باطن صاحبه.

وقريب منه قول الإمام المناوي في شرحه الكبير على "الجامع الصغير" عند ذكر حديث: "أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول لك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟. قلت: الله أعلم. قال: لا أذكر إلا ذكرت معي"، رواه أبو يعلى وابن حبان والضياء في "المختارة" عن أبي سعيد، ما نصه: "أطنب بزيادة "لك" - يعني: في كلام جبريل - لينبه على كمال العناية، ومزيد الوجاهة عنده والرعاية". اهـ.

[قرن الله تعالى اسمه باسم النبي ﷺ، ونعته ووصفه]

الفائدة الثانية: كما أنه تعالى قرن اسمه باسم نبيه ﷺ، كذلك قرن نعته بنعته، ووصفه بوصفه في آيات كثيرة جداً، فقرن طاعته بطاعته في قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: 54]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 71]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: 13]. بل جعلهما شيئاً واحداً في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20]، قال في "الكشاف": "الضمير في "عنه" لرسول الله ﷺ؛ لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله؛ كقوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه، ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد؛ فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما، كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان". اهـ.

وقال أبو السعود: "ولا تَوَلَّوْا عنه، أي: لا تتولوا عن الرسول؛ فإن المراد هو: الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى في طاعة رسوله ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾". اهـ.

وقال في "روح البيان": "ولا تولوا عنه، ولم يقل: عنهما؛ لأن طاعة الله إنما تكون بطاعة رسوله". اهـ.

وجعل - سبحانه - بيعته ببيعته؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقرن عزته بعزته فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: 8]، وقرن غناه بغناه؛ فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74]، وقرن حكمه بحكمه؛ فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: 48]، فوحد ضمير: "يحكم" إشارة إلى أن حكمه حكم الله. وانظر ما تضمنته هذه الآية الكريمة من التنويه بعظيم قدره ﷺ ورفيع رتبته وشفوف منصبه ومنزلته، فأخبر تعالى أنهم إذا علموا: أن الحق عليهم لا لهم. ومن لازمه: أن يحكم عليهم أعرضوا عن تحكيمه، وإذا علموا

أن الحق لهم؛ سارعوا إلى تحكيمه مذعنين راضين بحكمه، فتضمن ذلك أن أعداءه كانوا يتحققون عدله وأمانته، وأنه لا يستفزه عداوتهم له على أن يغمصهم حقوقهم، والحق ما شهدت به الأعداء.

ثم قال تعالى موبخاً لمن أعرض عن تحكيمه منهم ومقرعاً لهم: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: 50]، فهي شهادة من الله جل جلاله بنزاهته ﷺ وأمانته، وبعده عن الحيف والجور والظلم، ثم نسب الظلم إليهم، ثم أثنى سبحانه وتعالى على المؤمنين برضاهم بتحكيمه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: 51، 52].

وقرن تعالى نعمته بنعمته؛ فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 37]. فأسند تعالى إنعامه على زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ ونسبه إليه، مع أنه تعالى هو المنعم على الكل حقيقة، ابتداء وانتهاء، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53]، لكن لما كان ذلك بواسطته ﷺ وعلى يده؛ صح أن ينسب إليه، قال ابن العربي في "الإحكام": "قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالإسلام، و﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالعتق، وقيل: أنعم الله عليه بأن ساقه إليك، وأنعمت عليه بأن تبنيته، وكلما كان من الله إليه أو من محمد إليه؛ فهو نعمة عليه". اهـ بلفظه.

وقرن تعالى قضاءه بقضائه؛ فقال: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا...﴾، الآية [الأحزاب: 63]. وقرن رضاه برضاه؛ فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62]، فوحد الضمير إشارة إلى أن إرضاءه ﷺ إرضاء لربه تعالى، وعلق إيمانهم على إرضائه بقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقرن تعالى إجابته ﷺ بإجابته؛ فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، فوحد الضمير أيضاً؛ إشارة إلى أن استجابته ﷺ استجابة لربه تعالى؛ لأنه المباشر لدعوة الله، ودعاؤه بأمر الله، فهو دعاء

الله. ولذا وحد الفعل، قاله في "روح البيان"، وأصله في "الكشاف" وأبي السعود.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: 15]، وقال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [براءة: 1]، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 3]، وقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 3]، وقال: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 105]، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: 14]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: 4]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 5]، وقال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: 16]، وقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: 33].

وقال: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: 66]، وقال: ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 29]، وقال: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: 1]، وقال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، وقال: ﴿كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ﴾ [التوبة: 90]، وقال: ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾ [التوبة: 91]، وقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136]، وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ [الأحزاب: 22]، وقال: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: 59]...إلى غير ذلك مما يطول تتبعه.

وقد قال الفخر الرازي في تفسيره: "من الدلائل الدالة على أفضليته ﷺ على جميع النبيين والمرسلين: هذه المقارنات التي قارن تعالى بين نعوته ونعوته في غير موطن، ولم يذكر تعالى ذلك لغيره عليه السلام، فكان من وجوه أفضليته عليهم". اهـ.

وقال الشيخ الإمام ابن تيمية في كتابه "الصارم المسلول على شاتم الرسول" بعدما ذكر أن الله تعالى قرن محبته بمحبته ﷺ وأذاه بأذاه، وجعل إرضاء الله ورسوله شيئاً واحداً، وطاعة الله ورسوله شيئاً واحداً، وشقاق الله ورسوله، ومحادّاة الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله، شيئاً واحداً، ما نصه:

"وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة الله ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول ﷺ، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه. وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور". اهـ منه بلفظه.

فليت شعري؛ من اطلع على هذا الارتباط المعنوي بين الحضرتين بمقتضى الحكمة الإلهية؛ كيف يمكنه أن يفصل بينهما في الرسوم اللفظية؟!

[الحكمة في فصل لفظي الشهادتين بدل وصلهما]

فإن قلت: ومع هذا الاتصال المعنوي؛ فلم كان الانضمام في كلمة الشهادة على وجه الفصل؛ بأن قيل: لا إله إلا لله محمد رسول لله. دون الوصل؛ بأن يقال: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله. بالواو، مع حصول الجامع؟

قلت: أجيب بأن الإشارة بذلك لنكتة سرية؛ وهي: أن الشهادة بالرسالة معتبرة في الإيمان والعبادة على سبيل الاستقلال لا على سبيل التبعية، فالإيمان ركنان، وأساسان ودعامتان، وهما: الإقرار بالربوبية، والاعتراف بالرسالة، ولا تغني الأولى عن الثانية. ولو قيل: ومحمد رسول الله. بواو الوصل؛ لأوهم أن الثاني تابع ومكمل وتتمة، لا أصل وعمدة وأساس، وقد اقتضت حكمة الحكيم - سبحانه وتعالى - أن جعل نبيه ﷺ متبوعاً في كل شيء، وأن الأشياء كلها تتشرف به، ويعلو قدرها بسببه، على سبيل الاستقلال لا على سبيل التبعية.

ألا ترى أنه ﷺ لما نشأ بمكة المشرفة وظهر أمره بها، وقد يتوهم من ذلك أنه تشرف بها؛ نقله الله تعالى منها إلى المدينة المقدسة ليخصه ببلده وحده، وحرم ومسجد وروضة، ووفود تسير إليه كما تسير إلى البيت العتيق؟، فالوفود تسير من كل الآفاق إلى زيارة الكعبة، وكذلك تسير إلى زيارته ﷺ، ولما أن جعل الله - سبحانه - المسجد الحرام له فضيلة بالصلاة فيه والجلوس فيه؛

جعل مسجد نبيه ﷺ كذلك في مضاعفة الأجور، وجعله روضة من رياض الجنة. وهكذا فافهم.

وقد قال في "الفتوحات" ما نصه: "وأما حكمة حرم المدينة؛ فلأن الله قرن الشهادة بنبوة محمد ﷺ، ورسالته بشهادة التوحيد، تشريفاً له، وأنه لا يكون الإيمان إلا بهما، والله قد حرم مكة، فجعل لرسوله ﷺ تحريم المدينة، تأييداً لشرف الشهادة، فجعل له أن يحرم كما حرم الله تعالى. ثم قال: وأما زيارة النبي ﷺ؛ فلكونه لا يكمل الإيمان إلا به، فلا بد من قصده للمؤمن. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]". اهـ المراد منه.

وسئل الشيخ الإمام العارف بالله سيدي عبد لله الميرغني - شيخ الشيخ مرتضى شارح "الإحياء" و"القاموس" - عن مسائل؛ منها: ما السر في التوجه إلى الكعبة المشرفة ولم يكن إلى النبي ﷺ الذي هو كعبة أهل الوصال، وقبلة أولي الاتصال؟...الخ.

فأجاب بما نصه: "وأما عدم جعله ﷺ قبلة؛ فلأنه لو جعل قبلة لدخل واجب حقه في واجب حق الله تعالى، وأدى ضمناً، وذلك تساهل بشأنه ﷺ مع كونه بالمحل الأعلى، والمكان الأرفع، فلا بد من اختصاصه، وتمييز واجبه، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وفي الخبر: فلا أُذْكَرُ إلا وتُذكر معي. ولذا أمرنا بالشهادتين مع كون أحدهما متضمنا للمعنيين؛ إذ من معنى: لا إله إلا لله: لا كمال إلا لله، ومن الكمال: إرسال رسول لله ﷺ. لكن؛ لما كان محبوب الله، ومن عادة المحب أن يحب للمحبوب مثل ما يحب لنفسه بل أزيد، ميزه بتلك التمييزات، وخصه بتلك الاختصاصات، حتى لقد أدرج حقه في حقه في بعض الأمور، كما جعل مبايعته مبايعة الله، وطاعته طاعة الله، وأذاه أذى الله...وهكذا، وهذا هو الوجه". اهـ لفظه.

وبه تعلم تأكيد طلب وصل الكلمتين المشرفتين في الذكر، وعدم التفريق بينهما اكتفاء بالأولى؛ لما في ذلك من أداء حقه ﷺ، وإظهار فضله وشرفه الذي خصه ربه تعالى به.

وقد لاحظ هذا المعنى جبل السنة ومقتدى الأمة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقال: "من أقسم بالنبي ﷺ؛ ينعقد يمينه وتلزمه الكفارة بالحنث"، قال القاضي أبو بكر بن العربي في "الأحكام" عند قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: 72]، ما نصه: "قال أحمد بن حنبل: من أقسم بالنبي؛ لزمته الكفارة؛ لأنه أقسم بما لا يتم الإيمان إلا به، فلزمته الكفارة كما لو أقسم بالله". اهـ. وأشار بقوله: "لأنه أقسم بما لا يتم الإيمان إلا به"، إلى توجيه قول أحمد، وإنه لما كان أحد ركني الإيمان لا يصح إلا به؛ صح الحلف به، وانعقد كما ينعقد بالركن الآخر. ووجهه بعضهم بأنه: لما كانت طاعته طاعته، وبيعته بيعته؛ صار الحلف به كأنه حلف بالله عز وجل.

وأخذ القرطبي جوازه من الآية المذكورة؛ فقال: "يجوز الحلف بالنبي ﷺ وحياته"، وقال ابن خويزمنداد: "استدل من جوز الحلف به عليه الصلاة والسلام بأن: أيمان المسلمين جرت من عصره ﷺ - خصوصاً من أهل المدينة - على ذلك". اهـ.

لكن المشهور عندنا في المذهب المالكي في الحلف به ﷺ وبكل معظم شرعاً - كالكعبة والعرش وحرمة الصالحين - هو: التحريم، نص على مشهوريته في "الشامل"، وهو نص اللخمي وابن بشير، وقال في "التوضيح": "هو الأظهر من القولين"، ونسبه الزرقاني للأكثر. وقيل: "إن ذلك مكروه فقط"؛ وهو قول ابن رشد، وصرح الفاكهاني بمشهوريته؛ لكن الأول أرجح، انظر الحطاب.

هذا إذا كان الحالف بهذه الأشياء المعظمة صادقاً، وأما إن حلف بها كاذباً؛ فلا شك في التحريم؛ لأنه كذب، والكذب محرم واستهزاء بالمحلوف به المعظم في الشرف، بل ربما كان كفراً والعياذ بالله إن كان في حق النبي ﷺ، ونحوه. قاله الحطاب.

تنبيه: [في أن آية ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قسم به ﷺ]:

ما تقدم من أن الآية قسم من الله تعالى بنبيه ﷺ؛ حكى القاضي عياض

في "الشفا" اتفاق المفسرين عليه، قال: "ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك، قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره". اهـ.

وسبقه إلى ذلك شيخه القاضي أبو بكر بن العربي المعافري في "الأحكام"؛ فقال عند ذكر الآية الكريمة ما نصه: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له". ثم ذكر قول ابن عباس المذكور، ثم قال: "وهذا كلام صحيح، ولا أدري ما الذي أخرجهم من ذكر لوط إلى ذكر محمد؟، وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء؟، فكل ما يعطي الله للوط من فضل ويؤتيه من شرف فلمحمد ضعفاه؛ لأنه أكرم على الله منه. أولا ترى قد أعطى لإبراهيم الخلة، ولموسى التكليم، وأعطي ذلك لمحمد؟، فإذا أقسم الله بحياة لوط؛ فحياة محمد أرفع، ولا يخرج من كلام إلى كلام آخر غيره لم يجر له ذكر لغير ضرورة". اهـ منه بلفظه.

وقال في "المواهب": "اختلف في المخاطَب في الآية على قولين:

"أحدهما: أن الملائكة قالوا للوط لما وعظ قوله: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. أي: يتحيرون، فكيف يعقلون ويلتفتون إلى نصيحتك؟".

"الثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه عز وجل أقسم بحياته". اهـ.

قلت: الأول - وإن حكاه في "الكشاف" وتبعه ابن جزي - فهو مرجوح، كما قال بعضهم بأن خطابات القرآن عند الإطلاق لرسول الله ﷺ، وبه يجاب عن قول ابن العربي، ولا يخرج من كلام إلى كلام آخر لم يجر له ذكر لغير ضرورة، فإن المخاطب بهذه القصة وغيرها من جميع القرآن هو رسول الله ﷺ قطعاً، فإذا وجه بالخطاب أثناء القصص المنزلة عليه؛ فلا يقال: إن ذلك خروج من كلام إلى كلام آخر لغير ضرورة. فتأمله. وأيضاً؛ القول الأول إنما يأتي على إضمار القول، والأصل عدمه.

ويترجح الثاني بروايته عن ابن عباس؛ أخرجه عنه الحافظ أبو نعيم بسنده في كتابه "دلائل النبوة"، وكذا أخرجه أبو يعلى، وابن مردوية، والبيهقي،

وابن عساكر، وأخرجه ابن مردوية - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً. ولعله لم يصح عند ابن العربي، ولذلك حكاه بصيغة التمريض، وإلا؛ فهو نص في محل النزاع؛ لأنه ترجمان القرآن.

ويترجح الثاني أيضاً: بكون جل المفسرين لم يذكروا مقابله ولا عرجوا عليه، ولذا حكى في "الشفا" اتفاقهم، وفي "الأحكام" إجماعهم.

وممن مشى على أنه قسم من الله تعالى بحياته صلى الله عليه وسلم ولم يعرج على خلافه: سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام؛ فإنه قال في رسالته "بداية السول في تفضيل الرسول" عند ذكره لوجوه تفضيله ﷺ ما نصه: "ومنها: أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: 72]، والإقسام بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسِم بها، وإن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها؛ لما كان فيها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره". اهـ، نقله في "جواهر البحار".

وقال في "روح البيان" نقلا عن "التأويلات النجمية": "هذه مرتبة ما نالها أحد من العالمين إلا سيد المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ من الأزل إلى الأبد، وهو أنه تعالى: أقسم بحياته ليعرف الناس عظمته عند الله تعالى ومكانته عنده عز وجل. ثم قال: وكونه قسما به ﷺ هو المشهور، وعليه الجمهور". اهـ.

[ثواب الصلاة على النبي ﷺ أجزل من الذكر المطلق]

الفائدة الثالثة: قال الحافظ السخاوي في "القول البديع": "كما أن الله سبحانه قرن ذكر نبينا ﷺ بذكره في الشهادتين، وفي جعل طاعته طاعته، ومحبته محبته؛ كذلك قرن الثواب على الصلاة عليه بذكره تعالى، فكما أنه قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، وقال: إذا ذكرني عبدي في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منهم. كما ثبت في الصحيح؛ كذلك فعل في حق نبينا سيدنا محمد ﷺ؛ بأن قابل صلاة العبد عليه بأن يصلي سبحانه عليه عشراً، وكذلك إذا سلم عليه يسلم عليه عشراً. فله الحمد والفضل". اهـ.

قلت: بل نرى أنه تعالى رتب من الفضل على الصلاة على نبيه ﷺ ما لم يرتبه على ذكره سبحانه، وذلك أنه تعالى: جعل جزاء ذكر العبد له: ذكره تعالى لعبده مطلقاً، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، الصادق بمطلق الذكر من غير تقييد بعدد الدال على مزيد الفضل والمزيد، وفي الصلاة عليه ﷺ يصلي سبحانه على عبده عشر صلوات في صلاته على نبيه مرةً واحدةً في صيغةٍ واحدةٍ، ومائة في صلاته عليه عشراً، وألفاً في صلاته عليه مائةً...وهكذا، بل روى الإمام أحمد في مسنده أن: من صلى عليه ﷺ مرة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فزاد صلاة الملائكة الذين لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، وضاعفها سبعين، ولا أجل من هذا، ولم يرد مثل ذلك في ذكره تعالى.

بل المصلي عليه ﷺ والذاكر له والمشتغل به؛ ذاكر لله تعالى، فينال بفضل الله ثواب الذكر زيادة على ثواب الصلاة عليه ﷺ، إذ لا تنفك صيغة الصلاة عن اسم الله تعالى، فهو ذاكر ومصلي، بخلاف الذكر مجرداً. فاعرف ذلك واقدر نبيك ﷺ بما آتاه ربه تبارك وتعالى من خصائص التشريف والتكريم هنالك، فالحمد لله على ما أنعم، والشكر له تعالى على ما أولى وفهّم، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

المسلك الثاني

في الاستدلال لذلك من السنة الغراء

فاعلم - هداك الله تعالى - أن الأحاديث بذلك كثيرة منتشرة، منها: ما تضمن الأمر بوصل الذكرين واقترانهما، والنهي عن التفريق بينهما، ومنها: ما تضمن لفظه الوصل بينهما. ولنسق بعض ما تيسر منها، متحصناً بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

الحديث الأول: أخرج الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم عن ابن عباس، وابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت مرفوعاً: "سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، قلت: أيْ رب؛ اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وكلمتَ موسى تكليماً. فقال: يا محمد؛ ألم أجدك يتيماً فآويت، وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك، وحططت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك؛ فلا أذكر إلا ذكرتَ معي، واتخذتك خليلاً؟". وأخرجه بنحوه أبو نعيم - أيضاً - عن أنس، وفيه: "أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله؛ إذ لا أُذْكَر إلا وذكرت معي؟"، وأخرجه ابن عساكر مطولاً من حديث سلمان، وفيه: "وقرنت اسمك مع اسمي؛ فلا أذكر في موضع حتى تذكر معي".

الحديث الثاني: أخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: "أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على بنيه شيت، فقال: أيْ بُني؛ أنت خليفتي من بعدي، فخذها بعمارة التقوى، فكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد ﷺ، فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت السماوات؛ فلم أر في السماوات موضعاً إلا وجدت اسم محمد ﷺ مكتوباً عليه، وإن ربي أسكنني الجنة؛ فلم أر في الجنة قصراً ولا غرفةً إلا وجدت اسم محمد ﷺ مكتوباً عليه، ولقد رأيت اسم محمد ﷺ مكتوباً على نحور الحور

العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة. فأكثِرْ ذكرَه؛ فإن الملائكة من قبل تذكره في كل ساعاتها". اهـ.

[ما روي عن الصحابة والتابعين من الغيب له حكم المرفوع]

قلت: ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي؛ فهو إما عن المصطفى ﷺ بواسطة؛ فهو مرفوع مرسل كما ذكره ابن الصلاح في نظير المسألة، وصرح به البيهقي في "شعب الإيمان"؛ فإنه ذكر حديثاً بسنده عن أبي قلابة ثم قال: "هذا القول عن أبي قلابة، وهو من التابعين، فمثله لا يقول ذلك إلا عن بلاغ عمن فوقه ممن يأتيه الوحي". اهـ.

وقال أيضا؛ بعد أن ذكر بسنده إلى أبي قلابة فضائل لقراءة سورة "يس": "هكذا نقل إلينا عن أبي قلابة، وهو من كبار التابعين، ولا يقول ذلك - إن صح عنه - إلا بلاغاً".

ولما روى الإمام مالك في "الموطأ" عن يحيى بن سعيد أنه قال: "إن المصلي ليصلي وما فاته وقتها، ولما فاته من وقتها أعظم وأفضل من أهله وما له"، قال ابن عبد البر: "هذا له حكم المرفوع؛ إذ يستحيل أن يكون مثله رأياً، ويحيى بن سعيد من كبار التابعين".

ومثل ذلك - أيضاً - ما رواه الإمام مالك في "الموطأ" أيضاً عن سعيد بن المسيب أنه: كان يقول: "من صلى بأرض فلاة؛ صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك، فإن أذن وأقام؛ صلى وراءه من الملائكة كأمثال الجبال". قال بعضهم: "هذا لا يقال بالرأي؛ فهو مرفوع"، وقد استدل به السبكي في "الحلبيات" على حصول فضيلة الجماعة بذلك، وقال الحافظ السخاوي في شرح ألفية العراقي ما نصه: "وقد ألحق ابن العربي بالصحابة في ذلك ما يجئ عن التابعين أيضاً مما لا مجال للاجتهاد فيه، فنص على أنه يكون في حكم المرفوع، وادعى أنه مذهب مالك. قال: ومن هذا أدخل عن سعيد بن المسيب صلاة الملائكة خلف المصلي، قال: والظاهر من مذهب مالك التعميم. أي: لا خصوص ابن المسيب، وبذلك أجيب من اعترض في إدخال

المقطوع والموقوف في علوم الحديث". اهـ.

وبالجملة؛ فالحكم على مثل هذا بالرفع من الأمور التي اجتمع عليها أهل الحديث. وإذا تقرر أن أثر كعب هذا حكمه حكم الحديث المرفوع المرسل، فإن صح إسناده إلى كعب؛ كان حجة عند الأيمة الثلاثة: مالك وأبي حنيفة وأحمد مطلقاً من غير شرط، وعند الشافعي: يحتج به إذا اعتضد بأحد أمور مقررة في محلها من كتب الفن الحديثي؛ منها: مجيء مرسَل آخر يوافقه، والاعتضاد هنا موجود في المرفوع؛ فإن معناه ثابت في غيرما حديث. ويحتمل أن يكون أثر كعب هذا من روايته عن الكتب القديمة؛ لأنه حبْرها، وإليه المرجع في خبرها. وقد كان غير واحد من الصحابة يرجعون إليه في ذلك.

ثم هذا الحديث وإن كان ضعيفاً؛ فله شواهد تعضده وينجبر بها ضعفه، وقد أورده مستدلاً به الحافظ السيوطي في "تزيين الأرائك"، وكفى به حجة، إذ لو لم يصلح للاحتجاج ما أورده. وكذا الإمام القسطلاني في "المواهب" وغيرهما من الأيمة الأعلام.

وحكم بعض الحفاظ عليه بالوضع، فأجاب عنه آخرون بأن الحكم بوضع ألفاظه لا يستلزم عدم ثبوت معانيها في أحاديث أخر، وبحث بعضهم في هذا الجواب بأنه: تجويز عقلي لا يلتفت إليه المحدثون، إذ كلامهم إنما هو في الإسناد الذي هو المرقاة، وثبوت معنى الموضوع ولو في القرآن، فضلاً عن تجويز ثبوته بأحاديث أخرى لا يؤيده، وينفي عنه الوضع. نقله الزرقاني في "شرح المواهب" وسلمه.

قال بعض الأيمة: "وهو ثقيل سماعه؛ إذ كيف يختلج في وهم مميز أن ثبوت معنى الموضوع في القرآن الكريم لا ينقله عن درجة الوضع، وأن له مرجعاً يرجع إليه؟. وإذا كان مذهب الحافظ السيوطي في "اللآلي" وابن الجوزي في "الموضوعات" وغيرهما أن الشواهد تنجع في الموضوع فتفيد أن له متمسكاً؛ فكيف بثبوت معناه في القرآن؟.! فتسليم هذا الرد مما لا ينبغي". اهـ.

قلت: بحث الباحث إنما هو في الإسناد الذي هو المرقاة، مع قطع النظر عن المتن والمعنى، وأما كون معناه له شاهد آخر؛ فذاك أمر آخر، فلم

يتواردا على محل واحد. فتأمله. وثبوت معنى هذا الحديث ثابت في عدة أحاديث.

أما كتابة اسمه ﷺ على ساق العرش وعلى الجنة وما فيها؛ فجاءت به أخبار كثيرة سيأتي بعضها إن شاء الله.

وأما كون الملائكة عليهم السلام يذكرون النبي ﷺ في كل ساعة؛ فمما لا شك فيه، وكفى شاهداً على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: 56]. الآية، فعبر بالمضارع المشعر بالتجدد والاستمرار، وقد عقد معنى ذلك العلامة سيدي حمدون ابن الحاج في ميميته حيث قال:

به تمسكت الأملاك في أفق بطيب ذكر له والحور في خيم
ولم تطب نكهة لها ولا شفة إلا بمزج اسمه في ريقها الشَّبِمِ

وأصل هذا للإمام الساحلي في قصيدة له طويلة يحض فيها على ملازمة ذكر النبي ﷺ، ذكرها في كتابه "بغية السالك في أشرف المسالك"، ونقلها بتمامها صاحب "تحفة الإخوان" حيث يقول فيها:

فجبريل والأملاك في درجاتهم غذاؤهم ذكر الشفيع مسرمدا
وخدام ربى في السماوات كلها يصلون إكراماً على علم الهدى
وجملة رُسْل الله كل بذكره توسل للرحمن في موقف الندا

وفي "شرح عقود الفاتحة": "وكذلك الحور؛ لا ريب في ذكرها، كيف لا واسمه هو قلادة نحرها؟.! ولله در الحلبى إذ يقول:

ليس من حوراء إلا الهجت باسم محمد
ظللت جنة عدن بحروف اسم محمد
ليس يدري الخلق طراً سر حرف من محمد اهـ

وقال الحافظ السيوطي في "تزيين الأرائك": "واستفدنا من حديث كعب هذا فائدة لطيفه؛ وهي: أنه عليه الصلاة والسلام أُرسل إلى الحور العين والولدان، ووضح بذلك أنه لم يدخل الجنة أحد ولم يستقر بها من خلق فيها إلا من آمن بالنبي ﷺ. ولعل من جملة فوائد الإسراء ودخوله الجنة: تبليغه من

في السماوات من الملائكة، ومن في الجنان من الحور والولدان، ومن في البرزخ من الأنبياء رسالته ليؤمنوا به ويصدقوه مشافهةً في زمنه، وإن كانوا مؤمنين به قبل وجوده". اهـ.

وأخرج ابن أبي عاصم في "السنة"، وأبو نعيم عن أنس: أن الله تعالى قال: "يا موسى؛ إنه من لقيني وهو جاهل بمحمد أدخلته النار". فقال موسى: "ومن محمد؟". فقال: "يا موسى؛ وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم علي منه؛ كتبت اسمه مع اسمي على العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض والشمس والقمر بألفي ألف سنة".

وأخرج الأصبهاني عن كعب الأحبار قال: "أوحى الله إلى موسى: يا موسى؛ أتحب أن لا ينالك عطش يوم القيامة؟ قال: نعم. قال: فأكثر الصلاة على محمد ﷺ".

والأحاديث والآثار الدالة على اشتياق الملائكة والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لنبينا ﷺ ولهجهم به، وكثرة ترديدهم لاسمه كثيرة جداً، وآيات القرآن دالة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: 81]. الآية، قال علي وابن عباس: "ما بعث الله تعلى نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في نبينا ﷺ: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على أمته".

وفائدته مع علمه تعالى بأنهم لا يدركون زمانه؛ هو: إعلامهم بعلي رتبته، وشفوف منصبه ومكانته، وأنه لو قدر مجيئه في زمانهم؛ لوجب عليهم نصرته والدخول تحت حكمه وطاعته، إذ هو نبي الكل ورسول الجميع.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده وغيره عن جابر مرفوعاً: "والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"، أنظر "فتح الباري" في آخر كتاب التوحيد، فقد أطال في تخريج طرق هذا الحديث. وقال تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [البقرة: 129]. الآية، وقال تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، فإذا كان الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون يلهجون

به ﷺ، ويرددون اسمه، ويصلون عليه، ويشتاقون إليه، بل تمنوا أن يكونوا من أمته؛ فكيف بغيرهم؟!!!

الحديث الثالث: أخرج عبد بن حميد والبزار في مسنديهما، وعبد الرزاق في جامعه، والأصبهاني، وابن أبي عاصم، والطبراني، والبيهقي في "الشعب"، والضياء، وأبو نعيم في "الحلية"، والديلمي، وأبو يعلى. . .وغيرهم عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: "لا تجعلوني كقدح الراكب". قيل: "وما قدح الراكب؟". قال: "إن المسافر إذا فرغ من حاجته صب في قدحه ماء، فإن كان له إليه حاجةً توضأ منه، أو شربه، وإلا؛ أهرقه، اجعلوني في أول الدعاء، وأوسطه، وآخره"، وهو حديث ضعيف غريب، وله شواهد يتقوى بها.

قال الهروي وابن الأثير: "أراد: لا تؤخروني في الذكر؛ لأن الراكب يعلق قدحه في آخر الرحل ويجعله خلفه، كما قال حسّان رضي الله عنه: كما نيط خلف الراكب القدح الفردُ". اهـ. والقَدَح (بفتح القاف والدال وبالحاء المهملتين): إناء يجعل فيه الماء للوضوء والشراب.

قال الإمام العارف أبو الحسن البكري المصري المتوفى سنة 952، والد سيدي محمد البكري المشهور، في كتابه "عقد الجواهر البهية في الصلاة على خير البرية": عند ذكره للمواضع التي قيل بوجوب الصلاة على النبي ﷺ فيها ما نصه: "الخامس: في أول كل دعاء وآخره، واستدل له بحديث رواه الطبراني؛ وهو قوله ﷺ: لا تجعلوني كقدَح الراكب، اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره. رواه جابر، والقَدَح: بفتح القاف والدال المهملة، وبالحاء المهملة في آخره، ومعنى الحديث: لا تؤخروني في الذكر؛ لأن الراكب يعلق قدحه في آخره بعد فراغه من التعبية، وعلى ذا قول حسان:

وأنت زنيمٌ نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدحُ الفردُ"

ثم بحث مع صاحب هذا القول بأن: "مقتضى استدلاله بهذا الحديث: أن يقول بوجوب الصلاة عليه ﷺ في أول الدعاء وآخره، وفي أوسطه أيضاً؛ لأن الحديث فيه الثلاثة، ولأن المقصود منها: التعظيم وزيادته، ولا شك أنها في

الثلاثة أبلغ وأعظم من ذكره ﷺ في محلين". اهـ.

وفي كتاب "المنهج الحنيف في معنى اسمه تعلى اللطيف" ما نصه: "وأما الصلاة على النبي ﷺ؛ فإن من العلماء من قال بوجوبها في أول كل دعاء ووسطه وآخره، واستدل بحديث رواه الطبراني، وهو قوله ﷺ: لا تجعلوني كقدح الراكب، اجعلوني في أول الدعاء ووسطه وآخره. رواه جابر. والقدح (بفتح القاف والدال المهملة): هو آلة الماء، ويسمى بالقلص أيضاً، وهو المتخذ من الجلد، يضعه المسافر في آخر حمل راحلته". اهـ منه بلفظه.

فإن قلت: النهي عن تأخيره ﷺ والأمر بجعله أولاً ووسطاً وآخرا وارد في الدعاء كما هو صريح الحديث، لا في الذكر.

قلت: أما أولاً؛ فإن الذكر دعاء؛ لما فيه من التعريض بالسؤال. قال الشاعر:

إذا أثنى المرء يوماً كفاك من تعرضه الثناء

وفي الحديث القدسي: "من شغله ذكري عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". فكل ذاكر داع، كما أن كل داع ذاكر. وحينئذٍ؛ فقوله: "اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره"، في قوة قوله: "اجعلوني في أول الذكر وأوسطه وآخره". من باب لا فرق، ولأن المقصود من ذلك: زيادة التعظيم كما مر عن البكري، وهو في الثلاثة أبلغ وأعظم منه في الأخير فقط.

وأما ثانياً: فقد قدمنا عن الهروي وابن الأثير وغيرهما أن معنى: "لا تجعلوني كقدح الراكب": لا تؤخروني في الذكر. فقولهما: لا تؤخروني في الذكر؛ يحتمل أن يكون معناه: لا تؤخروني في مجلس الذكر، بل ينبغي أن يكون الذكر ممزوجاً بي من أوله إلى آخره، فيكون هذا منهما إشارة إلى أن: المراد بالدعاء في الحديث: الذكر، كما مر، ويحتمل أن يكون معناه: لا تجعلوني في آخر الدعاء. على ظاهره، وأياً كان؛ ففيه الحجة.

وعليه؛ فما تمالأ عليه غالب الناس اليوم من استغراقهم الوقت بالذكر مجرداً بالهيللة مثلاً، سيما مع إنشادهم لكلام بعض أهل الأحوال المشتمل على الحقائق الطامة، وعدم تعريجهم على ذكر النبي ﷺ إما بمدحه أو

بالإقرار برسالته مع الهيللة، أو نحو ذلك، حتى إذا فرغوا من ذكرهم وإنشادهم، وأرادوا الختم والسكوت، ختموا بقولهم: محمد رسول الله. ويكون ذكرها عندهم علامةً على ختم الذكر وسكوتهم، فصيروها آلةً لغرضهم؛ منافٍ للأدب المدلول عليه بهذا الحديث، وهو: امتزاج الذكر به من الابتداء إلى الانتهاء، ثم زاد على ذلك بعضهم بما يؤدي به إلى أمر عظيم، جهلاً أو عناداً، وهو: أنه إذا جمعه المجلس مع من يقرن الكلمتين المشرفتين؛ فإنه يستثقل ذلك منه ويستبشعه، حتى كأنه أتى بمنكر من القول، وهذا مروق من الدين والعياذ بالله، ولو سلمت منا الصدور؛ لا تبعنا أولانا بالصواب، وإلى الله المرجع والمآب.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال: حسن، والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه ولم يصلوا على نبيه ﷺ، إلا كان عليهم من الله تِرَة يوم القيامة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم"، والتِّرة: التبعة والحسرة، وقال ابن الأثير: "الترة: النقص".

قال الإمام الأردبيلي في "شرح مشكاة المصابيح": "فيه: أن الذكر ينبغي أن يكون مقروناً بالصلاة على النبي ﷺ، ولا ينفك عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ بأن تذكر معي حيث ذكرت". اهـ.

قلت: وقد ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة؛ فرواه الحاكم موقوفاً بلفظ: "ما جلس قوم مجلساً ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على نبيه؛ إلا كان عليهم حسرةً يوم القيامة"، ورواه قريباً من لفظ الحاكم: الطبراني عن أبي أمامة.

ورواه الدِّينَوَري وغيره بسندٍ صحيح كما قاله الحافظ السخاوي، عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: "لا يجلس قوم مجلساً لا يصلّون فيه على رسول الله ﷺ؛ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة؛ لما يرون من الثواب".

ورواه الطيالسي وغيره، ورجاله رجال الصحيح على شرط مسلم، عن جابر مرفوعا: "ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله عز وجل، وصلاة

على النبي ﷺ؛ إلا قاموا على أنتن جيفة".

الحديث الخامس: أخرج أبو داود، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم، والبيهقي في سننه، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: سمع رسولُ لله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، فلم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "عَجِل هذا"، ثم دعاه فقال: "إذا صلى أحدكم؛ فليبدأ بحمد الله سبحانه والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ، ثم ليدْعُ بما شاء".

ورواه الترمذي - أيضاً - وقال: "حسن صحيح"، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر، فلما جلست؛ بدأت بالثناء على الله، ثم بالصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوت لنفسي. فقال النبي ﷺ: سل تعطه، سل تعطه".

ورواه ابن بشكوال عن عبد الله بن بسر مرفوعاً: "الدعاء كله محجوب حتى يكون في أوله ثناء على الله عز وجل وصلاة على النبي ﷺ، ثم يدعو، فيستجابُ لدعائه".

ورواه البيهقي وغيره عن علي بن أبي طالب مرفوعاً: "ما من دعاء إلا وبينه وبين السماء حجاب حتى يصلى على محمد وعلى آل محمد، فإذا فعل ذلك؛ انخرق الحجاب، ودخل الدعاء. وإذا لم يفعل؛ رجع الدعاء".

ورواه عبد الرزاق والطبراني وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن ابن مسعود موقوفاً: "إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً؛ فليبدأ بحمده والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل؛ فإنه أجدر أن ينجح".

ورواه الطبراني في "الأوسط"، وأبو الشيخ في "الثواب"، والبيهقي في "الشعب" عن علي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح كما قاله الحافظ المنذري، ولفظه: "الدعاء محجوب عن الله تعالى حتى تصلي على محمد وأهل بيته".

ورواه الترمذي وغيره عن عمر بن الخطاب موقوفا: "إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلي على نبيك صلى الله عليه وسلم".

قال الحافظ أبو الفضل العراقي في "شرح الترمذي" : "ما رواه المصنف عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن: الدعاء موقوف. . .إلخ، هو وإن كان موقوفا عليه، فمثله لا يقال من قبل الرأي، وإنما هو أمر توقيفي، فحكمه حكم المرفوع كما صرح به جماعة من الأيمة وأهل الحديث والأصول؛ فمن الأيمة: الشافعي؛ نص عليه في بعض كتبه كما نقل عنه. ومن أهل الحديث: أبو عمر ابن عبد البر في كتاب "التقصي والمهيد"، وكذلك الحاكم أبو عبد الله في كتابه "علوم الحديث". ومن الأصوليين: الإمام فخر الدين الرازي في كتابه "المحصول". وقال القاضي أبو بكر ابن العربي عقب ذكره لقول عمر: ومثل هذا إذا قاله عمر لا يكون إلا توقيفا؛ لأنه لا يدرك إلا بنظر". اهـ.

وكذا يقال في حديث علي وابن مسعود المذكورين قبله، وغيرهما من كل موقوف، ولا سيما إذا ورد مرفوعا عن صحابي آخر كما هنا.

قال الشيخ الإمام العارف أبو زيد الفاسي في حاشيته على "دلائل الخيرات" : "سر ذلك - والله أعلم - ملاحظة وساطته ﷺ، وكونه الباب والوسيلة، هذا مع المحافظة على ذكره ﷺ مع الله عز وجل تخلقا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وأن لا يغفل عن ذكره مع ذكر ربه عز وجل. فافهم. والله أعلم". اهـ.

نقله في "مطالع المسرات" وقال بعده ما نصه: "وقال ابن شافع: إذا طلبت من الله شيئا؛ فصل على محمد ﷺ في أول دعائك وآخره، فيكون مثالك كمن دخل بتجارته على الباب بين أميرين يحرسانه؛ فهل يتعرض به أحد؟، بل ينبسط جاههما عليه". اهـ.

وقال شيخ الإسلام سيدي العربي الفاسي في شرح "الدليل" : "وللإتيان بالصلاة على النبي ﷺ في الدعاء سر واضح؛ فإنه ﷺ الواسطة في كل خير، ولم يصل لنا خير إلا من بابه، ومن رزق من باب فليلتزمه". اهـ. نقله في "شرح التثبيت".

وقال النووي: "أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله تعالى والثناء عليه، ثم الصلاة على رسوله ﷺ، وكذلك يختم الدعاء بهما".

اهـ، نقله في "مطالع المسرات"، وكذا في شرح "التثبيت".

وقال النووي - أيضا - في "التبيان في آداب القرآن"، عند ذكره لآداب دعاء الختم ما نصه: "ويفتتح دعاءه بقوله: الحمد لله حمدا يوافي نعمه، ويكافي مزيده، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد". اهـ منه بلفظه. والنصوص بذلك كثيرة.

فائدة: [الكلام على حديث: كل كلام لا يذكر الله تعالى فيه..]

أخرج الديلمي في "مسند الفردوس" وغيره عن أبي هريرة مرفوعا: "كل كلام لا يذكر الله تعالى فيه، فيبدأ به وبالصلاة علي، فهو أقطع ممحوق من كل بركة". وهذا الحديث أخرجه الخليلي قي "الإرشاد"، والرهاوي في "الأربعين" له من طريقه، وأبو موسى المديني، وابن منده.

وذكره الحافظ السيوطي في الجامعين بلفظ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علي؛ فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة".

قال الحافظ السخاوي في "القول البديع": "وسنده ضعيف". اهـ. وتبعه الحطاب في "شرح المختصر" فنقل كلام السخاوي ثم قال: "قلت: وإن كان ضعيفا؛ فقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال". اهـ. وتبعه على ذلك أيضا الشهاب الخفاجي في "شرح الشفا"، وابن حجر الهيتمي في "شرح الأربعين النووية".

قلت: وفيه أمران؛ أحدهما: إطلاقهم القول بضعفه يقتضي أنه من الضعيف الذي يعمل به في الفضائل؛ لكونه لم يشتد ضعفه. وليس كذلك؛ بل هو حديث واه أو موضوع، قال المدابغي في حاشيته على ابن حجر لـ: "الأربعين" عند قوله: "إنه ضعيف يعمل به في الفضائل"، ما نصه: "إطلاقه العمل به فيها ممنوع، بل شرطه: أن لا يشتد ضعفه، وهذا الحديث في إسناده: إسماعيل بن أبي زياد، وقد نقل الحافظ ابن حجر - كالذهبي والدارقطني - أنه: متروك يضع الحديث". اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في "الجامع الكبير" بعد تخريجه ما نصه: "وقال الرهاوي: غريب؛ تفرد بذكر الصلاة فيه: إسماعيل بن أبي زياد الشامي، وهو ضعيف جداً، لا يعتد بروايته ولا بزيادته". اهـ. ونقل كلام الرهاوي - أيضاً - العلقمي في "الكوكب المنير في شرح الجامع الصغير".

وقال القسطلاني: "في إسناده ضعفاء ومجاهيل"، وقال التاج السبكي في "الطبقات": "حديثه غير ثابت"، ونحوه في "التقريب"، و"الكاشف"، و"اللآلي الكبرى"، وذيلها، و"الميزان"، و"اللسان"...وغيرها من كتب هذا الفن المعتمدة.

قال الحافظ أبو العلاء الشريف العراقي في "شرح الشمائل" بعد حكايته قول ابن حبان في إسماعيل المذكور: "إنه دجال"، وقول الدارقطني: "يضع الحديث"، ما نصه: "وحينئذ؛ فحديثه موضوع أو ضعيف جداً حسبما هو معلوم من كتب المصطلح، خلافاً لما عند من لم يحرر ويفهم من كلامه، أنه: ضعيف فقط، وأنه يعمل به في فضائل الأعمال، إذ هذا - عند من يقول به - مشروط بالشروط المقررة عند أرباب الفن، والعجب؛ هو بنفسه نقلها وسلمها وغفل عنها هنا.! والكمال لله سبحانه. وأعني به: الحطاب رحمه الله". اهـ.

واعتذر بعض شيوخنا عن الحطاب بأنه: اعتمد على كلام السخاوي في "القول البديع"؛ وهو إمام من أيمة الفن يجوز الاعتماد على مثله، والدرك إنما هو على السخاوي في إطلاقه القول بضعفه، بل كلامه في أول "شرح ألفية العراقي" صريح في أنه من الضعيف الذي يُعمل به في الفضائل، وسبحان من انفرد بالكمال.

[متى يعمل بالحديث الضعيف؟]

الأمر الثاني: قول الحطاب: "اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال"؛ نحوه للنووي في خطبة "الأربعين" وغيرها من كتبه، حتى قال الشهاب الرملي في فتاويه: "حكى النووي في عدة من تصانيفه إجماع أهل الحديث على العمل بالحديث الضعيف في الفضائل ونحوها خاصة". اهـ.

وبحث في ذلك جماعة؛ منهم: الحافظ السخاوي في خاتمة كتابه "القول البديع" بأن الشيخ الإمام القاضي أبا بكر بن العربي المعافري المالكي يقول بعدم جواز العمل بالضعيف مطلقاً، أي: لا في الفضائل ولا في غيرها. وفي كلام ابن دقيق العيد ميل إليه.

ومقابله: يعمل به مطلقاً إذا لم يكن في الباب غيره، وهو قول أبي داود وأحمد.

والثالث: يعمل به في الفضائل خاصة، دون الأحكام؛ كالحلال والحرام وصفات الله تعالى، وهو قول الجمهور ما لم يشتد ضعفه، وإلا؛ فهو ملحق بالموضوع، فلا يعمل به مطلقاً اتفاقاً، كما قاله الحافظ ابن حجر ونقله عنه تلميذه السخاوي في "القول البديع"، ومثله للحافظ السيوطي في "شرح التقريب" . . .وغيرهم.

فهذان شرطان للعمل بالحديث الضعيف:

1 - الأول: أن يعمل به في الفضائل والمواعظ، والترغيب والترهيب، ونحوها، لا في العقائد وأحكام الحلال والحرام.

2 - الثاني: أن لا يشتد ضعفه.

وبقيت شروط أخرى؛ وهي:

3 - أن يكون مندرجاً تحت أصل عام يشمله وغيره؛ كاندراج الذكر المخصوص تحت قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 41].

4 - وأن لا يكون هناك ما يمنع منه مما هو أقوى وأخص من ذلك العام الذي اندرج تحته.

5 - وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوت الحديث وسنية الفعل، بل يعتقد ضعفه، ويفعل احتياطاً.

6 - وأن لا يحدث العمل به شعاراً في الدين؛ إما بإشهار العمل به وإظهاره في المحافل كالمساجد، وإما باستدامة العمل به والمواظبة عليه حتى كأنه أمر ثابت، وإما بتمالي الناس عليه؛ فإن كل واحد من هذه يؤدي إلى إحداث

شعار في الدين، وهو ممنوع إلا بدليل ثابت.

والشروط الثلاثة الأولى: نص عليها الحافظ ابن حجر وغيره، كالسادس. والرابع: ذكره الشيخ زروق، وأشار إليه في "الأجوبة الناصرية". والخامس: ذكره ابن عبد السلام وابن دقيق العيد.

قال بعضهم: "ويظهر من هذا أنه: يلزم بيان ضعف الضعيف الوارد في الفضائل ونحوها، كي لا يعتقد ثبوته في نفس الأمر، مع أنه ربما كان غير ثابت في نفس الأمر. ومن نظر في الأحاديث الضعيفة نظر إمعان وتدبر؛ تبين له أنها - إلا القليل منها - يغلب على الظن أنها غير ثابتة في نفس الأمر". اهـ.

وعليه؛ فشروط العمل بالحديث الضعيف سبعة، وإنما بسطت الكلام في هذا الموضوع لبيان ما عليه جل طلبة العصر من تساهلهم في رواية الأحاديث الموضوعة فضلاً عن الضعيفة، وعدم تحريهم في ذلك، وخصوصاً في خطبة الجمعة، مع أنه قد قيل: إن الصلاة تبطل بذلك. ولا شك أن تعمد ذلك فسق قادح في الإمامة، وهذا من الفساد الذي عم في الأرض.

كيف يجسر مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينادي على رؤوس الأشهاد فوق المنابر بكلام يكذب به على النبي ﷺ، وقد قال في الحديث المتواتر: "من كذب علي متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار"، وقال أيضاً: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب؛ فهو أحد الكذابيْن"؟.!! مع أن في الأحاديث الصحيحة والحسان غُنية عن رواية الضعيف، فضلاً عن الموضوع.

[يشترط بيان حال الضعيف قبل روايته]

وقد شدد النكير مسلم - رحمه الله تعالى - في مقدمة صحيحه على من يروي الأحاديث الضعيفة من غير بيان لضعفها، حيث قال بعد كلام: "فإذا كان الراوي ليس بمعونٍ للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته؛ كان آثماً بفعله ذلك، غاشاً لعوام المسلمين، إذ لا يؤمَن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحيحة من رواية الثقات أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة، ولا

أحسب كثيراً ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف، والأسانيد المجهولة، ويعتد بروايتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف، إلا أن الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها: إرادة التكثر بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث.! ومن ذهب في العلم هذا المذهب، وسلك هذا الطريق؛ لا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلاً أولى من أن ينسَب إلى علم". اهـ.

قال بعض الحفاظ: "ومن نظر في الكتب المؤلفة في تخريج الأحاديث المذكورة في كثير من كتب الكلام أو الفقه أو الأصول أو التفسير؛ رأى من كثرة الأحاديث الضعيفة الواهية التي يوردونها للاحتجاج أمراً هائلاً، وقد حكم أهل البصيرة من العلماء الأعلام بأن هؤلاء الذين يوردونها للاستشهاد بها لا يُعْذَرون، إلا من لم يقصر منهم في البحث والاجتهاد؛ فإنه إذا أخطأ بعد ذلك لم يكن ملوماً، وقد تعرض كثيرٌ من العلماء الذين وقفوا على الضرر الذي نشأ من نشر الأحاديث الضعيفة في الأمة من غير إشارة إلى ضعفها لبيان ذلك". اهـ. والكلام هنا طويل.

وبالجملة؛ فالأيمة لا يروون عن الضعفاء شيئاً يحتجون به على انفراده في الأحكام، فإن هذا لا يفعله إمام من أيمة المحدثين، ولا محقق من غيرهم من العلماء، وإن تساهل في ذلك بعض الفقهاء فهو منقوض بما تقدم عن أيمة الفن، وذلك لأنه: إن كان يعرف ضعفه؛ لم يحل له أن يحتج به في الأحكام مطلقاً، ولا في الفضائل إلا بالشروط المقررة، وإن كان لا يعرف ضعفه؛ لم يحل له أن يهجم على الاحتجاج به من غير بحث عليه، بالتفتيش عنه إن كان عارفاً، أو بسؤال أهل الفن إن لم يكن عارفاً.

[يروى الحديث الضعيف بصيغة التمريض]

وقد نص أيمة هذا الفن على أن: من أراد نقل الحديث الضعيف بغير إسناد؛ فلا يقل فيه: قال رسول الله كذا، أو فعل كذا. لإشعار ذلك بالجزم، بل يقول: روي عنه أنه قال: كذا، وفعل كذا. وما أشبه ذلك من الصيغ التي لا تشعر بالجزم، وخلاف ذلك منكَر عند القوم، يستحق صاحبه اللوم.

قال النووي في مقدمة شرح صحيح البخاري: "قال العلماء المحققون من المحدثين وغيرهم: إذا كان الحديث ضعيفاً؛ لا يقال فيه: قال رسول الله ﷺ، أو فعل، أو أمر، أو نهى، أو حكم. . .وشبه ذلك من صيغ الجزم، وإنما يقال بصيغة التمريض، وإلا؛ فيكون في معنى الكاذب عليه، وهذا التفصيل مما تركه كثير من الناس من المصنفين في الفقه والحديث وغيرهما، وقد اشتد إنكار الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي على من خالف هذا من العلماء، وهذا التساهل من فاعله قبيح جداً، فإنهم يقولون في الصحيح بصيغة التمريض، وفي الضعيف بالجزم. وهذا خروج عن الصواب، وقلب للمعاني". اهـ.

وقد اتسع بنا القول في هذا الميدان حرصاً على عموم الفائدة، مما انجر الكلام إليه عند التنبيه على مرتبة حديث الترجمة؛ لشهرته في كثير من المصنفات، ويوجهون به ابتداءهم بالحمدلة والصلاة عليه ﷺ، اغتراراً بكلام من أطلق القول بضعفه، مع أنه لا يصح الاحتجاج به، وأما حديث الحمدلة؛ فهو ثابت حسن أو صحيح.

وعليه؛ فالذي ينبغي أن يوجَّه به عملهم المذكور، هو: غيره من الأحاديث المقتضية لذلك، والدالة على طلب اقتران ذكره ﷺ بذكره تعالى عموماً، وقد ذكرنا منها في هذا المجموع ما فيه كفاية، بل تقدم لنا أخذ هذا العمل نفسه من القرآن من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: 59]، مع ما نص عليه غير واحد من الأيمة من طلب ذلك بين يدي كل أمر مهم.

قال الحطاب في "شرح المختصر" بعدما نقل عن الفاكهاني في أول "شرح الرسالة" أن العلماء استحبوا البداءة بالحمد لكل مصنف ومدرس وخطيب، وبين يدي سائر الأمور المهمة، ما نصه: "قال الفاكهاني: قلت: وكذلك الثناء على الله والصلاة على رسوله ﷺ". اهـ. وتقدم قول النووي: "أجمع العلماء على استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ". اهـ. والنصوص بذلك كثيرة.

الحديث السادس: أخرج أبو الشيخ في "طبقات الأصفهانيين"، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: آمن بمحمد، وأمر أمتك أن يؤمنوا به؛ فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن". وردّ الحافظ الذهبي تصحيح الحاكم له بأن: في سنده عمرو بن أوس؛ لا يدرى من هو؟، لكن أقره السبكي في "شفاء السقام"، والبلقيني في فتاويه وغيرهما.

وقال ابن حجر في "شرح الهمزية": "صح عن ابن عباس، وله حكم المرفوع كما قرره أيمة الأصول والحديث والفقه، فهو وحده كافٍ في الحجية، فكيف بضم غيره إليه؟". اهـ. وتقدم نحوه للحافظ أبي الفضل العراقي في "شرح الترمذي"، وأنه نص عليه الشافعي والحافظ أبو عمر ابن عبد البر والحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه "علوم الحديث"، والإمام فخر الدين الرازي...وغيرهم، وأشار ابن حجر بقوله: "فكيف بضم غيره إليه؟"، إلى أنه: ورد بمعناه أحاديث، وسيأتي بعضها في هذا المجموع إن شاء الله.

وبذلك ينجبر ما ذكره الذهبي من جهل أحد رواته، فيعمل به في الفضائل، سيما وقد تلقته الأيمة بالقبول، واشتهر في كثير من الدواوين. وقد تقرر في الفن الحديثي أن الحديث: إذا تلقته الأيمة بالقبول واشتهر؛ فإن ذلك يكسبه قوة.

قال العلماء رضي الله عنهم: "اضطراب العرش إنما هو من هيبة الله تعالى، فلو كتب عليه: لا إله إلا الله وحدها؛ لزاد خوفه واضطرابه من هيبة اسم الله جل جلاله، فسكونه من الأمان الذي حصل له من كتابة: محمد رسول الله عليه".

قلت: وهذا هو الذي يدل له صدر الحديث، وذلك من أثَرات رحمته ﷺ. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107]، وقد قال في "المواهب اللدنية" نقلاً عن بعض أهل الإشارات، وأصله للإمام الحاتمي رضي الله عنه: "ولما انتهى إلى العرش؛ تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان

حاله: يا محمد؛ أنت في صفاء وقتك، آمناً من مقتك، أشهَدَكَ جمال أحديته، وأطلعك على جلال صمديته، وأنا الظمآن إليه، اللهفان عليه، المتحير فيه، لا أدري من أي وجه آتيه؟، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشدهم منه خوفاً، فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي: لا إله إلا الله؛ فازددت لهيبة اسمه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب: محمد رسول الله؛ فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، وكان اسمك لقاحاً لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي؟". اهـ. ونقله جماعة من الأيمة، منهم: سيدي حمدون ابن الحاج في "شرح عقود الفاتحة"، والشيخ عليش في "شرح إضاءة الدجنة"، وغيرهما. وفي همزية العلامة ابن زكري رحمه الله:

كان للعرش قبل رسم اسـ ـمكم فيه ارتعاد كأنه العرواء
من جلال وحين أن حل فيه غشيته سكينة وسناء

وفي "نظم عقود الفاتحة" للشيخ سيدي حمدون ابن الحاج رحمه الله:

بالرسم منه استقر العرش مبتهجاً وسدرة المنتهى اخضرت فلم تسم

قال بعض الأئمة: "وإذا كان هذا مفهوماً من حال العرش، ودلالة الحال أقطع من دلالة المقال، وكان العرش الذي السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، مرحوماً باسمه ومتبركاً بكتابته عليه، وموقوناً بالنسبة إليه برسمه فيه، وفهمت هذا؛ ظهر لك رفعة ذكره ﷺ وعلو شأنه". اهـ.

وقال جدنا العلامة الهمام الأديب، الآتي من سحر البلاغة بكل عجيب، والمخصوص من العناية الربانية بأوفر نصيب؛ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي في مقاماته التي عارض بها مقامات الحريري، وجعلها في الكمالات المحمدية، أثناء كلام يخاطب به العرش، ما نصه: "وأمن به - أي: بالنبي ﷺ - روعتك، وسد به خُلّتك، سكّن روعتك بكتابة اسمه عليك، وسد خلتك مما نسب إليك، فلولا محمد ﷺ - إيه العرش - ما أمنْتَ من العقوبة والبطش، أنت بالجِرم شريف وعظيم، ومولانا محمد ﷺ

بالروح والجسم حبيب وكريم، أما خُلقت من دُرّته، أما ازدهيت من نور غَرّته؟، فإنك جزء من أجزائه، ومقدار ذرة من بهائه. فالحبيب مظفر بالجود والكرم، لولاه كنت أنت والخلائق في عدم. ثم أنشد:

يا أيها الهادي الحبيـ ـب المصطفى والمعتبر
أنت الحبيب قبلت من وافى لبابك واعتذر
أنا عرش ربي إنني بجمالك الزاهي أسَر
كتب اسمك الأسمى على ساقي ونورك في انتشر
جازلت روعي بالبها من وجهك الزاهي الأغر
لولاك ما نلت العل وسبحتُ في بحر الفخر
ا أنا شاكر لك نعمة فزد المزيد لمن شكر
لك في الوصال مراتب ما نال أدناها البشر

اهـ المقصود منه.

وذكر الإمام النيسابوري أن في الاسم الشريف "محمد" عشر خصائص: "إضافة الله تعالى اسمه إلى اسم نفسه، وخلق خلقه على صورة اسمه، وقرن اسمه مع اسمه، وكتب اسمه على ساق العرش فسكن هيجانه، واشتقاق اسمه من اسمه المحمود، ووافق اسمه اسم الله تعالى في عدد الحروف، ووافقت كلمة: لا إله إلا الله كلمة: محمد رسول الله في عدد الحروف أيضاً، وتاب الله على آدم وكني بأبي محمد لما رآى اسمه مكتوباً على أركان العرش وأبواب الجنان وجباه الملائكة وصدور الحور العين، وقال: اللهم بحق محمد تب علي. . .ثم قال: وهذا مما يدلك على أن الله تعالى رفع ذكره في الأكوان، وذلك شاهد على رفع ذكره في الأعيان لأهل الإيمان". اهـ.

ونحوه للإمام الأقفهسي في كتابه "كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار"، حيث قال: "إن لاسمه الشريف ﷺ عشر خصائص. . .فذكرها، إلى أن قال: والرابع: كتب اسمه ﷺ على ساق العرش، ويروى أن الله تعالى لما خلق العرش اضطرب، فلما كتب عليه اسم محمد ﷺ سكن. وفيه تنبيه

على أنه ﷺ هو المخلوق الأكبر". اهـ.

[أحاديث تنص على كتابة اسمه ﷺ مع اسمه تعالى على ساق العرش وفي الجنان]

قلت: وقد وردت أحاديث كثيرة بكتابة اسمه ﷺ مع اسمه تعالى على العرش؛ فهي مؤيدة لحديث الترجمة كما ذكرنا: أخرج أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة مرفوعا: "لما عُرج بي إلى السماء؛ ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي فيها مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله". وأخرجه البزار من حديث ابن عمر، وفيه الاقتصار على الكلمة الثانية المشرّفة، وأسانيده ضعيفة، لكن قال الحافظ السيوطي: "إنه حسن؛ لكثرة طرقه". وقد أبعد النجعة صاحب "المواهب" فنسبه لجزء الحسن بن عرفه مقتصراً على ذلك.

وأخرج الدارقطني في "الأفراد"، والخطيب وابن عساكر عن أبي الدرْداء مرفوعاً: "رأيت ليلة أسري بي في العرش جريدة خضراء، فيها مكتوب بنور أبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق".

وأخرج ابن عساكر عن جابر مرفوعاً: "مكتوب على باب الجنة: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وأخرج أبو نعيم في "الحلية" عن ابن عباس مرفوعاً: "ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا عليها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وأخرج الطبراني وابن مردوية عن أبي الحمراء مرفوعاً: "لما أسري بي إلى السماء السابعة، فإذا على ساق العرش: الإيمان: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أنس مرفوعاً: "لما عرج بي؛ رأيت على ساق العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أيدته بعلي".

وأخرج ابن عساكر عن علي مرفوعاً: "ليلة أسري بي؛ رأيت على العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين".

وأخرج الحاكم في "المستدرك" وصححه، والبيهقي في "دلائل النبوة"،

والطبراني في "الصغير"، وأبو نعيم وابن عساكر...وغيرهم عن عمر بن الخطاب مرفوعا: "لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب؛ أسألك بحق محمد لما غفرت لي.! قال: وكيف عرفت محمدا؟. قال: لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت فيَّ من روحك؛ رفعتُ رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى له: صدقت يا آدم؛ إنه لأحب الخلق إليَّ، وإذ سألتني بحقه؛ غفرت لك، ولولاه ما خلقتك". قال في "الشفا": "وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37] الآية".

وأخرج الرافعي في "تاريخ قزوين"، وابن النجار في "تاريخ بغداد" بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً: "دخلت الجنة، فرأيت في عارضتيْ الجنة مكتوبا ثلاثة سطر بالذهب، السطر الأول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والسطر الثاني: ما قدمنا وجدنا، وما أكلنا ربحنا، وما خلفنا خسرنا. والسطر الثالث: أمة مذنبة ورب غفور".

وأخرج البزار وغيره عن أبي ذر مرفوعاً: "إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه: لوح من ذهب مُصْمَت، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم؛ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يَنْصَب، عجبت ممن ذكر النار ثم يضحك، عجبت ممن ذكر الموت ثم يغفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله". وورد مثله عن عمر وعلي رضي الله عنهما؛ أخرجه البيهقي عن ابن عباس، وأخرجه الخرائطي.

وأخرج الطبراني عن عبادة ابن الصامت مرفوعاً: "كان فص خاتم سليمان بن داود سماوياً، ألقي إليه، فوضعه في خاتمه، وكان نقشه: أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي". زاد في رواية: "وكان به انتظام ملكه".

وأخرج ابن عساكر من طريق أبي الزبير عن جابر قال: "بين كتفي آدم مكتوب: محمد رسول الله خاتم النبيين". والآثار في ذلك كثيرة، وسيأتي لذلك تتمة آخر هذا الفصل إن شاء الله.

فهذه أحاديث مقوية لحديث الترجمة، ولحديث كعب الذي هو ثاني أحاديث الباب، وكلها دالة على طلب اقتران ذكره ﷺ بذكر ربه تعالى، منها

ما يدل على ذلك بالصراحة، ومنها ما يدل عليه بطريق الالتزام.

وهناك أحاديث أخرى تضمنت اقتران الكلمتين المشرفتين والحض عليهما، وبيان موقعهما من الدين، وأنهما ركنا الإسلام وأساسا الإيمان، وبهما تعصم الدماء والأموال، وبهما ينجو المؤمن من المحن والأهوال، وأن الأولى منهما لا تستقل وحدها بتحصيل ذلك، بل لا بد من الجمع بينهما، وفي ذلك بيان لعظيم مزيتهما، وجليل رتبتهما، ورفعة قدرهما، وأنافة مجدهما وفخرهما. ولنسق بعض تلك الأحاديث متمما بها ما سبق، فنقول:

الحديث السابع: أخرج الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت". فجعل الكلمتين المشرفتين جزءاً واحداً من الخمس؛ إشارة إلى امتزاجهما وارتباطهما، وعدم افتراقهما، حتى صارا كالكلمة الواحدة.

الحديث الثامن: أخرج الشيخان - أيضاً - عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: "الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..". الحديث.

الحديث التاسع: أخرج مسلم في صحيحه عن عُبادة بن الصامت مرفوعاً: "من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ حرم الله عليه النار".

الحديث العاشر: أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أنه ﷺ قال لوفد عبد القيس: "آمركم بالإيمان بالله وحده. ثم قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله". الحديث.

الحديث الحادي عشر: أخرج الأيمة الستة عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة مرفوعاً: "أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله".

الحديث الثاني عشر: أخرج الشيخان وغيرهما عن عُبادة بن الصامت مرفوعاً: "من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا

عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أَمَته وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق؛ أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء"، وفي رواية: "أدخله الجنة على ما كان من عمل".

الحديث الثالث عشر: أخرج الشيخان - أيضاً - وغيرهما عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال لمعاذ بن جبل وهو رديفُه على الرحل: "يا معاذ". قال: "لبيك يا رسول الله وسعديك"، فقال: "يا معاذ". قال: "لبيك يا رسول الله وسعديك". فقال: "يا معاذ". قال: "لبيك يا رسول الله وسعديك". فقال: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؛ إلا حرمه الله على النار"، قال: "يا رسول الله؛ أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟". قال: "إذاً يتكلوا". فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

الحديث الرابع عشر: أخرج مسلم في صحيحه عن عتبان بن مالك مرفوعاً: "لا يشهد أحد أنه: لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعَمُه".

الحديث الخامس عشر: أخرج الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب مرفوعاً: "المسلم إذا سئل في القبر؛ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]".

الحديث السادس عشر: أخرج مسلم في صحيحه، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: "من توضأ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء".

وأخرجه أبو الشيخ بسند ضعيف - كما في "فتح الباري" - عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ: "إذا فرغ أحدكم من وضوئه؛ فليقل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم يصلي عليَّ، فإذا قال ذلك؛ فتحت له أبواب الرحمة"، ورواه أيضاً الأصبهاني.

الحديث السابع عشر: أخرج الطبراني والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً:

"يحشر الأنبياء على الدواب، وأبعث على البراق، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة، فينادي بالأذان محضاً، وبالشهادة حقاً، حتى إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله؛ شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين، فقُبِلَتْ ممن قُبِلَتْ، ورُدت على من ردت".

وأخرجه ابن زنجويه في "فضائل الأعمال" مطولاً عن كثير بن مرة مرفوعاً: "يبعث بلال على ناقة من نوق الجنة، ينادي على ظهرها بالأذان، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله؛ قالوا: ونحن نشهد على ذلك".

الحديث الثامن عشر: أخرج ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عمر مرفوعاً: "الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج، وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وأن تتم الوضوء، وتصوم رمضان".

الحديث التاسع عشر: أخرج الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي أنه قال: "يا رسول الله؛ ما الإيمان؟". قال: "أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما". الحديث.

الحديث العشرون: أخرج أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص مرفوعا: "من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً؛ غفر له".

الحديث الحادي والعشرون: أخرج أبو داود - أيضاً - عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال: "الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، ونسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويجتنب سخطه، فإنما نحن به وله".

الحديث الثاني والعشرون: أخرج الطبراني في "الكبير" بإسناد جيد عن أبي شُريح الخزاعي قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟. قالوا: بلى. قال: إن هذا القرآن طرَفُه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا".

الحديث الثالث والعشرون: أخرج البزار، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن عمرو بن مُرّة الجُهَنِي قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أرأيت إن شهدتُ أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فممن أنا؟. قال: من الصديقين والشهداء".

الحديث الرابع والعشرون: أخرج الشيخان وغيرهما عن أنس مرفوعا: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه؛ إلا حرمه على النار".

الحديث الخامس والعشرون: أخرج أبو داود بإسناد جيد، والترمذي وحسنه، وغيرهما عن أنس أيضاً مرفوعاً: "من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أُشْهِدُكَ وأُشْهِدُ حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك: أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك؛ أعتق الله ربعه من النار، فمن قالها مرتين؛ أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثا؛ أعتق الله ثلاثة أرباعه، فإن قالها أربعا؛ أعتقه لله تعالى من النار".

الحديث السادس والعشرون: أخرج الشيخان وغيرهما عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يَنْكِحُهَا؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه".

قال العلماء: "إنما قال: إلى الله ورسوله في الشق الثاني، ولم يقل: إليهما، مع أن المحل للإضمار: تبركاً وتلذذاً بذكر الله ورسوله. وأصل الهجرة: الانتقال من محل إلى محل، وكثيراً ما تستعمل في الأشخاص

والأعيان والمعاني، وذلك في حقه تعالى، إما على التشبيه البليغ؛ أي: كأنه هاجر إليه. أو: هو على حذف مضاف؛ أي: محل رضاه وثوابه. أو يقال: الانتقال إلى الشيء: عبارة عن الانتقال إلى محل يجده فيه، ووجدان كل أحد على ما يليق به، فالمراد: الانتقال إلى محل قربه المعنوي. أو يقال: ذكر الله للتعظيم والتبرك. أو يقال: هو على حد ما قرروه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ من أن المعاملة مع حبيب الله كالمعاملة مع الله، فيده يده، وبيعته بيعته، والهجرة إليه هجرة إليه".

الحديث السابع والعشرون: أخرج الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك مرفوعاً: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار". قال في "إرشاد الساري": "عبر بالتثنية في سواهما؛ إشارة إلى أن المعتبَر هو: المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله - مثلاً - ولا يحب رسوله؛ لا ينفعه ذلك". اهـ.

قلت: ويدل لذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]، فشرط سبحانه في صحة محبته: متابعة نبيه التي هي فرع عن محبته ومستلزمة لها، ثم وعد عليها - سبحانه - بجزيل الثواب وعظيم النوال بقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فاعرف ذلك.

فإن قلت: نرى أن هذه الأحاديث لا ترد علينا؛ لأن جلها في تعريف الإسلام والإيمان، فهي مسوقة لبيان أنه لا يعتبر الإسلام إلا بالنطق بكلمتي الشهادة معاً، وأن الأولى لا تستقل بذلك، وبعضها في فضل الهجرة وبعضها في غير ذلك، وهذا كله لا ينازع فيه مسلم.

قلت: أما أولاً؛ فهذه مغالطة، فإن الشاهد عندنا: في اقتران ذكره ﷺ بذكر الله تعالى في تلك الأحاديث الشريفة على لسانه ﷺ، وقد أمرنا بالاهتداء بهديه، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]. الآية.

وأما ثانياً: فلا فرق عندنا بين الدخول في الإسلام وغيره، ولما كان الدين الإسلامي هو الدين المرتضى عند الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]؛ جعل سبحانه هذه الكلمة المشرّفة دليلاً وعنواناً عليه، بحيث لا يُقبل ولا يعتبر بدونها، ثم ندبنا الشارع إلى الإكثار منها، والاشتغال بذكرها، تجديداً لإيماننا، وتذكاراً للعهد؛ لأن الإيمان يخلَق كما يخلَق الثوب كما جاء في الحديث. ولذا ورد: "جددوا إيمانكم"، قيل: "وكيف نجدد إيماننا؟"، قال: "أكثروا من قول: لا إله إلا الله"، أي: ومحمد رسول الله؛ لأن بمجموع الكلمتين صح الإيمان المأمور بتجديده كما يأتي، ولذا قال في "المرشد":

وقول: لا إله إلا الله ... محمد أرسله الإله
يجمع كل هذه المعاني ... كانت لذا علامةَ الإيمان
وهي أفضل وجوه الذكر ... فاشغل بها العمْر تفز بالذخر

وقال العلامة المقري في "إضاءة الدُّجُنّة":

لعلها للاختصار معَ ما ... تضمنته خصها ذو النِّعما
بكونها ترجمة الإيمان ... فالهج بذكرها مع الإيمان
وهي أفضل وجوه الذكر ... فاشغل بها العمْر تفز بالذخر

ونحوه: قول العلامة المحقق أبي العباس الهلالي في عقيدته المشهورة:

وكل ذا في كِلْمة الشهادة ... حافظ عليها تحظ بالسعادة

فلم يخص أحد ذلك بالأولى دون الثانية، ولا داعي إلى التفرقة بين الدخول في الإسلام وغيره، ولا دليل على التخصيص، بل الدليل على خلافه كما علمت، والتخصيص بلا مخصص ليس من شأن العقلاء.

ونحن لا ننازع في أن: لا إله إلا الله وحدها ذكر يثاب عليه إجماعاً، بل من أفضل الذكر، وإنما نقول: إن ذكر الكلمتين معاً هو الأولى والأكمل، والأليق والأفضل.

[حل إشكال الاقتصار على ذكر شطر الشهادتين في بعض الأحاديث]

فإن قلت: قد وردت أحاديث كثيرة تدل على التفريد؛ لأن فيها الاقتصار على الكلمة المشرفة الأولى؛ أعني: كلمة التهليل فقط، وذلك كحديث:

1 - أحمد، وأبي داود، والترمذي وقال: "حسن صحيح"، والحاكم في "المستدرك" عن معاذ بن جبل رفعه: "من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله. دخل الجنة".

2 - وحديث مسلم عن عثمان بن عفان رفعه: "من مات وهو يعلم أنه: لا إله إلا الله. دخل الجنة".

3 - وحديث أحمد، ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وعائشة مرفوعاً: "لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله".

4 - وحديث الشيخين عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم دخل على أبي طالب عند الموت، فقال: "يا عم؛ قل: لا إله إلا الله. كلمةً أشهد لك بها عند الله".

5 - وحديث مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: "الإيمان بضع وسبعون - أو: بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله"...الحديث.

6 - وحديث "الموطا"، والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة - أيضاً - مرفوعاً: "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

7 - وحديث الترمذي - أيضا - وقال: "حسن غريب"، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه عن جابر مرفوعاً: "أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله".

8 - وحديث الشيخين عن أنس مرفوعا: "يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله. وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله. وفي قلبه وزن ذرةٍ من خير".

9 - وحديث أحمد والشيخين عن أبي ذر مرفوعاً: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك؛ إلا دخل الجنة". قال أبو ذر: "قلت: وإن زنى وإن سرق؟.! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟.! قال: وإن زنى وإن سرق. قال في الرابعة: وإن رَغِمَ أنفُ أبي ذر".

10 - وحديث أحمد - أيضا - والبخاري عن عتبان بن مالك مرفوعاً: "لن يوافي عبد يوم القيامة بقول: لا إله إلا الله، يبتغي بها وجه الله؛ إلا حرم الله عليه النار".

11 - وحديث الترمذي عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: "التسبيح نصف الميزان، والحمد لله تملأه، ولا إله إلا الله ليس حجاب دون الله حتى تخلص إليه".

12 - وحديث البخاري عن أبي هريرة قال: "قلت: يا رسول الله؛ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟. قال: يا أبا هريرة؛ لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه. أو: نفسه".

13 - وحديث الطبراني في "الأوسط" عن زيد بن أرقم مرفوعاً: "من قال: لا إله إلا الله، مخلصاً؛ دخل الجنة. قيل: وما إخلاصها؟. قال: أن تحجزه عن محارم الله".

14 - وحديث الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة مرفوعاً: "ما قال عبد: لا إله إلا الله. إلا فُتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش. ما اجتنبت الكبائر".

15 - وحديث النَّسَائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: "صحيح الإسناد"، عن أبي سعيد مرفوعاً: "قال موسى: يا رب؛ علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به". قال: "قل: لا إله إلا الله". قال: "لا إله إلا أنت؛ إنما أريد شيئاً تخصني به". قال: "يا موسى؛ لو أن السماوات السبع وعامرَهُن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ لمالت بهن لا إله إلا الله".

16 - وحديث أبي يعلى بإسناد جيد قوي عن أبي هريرة مرفوعاً: "أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبلِ أن يُحال بينكم وبينها".

17 - وحديث أبي يعلى - أيضاً - عن أنس رفعه: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، في ساعة من ليلٍ أو نهار؛ إلا طمست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات".

18 - وحديث الطبراني في "الكبير" عن أبي الدرداء رفعه: "ليس من عبد يقول: لا إله إلا الله، مائة مرة؛ إلا بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولم يُرفع لأحد يومئذٍ عمل أفضل من عمله، إلا من قال مثل قوله أو زاد عليه".

19 - وحديث البزّار عن أبي هريرة رفعه: "إن لله تعالى عموداً من نور بين يدي العرش، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله؛ اهتز ذلك العمود، فيقول الله تبارك وتعالى له: اسكن.! فيقول: كيف أسكن وأنت لم تغفر لقائلها؟. فيقول: قد غفرت له. فيسكن عند ذلك".

20 - وحديث أبي يعلى، والطبراني، والبيهقي في "الشعب" عن ابن عمر رفعه: "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن".

21 - وحديث ابن النجّار في تاريخه عن أنس رفعه: "من قال: لا إله إلا الله، ومدها؛ هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر".

22 - وحديث الديلمي وغيره عن أبي هريرة رفعه: "لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله. فإنها تهدم الخطايا كما يهدم السيل البنيان". قالوا: "فكيف هي للأحياء؟". قال: "أهد وأهدم".

23 - وحديث ابن النجار عن علي رفعه: "قال الله تعالى: لا إله إلا الله كلامي، وأنا هو، فمن قالها؛ دخل حصني، ومن دخل حصني أمن عقابي".

24 - وحديث الديلمي عن أنسٍ رفعه: "يقول الله عز وجل: قربوا أهل لا إله إلا الله من ظل عرشي؛ فإني أحبهم".

25 - وحديث الديلمي - أيضاً - عن ابن عباس رفعه: "لا إله إلا الله تدفع عن قائلها تسعة وتسعين بابا من البلاء، أدناها: الهم".

26 - وحديث الديلمي - أيضاً - عن أنس رفعه: "ثمن الجنة: لا إله إلا الله، وثمن النعمة: الحمد لله".

27 - وحديث الحاكم في تاريخه عن أنس - أيضاً - رفعه: "لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها". زاد في رواية أخرى: "وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها". قيل: "وما الاستخفاف بحقها؟". قال: "أن يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكروه ولا يغيروه".

28 - وحديث الحكيم الترمذي في "النوادر" عن أنس رفعه: "لا تزال لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يوثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا: لا إله إلا الله؛ رُدت عليهم، وقال الله: كذبتم".

29 - وحديث الترمذي وقال: "حسن غريب"، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه: "من سبح الله مائة بالغداة، ومائةً بالعشي؛ كان كمن حج مائة حجة، ومن حمد الله مائة بالغداة، ومائة بالعشي؛ كان كمن حُمل على مائة فرسٍ في سبيل الله، ومن هلل مائةً بالغداة ومائةً بالعشي؛ كان كمن أعتق مائة رقبة من ولد إسماعيل، ومن كبر الله مائة بالغداة ومائةً بالعشي؛ لم يأت في ذلك اليوم أحدٌ بأكثر مما أتى به، إلا من قال مثل ذلك أو زاد على ما قال"...

إلى غير ذلك مما ورد في هذا الباب مما يقتضي التفريد؟.

قلت: أما أولاً؛ فقد قدمنا أنا لا ننازع في أن الكلمة المشرفة الأولى من أفضل الذكر وأرفعه وأعلاه، وأشرفه وأكمله وأولاه، وألذه وأطيبه وأحلاه، وأنفسه وأحسنه وأزكاه، وأتمه وأجله وأنماه، وأعزه وأحبه وأشهاه. وإنما نقول: إن الأكمل والأولى: ضمها مع أختها، وذكرهما معاً تخلقاً بأخلاقه سبحانه، استناداً لما تقدم ويأتي مما يقتضي ذلك.

وأما ثانيا؛ ففي هذه الأحاديث الشريفة ما لا يرد علينا أصلاً، وإشكاله

منحل، وذلك كحديث سؤال سيدنا موسى عليه السلام ربه تعالى أن يعلمه ذكراً يذكره به، وقول الحق تعالى له: "قل: لا إله إلا الله"، فإنه لا يرد علينا؛ لأن ذلك قبل مشروعية ضم الثانية إلى الأولى كما هو ظاهر، ضرورة أن ذلك إنما شرع ببعثته ﷺ في عالم الشهادة، وإن كانوا مؤمنين به ومقرين برسالته في عالم الغيب، وكان هو نبياً ورسولاً قبل القبل كما هو معلوم.

وكذلك حديث: "جددوا إيمانكم". فهو حجة لنا لا علينا، وبيان ذلك: أن الإيمان المأمور بتجديده في هذا الحديث الشريف إنما سمي إيماناً، واعتبر بمجموع الشهادتين، ولم يكتف في تحصيله بالأولى منهما، ثم بعد تحصيله بالإقرار بمضمون كلمة الشهادة؛ أمرنا الشارع بتجديده بتكرار تلك الكلمة المشرفة، التي بها حصل، لأنه يَخلق بالذنوب والمعاصي كما يَخلق الثوب، كما ورد في الحديث الشريف، فكما شرط وصل الذكرين في صحة الإيمان، بحيث لا يعتبَر إلا بذلك؛ فكذا يقال في تجديده من باب لا فرق، وأما اقتصاره في الحديث على ذكر الأولى؛ فهو من باب الاكتفاء، وذلك ورد في السنة كثيراً كما سيمر بك على الأثر.

وأما ثالثا؛ فقد تواطأ المحدثون وأهل العلم قاطبة على أن الشهادة إذا أُطلقت تنصرف لمجموع الشهادتين معاً؛ لأنها صارت علماً بالغلبة عليهما، فحيثما جاءت: لا إله إلا الله في السنة؛ فالمراد بها: كلمتا الشهادة معا. نص على ذلك الحافظ ابن حجر في "الفتح"، وابن السبكي في "الطبقات"، والقسطلاني في "إرشاد الساري"، وعياض، والقرطبي، والأبي، والنووي في "شرح مسلم"...وغيرهم.

وعليه؛ فلا يعوزك عدم التصريح بهما معاً في هذه الأحاديث وشبهها؛ لأن المراد: الكلمتان معاً، إذ بهما ينعقد التوحيد المدلول عليه بتلك الأحاديث الشريفة، والاقتصار على الأولى من باب الاكتفاء. ومن المعلوم ضرورة أن: الإقرار بالربوبية دون الإقرار بالرسالة لا يُقبل ولا ينفع ولا يفيد، فالإيمان ركنان وأساسان: إقرار لله تعالى بالربوبية، وإقرار لسيدنا ومولانا محمد ﷺ بالرسالة، ولا يحصل الإيمان إلا بهما معا.

ألا ترى أن كثيراً من أهل الكتاب يُقر بالصانع وبوحدانية الله تعالى ولم ينفعه ذلك، وحكم عليه بالكفر والخلود في النار لعدم إقراره بالرسالة وإذعانه لها؟، فهم يقولون: لا إله إلا الله، ولم تقبل منهم؛ لعدم قولهم: محمد رسول الله، وضمها مع أختها. فالفارق بين المسلم والكافر هو قول: محمد رسول الله. وأما: لا إله إلا الله؛ فيشتركان فيها. وسيأتي قول بعضهم: "إن بين الكلمتين المشرفتين مزيد اتفاق، يدل على كمال الاتحاد والاعتناق، وأنه: متى كتب أو ذكر لا إله إلا الله؛ يقدّر فيه: محمد رسول الله. لشهرة وجوب مقارنته، وإلا؛ اشترك توحيدنا بتوحيد اليهود والنصارى، ولم يمتز إلا بمحمد رسول الله، إذ اليهود والنصارى وأمثالهم يقولون: لا إله إلا الله، ولا تفيدهم من دون إقرارهم بأن محمداً رسول الله ﷺ". اهـ.

وفي "تحفة الإخوان" نقلاً عن ابن فرحون في كتاب "الوعظ" له، ما نصه: "واعلم أن الله تعالى منع كمال الإيمان بشهادة التوحيد؛ وهي قول: لا إله إلا الله، ما لم تقترن بشهادة الرسول ﷺ، وهي: قولك محمد رسول الله، وألزم الله الخلقَ تصديقه ﷺ في جميع ما أخبر عنه في الدنيا والآخرة، وألزمهم اتباعه والإقتداء به. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]". اهـ منه بلفظه.

إذا علمت هذا؛ بان لك أنه: لا يليق بالمؤمن الخائف على إيمانه أن يُعرض عن ذكر هذه الكلمة المشرفة، أو يغفل عنها، ويجعلها كخضرة فوق الطعام، بل يتأكد في حقه أن يجعلها دأبه وديدنه في كل وقت وحين؛ لأنها المفرقة بينه وبين الكافر، وبها يبيض وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فكيف يجمل به أن يغفل عنها؟.!

ومن الغرائب: ما حُدثت به أن شخصاً كان يذكر الهيللة جهراً في أسواق مدينة طنجه، فلقيه نصراني، فأسرَّه في أذنه وقال له: "لم لا تذكر الكلمة الأخرى التي ننازعكم فيها، وأما هذه فإنا نشارككم فيها؟"، فأفحمه ولم يجد جواباً.

[نصوص الأيمة على أن ذكر شطر الشهادتين يقتضي ذكر الشطر الآخر]

ودونك نصوص الأيمة في ذلك: قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"

لدى قول وهب بن منبه: "إن مفتاح الجنة: لا إله إلا الله"، ما نصه: "والمراد بلا إله إلا الله في هذا الحديث وغيره: كلمتا الشهادة؛ فلا يَرِدُ إشكال ترك الرسالة، قال الزين ابن المنيِّر: قول لا إله إلا الله؛ جرى علماً على النطق بالشهادتين شرعا". اهـ. ونقله صاحب "إزالة اللبس".

وقال الإمام القسطلاني في "إرشاد الساري"، لدى حديث: "يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله...الخ"، ما نصه: "أي: مع قول: محمد رسول الله. فالجزء الأول علَم على المجموع، كـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، علم على السورة كلها، أو: إن هذا كان قبل مشروعية ضمها إليه كما قاله العيني كالكرماني، وفي ذلك نظر على مالا يخفى". اهـ منه.

وقال - أيضاً - لدى حديث: "أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله". ما نصه: "أي: مع محمد رسول الله، واكتفي بالأولى لاستلزامها الثانية عند التحقيق، أو أنها شعار للمجموع كما في: قرأت الحمد. أي: كل السورة". اهـ بلفظه.

وقال - أيضاً - لدى حديث أبي هريرة المتقدم: "أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. أو: نفسه". عند قوله: لا إله إلا الله. ما نصه: "مع قول محمد رسول الله...ثم قال: وقد يُكتفى بالنطق بأحد الجزئين من كلمتي الشهادة؛ لأنه صار شعاراً لمجموعهما". اهـ منه بلفظه.

وقال الإمام النووي في "شرح مسلم" لدى الحديث المذكور؛ وهو: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله". ما نصه: "هذا محمول عند الجماهير على قول الشهادتين، واستغنى بذكر إحداهما عن الأخرى لارتباطهما وشهرتهما". اهـ منه بلفظه.

وقال فيه - أيضاً - ما نصه: "ومذهب أهل السنة: أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين، لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى". اهـ منه بلفظه.

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في "الأحكام" عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: 30]: "فيها ثلاثة مسائل: المسألة

الأولى: أن الذين قالوا: ربنا الله؛ يعني: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ إذ لا يتم أحد الركنين إلا بالآخر حسبما بينّاه في غير موضع، واستقر في قلوب المؤمنين في غير موضع". اهـ بلفظه.

وقال في "شرح المواهب" عند قوله ﷺ لعمه أبي طالب: "يا عم؛ قل: لا إله إلا الله". ما نصه: "أي: ومحمد رسول الله. لأن الكلمتين صارا كالكلمة الواحدة". اهـ بلفظه.

وقال بعض الأيمة أثناء كلام له ما نصه: "ولشهرة التئام الاسمين والكلمتين المشرفتين حتى صارتا كالكلمة الواحدة؛ نزلتا كالكلمة الواحدة، كما اصطلح المحدثون على التعبير عن كلمتي الشهادة؛ وهي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بكلمة الشهادة، حتى صارت كلمة الشهادة عَلَماً بالغلبة على مجموع الشهادتين". اهـ المراد منه بلفظه.

وقال الأبي في "شرح مسلم" لدى حديث تلقين أبي طالب المتقدم، وقول النبي ﷺ له: "قل لا إله إلا الله"، ما نصه: "الأظهر أنها: كناية عن الشهادتين معا؛ لأنه لا يثبت حكم الإسلام عندنا إلا بهما...ثم قال: ويحتمل أنه لم يسأله إلا كلمة التوحيد؛ لأنه كان يعلم صحة رسالته حسبما دلت عليه السير". اهـ منه بلفظه.

وقال - أيضا - بعد أن ذكر حديث: "من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة". ما نصه: "جعل النطق بالشهادتين وحده كافيا؛ لأن: لا إله إلا الله، كناية عنهما". اهـ منه بلفظه.

وقال الشيخ جسّوس في "شرح الشمائل"، بعد ذكر حديث تلقين أبي طالب وجواب ابن زكري في شرح همزيته عن قول أبي طالب آخر ما تكلم به: "هو على ملة عبد المطلب"؛ فإنه لا يدل على أن عبد المطلب كان كافرا؛ لأنه لم يدرك البعثة، فكان على ملة إبراهيم، وأبو طالب أدركها؛ فلا تنفعه ملة عبد المطلب، ما نصه: "وقوله: لا إله إلا الله. أي: محمد رسول الله. إذ لا يتم هذا الجواب إلا إن كان المراد أنه: لا يقر له ﷺ بالرسالة. فتأمله". اهـ منه بلفظه.

وقال الشيخ إبراهيم الشبرخيتي في شرحه على "الأربعين النووية"، المسمى بـ: "الفتوحات الوهبية"، لدى حديث: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله". ما نصه: "هذا الشرط مشعرٌ بمجموع الجملتين، فاستغنى بإحداهما عن الأخرى، لارتباطهما. كما يقال: قرأت: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1، 2]، والمراد: كل السورة. وقد استغنت العرب بحرف من الكلمة عن بقيتها في نظمها ونثرها، كقول القائل: قلت لها: قفي. فقالت: ق. أراد: قالت: وقفْت. وقال الآخر: جارية وعدتني أن تأتي رأسي وتفلي، أو تا. أراد: أن تأتي وتدهن رأسه وتفلي أو تمسح. وكقول الآخر: بالخير خ، وإن شراً فأو لا أريد الشر إلا أن تا. أراد: إن شراً فشر، وإلا أن تشا. وإذا استغنت بحرف عن بقيتها فأولى أن تستغني بإحدى الكلمتين والجملتين عن الأخرى إذا كان فيه دلالة على مالم يذكر". اهـ منه بلفظه.

وقال بعض الأيمة أثناء كلام له على معنى التوحيد ما نصه: "اعلم أن التوحيد لا ينفع بدون الشهادة له ﷺ بالرسالة، وبين الكلمتين مزيد اتفاق يدل على تمام الاتحاد والاعتناق. واعلم أن التوحيد: لا إله إلا الله، متى كتب أو ذكر يقدر فيه: محمد رسول الله. اكتفاء بذكره، لشهرة وجوب مقارنته، وإلا؛ اشترك توحيدنا بتوحيد اليهود والنصارى. ولم يمتز إلا بمحمد رسول الله. ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]، أي: ومحمد رسول الله. فهو من باب الاكتفاء من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أو على أن الكلمة المذكورة هي عَلَم الشهادتين؛ إذ من المعلوم أن اليهود والنصارى وأمثالهم يقولون: لا إله إلا الله، ولا تفيدهم هذه الكلمة من دون إقرارهم بأن محمداً رسول الله ﷺ، وفي الآية إيماء لهذا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 28، 29]. كذا ذكر علي القاري في شرح "الشفا"". اهـ منه بلفظه. ونصوص العلماء في ذلك متظافرة.

تنبيه: [سر اختلاف الروايات في حديث: أُمرتُ أن أقاتل...]

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح"، لذا الحديث المذكور، وهو:

قوله ﷺ: "أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله": "وردت الأحاديث في ذلك زائداً بعضها على بعض؛ ففي حديث أبي هريرة: الاقتصار على قوله: لا إله إلا الله. وفي حديث من وجه آخر: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وفي حديث ابن عمر زيادة: وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وفي حديث أنس: فإذا صلوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا. قال القرطبي وغيره: أما الأول؛ فقاله في حالة قتاله لأهل الأوثان الذين لا يقرون بالتوحيد، وأما الثاني؛ فقاله في حالة قتاله لأهل الكتاب الذين يقرون بالتوحيد ويجحدون نبوته عموماً وخصوصا، وأما الثالث؛ ففيه إشارة إلى أن من دخل في الإسلام وشهد بالتوحيد والنبوة ولم يعمل بالطاعة؛ حكمهم أن يقاتَلوا حتى يذعنوا إلى ذلك، فاقتصر في الأول على قوله: لا إله إلا الله، ولم يذكر الرسالة - وهي مرادة - كما تقول: قرأت: الحمد لله، وتريد السورة كلها". اهـ. ونحوه نقله القسطلاني في "إرشاد الساري" عن الطبري. والنووي في "شرح مسلم" عن الخطابي، وعياض.

قلت: وأرشق منه - والله أعلم - أن يقال: إن الأمر بذلك كان تدريجاً؛ فأمر أولاً بقتال المشركين وعبدة الأوثان، وفيه اقتصر على قوله: لا إله إلا الله. والثانية: مرادة أيضا، ثم أمر ثانياً بقتال أهل الكتاب الذين يقرون بالتوحيد ويجحدون رسالته عموماً وخصوصا، وفيه قال: "حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله". وفي رواية: "وأني رسول الله"، وفي أخرى: "ويؤمنوا بي وبما جئت به". ثم أمر ثالثاً بقتال من أقر بالتوحيد والرسالة وامتنع من فعل بقية خصال الإسلام، من صلاة وزكاة وغيرهما، وفيه قال: "ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة".

ومن تدبر القرآن العظيم حال تلاوته؛ يجد الأمر كما ذكرنا، وأن الله تعالى أمره بقتال الأصناف الثلاثة، ودل اختلاف الأحاديث على أن الأمر بذلك كان تدريجا. فتأمله والله أعلم.

وقد نقل النووي في "شرح مسلم" عن عياض ما نصه: "اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله. تعبير عن الإجابة إلى الإيمان،

والمراد بهذا: مشركو العرب وأهل الأوثان، ومن لا يوحد. وهم كانوا أول من دعي للإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد؛ فلا يكتفَى في عصمته بقوله: لا إله إلا الله؛ فلذلك جاء في الحديث الآخر: وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. قلت - أي: قال النووي -: ولا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في رواية أبي هريرة: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به". اهـ منه بلفظه.

فقف على قوله: "وهم كانوا أول من دعي للإسلام وقوتل عليه"؛ فإنه شاهد لما ذكرناه من أن الأمر بذلك كان تدريجا، فلأجله اختلفت الأحاديث وزاد بعضها على بعض. والله أعلم.

المسلك الثالث

في الاستدلال لذلك من كلام الأئمة المقتدى بهم علماً وعملاً

فاعلم - هداك الله تعالى، ووفقنا وإياك لسلوك سبيل الإنصاف، وجنبنا طريق التعصب والاعتساف - أنه: قد نص جماعة من الأيمة، وفحول مشايخ الأمة، على أنه: ينبغي اقتران الكلمتين المشرفتين في حالة الذكر، وعدم افتراقهما؛ استناداً منهم لما قدَّمناه من الآيات والأحاديث والآثار، الدالة على ذلك، والصريحة فيه، مع ملاحظة وساطته ﷺ المقتضية القيام بشكره، ومِن شكره: أن يُذكر ولا يُنسى، وأداءً لبعض ما يجب من حقه العظيم، الذي هو أرفع الحقوق وأعظمها. . .وغير ذلك من الوجوه المقتضية لذلك.

وقد تقدم جلب نصوص كثير منهم في ذلك خلال الأبواب المتقدمة، زيادة على تفسير الحق جل جلاله للآية الكريمة، ومن ذُكر من الصحابة والتابعين، وجمهور المفسرين، بأنه لا يذكر الله تبارك وتعالى إلا وذكر معه حبيبه وصفيه ﷺ، فهو إجماع. وإن شئت زيادة بيان، وتحقيق وعرفان؛ فاسمع لما يتلى عليك:

قال الإمام الساحلي بعد أن ذكر أن: "جميع الأكوان" . . .الخ، وبعده كلام السنوسي، ثم بعده كلامه أيضاً الذي بهذا الوجه، قال الشيخ الإمام، الولي الصالح الهمام، العمدة المتفق على جلالته؛ أبو عبد الله سيدي محمد بن يوسف السنوسي رضي الله تعالى عنه، في شرح صغراه، عند تعرضه للكلام على الذكر وآدابه، ما نصه: "ولما ابتهج قلبه - أي: الذاكر - بنور الحقيقة، وكان الانتفاع بها موقوفاً على القيام برسوم الشريعة، وذلك لا يكون إلا بالإدمان على ذكر صاحبها، المبلِّغ لها عن الله تعالى: سيدنا محمد ﷺ؛ احتاج الذاكر بعد كلمة التوحيد الدالة على الحقيقة، أن يشفعها بإثبات رسالة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ليحفظ نور توحيده بإدخاله في منيع

حرز الشريعة، فلهذا يقول الذاكر إثر لا إله إلا الله: محمد رسول الله، ﷺ".

"وهكذا ينبغي في كل ذكر من أذكار الله تعالى: أن لا يغفل المؤمن فيه عن ذكر سيدنا ومولانا محمد ﷺ، إما بأن يصلي عليه إثره، أو يقر برسالته مع الصلاة عليه ﷺ، أو نحو ذلك مما يوجب تعظيمه والتمسك بأذياله. إذ هو ﷺ باب الله الأعظم الذي لا ينال كل خير دنيا وأخرى إلا بالتعلق به. فمن غفل عن ذكره والتمسك بشريعته ﷺ؛ لم ينل مقصده، وكان مرمياً به في سجن القطيعة، محروماً من خير الدنيا والآخرة، وسيدنا محمد ﷺ هو دليل الخلق إلى الله تعالى؛ فكيف يصل إلى الله تعالى من غفل عن ذكره؟!!"

"وقد قال بعض من طبع الله على قلبه، ممن يتعاطى التصوف وليس من أهله، مقالة قريبة من الكفر، أو هي الكفر بعينه: إن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب عن الله تعالى. وقد سلك بعض الضالين مثل هذه العبارة، فقال: إذا أفردت التهليل عن إثبات الرسالة؛ كان أبلغ وأسرع في تأثير معنى التوحيد. واحتج لضلاله وتسويل شيطانه بأنه قال: للتهليل معنى، ولإثبات الرسالة معنى، وإذا اختلفت المعاني على الباطن؛ ضعف التأثير، وبعدت الثمرة. قال: وإنما يحتاج إلى وصل الذكرين عند الدخول في الإسلام".

"قال بعض الأيمة الراسخين رضي الله تعالى عنهم: وهذه المقالة - والعياذ بالله - من الفتن التي لا مورد لها غير النار، ولا عقبى لقائلها سوى دار البوار، وما ذاك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة، والانحلال من ربقتها، وتعطيل رسومها. ولو علم هذا الضال ما تحت قوله: محمد رسول الله، من الأسرار التوحيدية، والحكم التهليلية؛ لا نقشع عنه ذلك العمى، فأصاب المرمى. اللهم أعذنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، بجاه سيدنا ومولانا محمد ﷺ". اهـ كلام الشيخ السنوسي بلفظه. وأصله للإمام الساحلي في "بغية السالك"، وهو مراده ببعض الأيمة الراسخين.

وقد نقل كلام السنوسي هذا محتجا به ومؤيدا له جماعة من الأيمة الفحول؛ منهم: العلامة سيدي مَحمد بن قاسم جسُّوس في شرح توحيد "المرشد"، فإنه نقله إلى قوله: "والقول: والإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب

عن الله تعالى؛ كفر أو قريب منه". ثم قال ما نصه: "ثم شنّع - أي: السنوسي - في الرد على هذا القائل، فانظره فقد بسط القول في ذلك كله تبعاً للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد الساحلي في كتابه "بغية السالك" الشهير؛ فإن منه لخص ما أتى به في فصل: بيان ذكرها على الوجه الأكمل. فإنه ذكر هذه الفوائد بأجمعها وزاد عليها". اهـ بلفظه.

وقال العلامة الدّسُوقي في حاشيته على شرح السنوسي، عند قوله: "قال بعض الأيمة" ما نصه: "أي: في الرد عليه، وكلام هذا البعض يدل على أن هذه الكلمة مكفرة". اهـ بلفظه.

وأيد ذلك الإمام العارف المحقق العلامة أبو زيد سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته على "الصغرى"؛ فإنه كتب على قوله: "قال بعض الأيمة الراسخين"، ما نصه: "هو: الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الساحلي، في كتابه "بغية السالك" الشهير، ومنه لخص المؤلف ما أتى به في هذا الفصل". اهـ.

وكتب على قوله: "احتاج الذاكر بعد كلمة التوحيد"...الخ، ما نصه: "قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي رضي الله عنه من قصيدةٍ له في الذكر:

وصِلْ بين ذكر المصطفى وإلهه ... وإياك أن تنسى نبيك في الدهر
فما فاز من قد فارق البدر لمحةً ... وهل فاز إلا من تمسك البدر؟
تعلق بأذيال الذين تفرغوا ... لخدمة هذا المصطفى كأبي بكر
فما فارق الصديقُ ذكرَ محمد ... وإن كان في الأفراد كالكوكب الدر
وما نال تصديقاً لغير حبيبه ... فدع قول بدعيٍّ تدنَّس بالوزر

ثم قال: "وطريقة أيمتنا الصوفية - ومنهم: الشاذلية - مبنية على الصلاة على النبي ﷺ". وقال أيضاً بعد كلامه: "ثم هذه البدعة التي ذكر؛ هي الموجودة اليوم في الطائفة المنتسبة إلى الأندلسي؛ فإنهم ينكرون أموراً منها: الصلاة على النبي ﷺ، ومنها: قراءة الفاتحة، ومنها: الدعاء إثر الصلاة المفروضة. وقد رد على من ينتحل ذلك الشيخ ابن أبي جمرة في شرح البخاري".

"ثم إنك إذا نظرت إلى تلك البدعة؛ وجدتها تحوم على الفلاسفة وانتهاج مذهبهم، وانتحالها في الاكتفاء بالعقل ورفض الشريعة. وقد ذم صاحب "عوارف المعارف" ما كان كذلك أو سبيلاً إليه، ونصه: ما كان من الفتح بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ؛ أنتج تنوير القلب، والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بإخلاص في الصلاة والتلاوة...وغير ذلك".

ثم قال: "وما يفتح على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سبباً لمزيد بُعده، وغروره وحماقته، واستطالته على الناس، وازدرائه بالخلق. ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام، والحلال والحرام، ويظن أن المقصود من العبادات: ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحُّد وتزندق، ونعوذ بالله من الضلال. اهـ".

"وفي شرح "صغرى الصغرى" للمؤلف: وقد رأيت لبعض أيمة التصوف أن: من فقد شيوخ التربية؛ فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ؛ فإنه يصل بها إلى مقصده. وفي "القواعد" للشيخ زرّوق: قال شيخنا أبو العباس الحضرمي: وعليك بدوام الذكر، وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ؛ فهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخا مرشداً، فقد سمعت في سنة ست وأربعين وثمانمائة بالحرم الشريف رجلاً من الصالحين روى لي ذلك عن رجل من أهل الصدق مع الله تعالى، وكلاهما معروفان، رأيتهما. والله أعلم". اهـ كلام العارف الفاسي. وقد نقله برمته الشيخ جسّوس في شرح توحيد "المرشد" محتجاً به لكيفية الذكر على الوجه الأكمل، فانظره.

وممن نقل كلام السنوسي المتقدم مع أبيات الساحلي: الشيخ الإمام العارف أبو محمد سيدي عبد الله الخياط الهاروشي، في كتابه المسمى بـ: "الفتح المبين"، في الباب الأول منه، محتجاً به لما ذكر، وقال إثر أبيات الساحلي ما نصه: "قلت: يشير بما في البيت الأخير إلى قول الإمام السنوسي رضي الله عنه في آخر شرحه للصغرى: وقد قال بعض من يتعاطى التصوف

وليس من أهله، مقالة قريبة من الكفر أو هي الكفر بعينه. فراجع الحكاية إن شئت، فليست من غرضنا، إنما نجلب في كتابنا هذا ما فيه مزيد داعية المحبة فقط، وأما الشيخ السنوسي رضي الله عنه؛ فلما كان موضوع كتابه: الرد على أهل الزيغ والتشنيع على الفرق الضالة؛ ناسبه ذلك. فافهم. والله يتولى هداك". اهـ.

وكذا الشيخ الإمام العلامة، القدوة المحقق المشارك، المحرر الحافظ النقاد؛ أبو العباس سيدي أحمد بن مبارك اللمطي، صاحب "الإبريز"، في تأليف له سماه: "إزالة اللبس"؛ فإنه نقل فيه كلام السنوسي وأبيات الساحلي، ثم قال: "فهذا مذهبنا الذي عليه نموت ونحيا إن شاء الله تعالى، فلا نفارق ذكر نبينا ﷺ بحول الله وقوته في حالة من الأحوال، فالحذر الحذر من الإصغاء لمخالفه، فإنه عين القطيعة، وما ظننت أن أحداً قط يذهب إليه، بل لا بد من ذكره ﷺ في كل المقامات متصلاً بذكر الله تعالى، ليدخل السالك موارد التخصيص...".

إلى أن قال: "وعندي أن الإعراض عن ذكره ﷺ فيه جفاء عظيم، فالواجب على المؤمن الخائف على إيمانه أن يداوم على ذكره ﷺ، وأن يجمع كلمتي الشهادة معاً ولا يفرقهما، لا في أول الأمر ولا في آخره، فإنه ﷺ هو السبب له في الوصول إلى خير الدنيا والآخرة". اهـ باختصار كثير، وسيأتي بعضه أيضا.

وكذا الشيخ الإمام، العلامة المتبحر الهمام، شيخ الإسلام؛ أبو حامد سيدي العربي ابن الشيخ أبي المحاسن الفاسي، في جواب له في الفدية سيأتي قريبا.

وكذا الشيخ العلامة، العمدة الفهامة، مفتي المالكية بالديار المصرية، وقدوة المتأخرين بها؛ أبو عبد الله سيدي محمد عليش، فإنه قال في أواخر شرحه على منظومة الإمام المقري، المسمى بـ: "إضاءة الدجنة في عقيدة أهل السنة"، عند تعرضه للكلام على الذكر، ما نصه: "ثم الجمع بين التهليل وإثبات الرسالة عين الكمال، ولا سيما مع الصلاة، خلافاً لبعض المبتدعة في

زعمه أن ضم إثبات الرسالة إلى التهليل يضعف التأثير في القلب والنفع، فإنه جهل عظيم. ولذا قال الساحلي في رائيته: وصِلْ بين ذكر المصطفى وإلهه. . .". إلخ الأبيات.

ثم قال: "وطريق الشاذلية رضي الله عنهم مبنية على الصلاة على النبي ﷺ، وقد قال إمامهم أبو الحسن رضي الله عنه: صلاة واحدة عليه ﷺ تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة. وفي شرح "الصغرى" لمؤلفها: رأيت لبعض أيمة التصوف أن: من فقد شيوخ التربية؛ فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ؛ فإنه يصل بها لمقصده. وفي "القواعد" للشيخ زروق: قال شيخنا أبو العباس الحضرمي: وعليك بدوام الذكر، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ؛ فهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخاً مرشداً، كما قال بعض أهل الصدق مع الله". اهـ كلام الشيخ عليش بلفظه.

وأصله للإمام العلامة، المحقق المشارك النحرير، الدراكة المدقق، خاتمة المحققين؛ أبي المجد الشيخ الطيب بن عبد المجيد ابن كيران في شرحه على توحيد ابن عاشر، عند قوله:

وهي أفضل وجوه الذكر فاشغل بها العمر تفز بالذخر

ومنه نقله الشيخ عليش بلفظه، وقال أيضا: "تبعاً للشيخ السنوسي في "الصغرى""، عند تعرضه للكلام على كيفية الذكر، وآداب الذاكر، ولفظهما واحد، ما نصه: "ثم يجيب - أي: الذاكر - أمر مولانا بالتهليل، منخلعاً من كل شريك وهوى وتغيير وتبديل، مستحضراً - بحسب الإمكان - ما انطوى عليه من يواقيت الإيمان، قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلى آخر دَوْر سُبحته". اهـ.

وقال أيضا: "وأما الفوائد الحاصلة لذاكر الكلمة المشرفة على الوجه الأكمل - أي: وهو الاقتران مع بقية الآداب اللائقة بذلك - وهي: ما يندرج في قول الناظم: تفز بالذخر. فلذا تأكد تفصيلها هنا؛ فهي قسمان: أخلاق حميدة دينية، وكرامات خوارق؛ كالزهد والتوكل، والحياء والتسليم، والإيثار والفتوة، والشكر والبركة، والكشف عن حقيقة الأمور. . .وغير ذلك، وهي كثيرة، ومن

اجتهد في أسبابها؛ عرفها بالذوق والوجدان دون تقليد". اهـ بخـ كثير.

وتقدم قول الحافظ المقّري في "إضاءة الدُّجُنّة": "فالهج بذكرها مع الإدمان..."إلخ، وقول العلامة ابن عاشر: "وهي أفضل وجوه الذكر"...إلخ. قال الشيخ الطيب في شرح هذا البيت ما نصه: "وهي أفضل وجوه الذكر؛ أي: أنواع الذكر، ولو لم يرد في فضلها إلا أنها: علَم على الإيمان، تعصم الدماء والأموال إلا بحقها؛ لكان كافياً للعاقل. كيف وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة، ثم ذكر عدة منها في فضل الكلمة المشرفة، وفيها الاقتصار على لا إله إلا الله، مع أن موضوع كلامه وسياقه لتلك الأحاديث في الحض على ذكر كلمة الشهادة المتضمنة للكلمتين المشرفتين معا؟، فهو نص منه - رحمه الله - في أن المراد بلا إله إلا الله في تلك الأحاديث وغيرها: كلمتا الشهادة معا؛ لأنها علم عليهما شرعاً كما تقدم.

وقد نقل كلامه في ذلك برمته الشيخ عليش في شرح عقيدة المقري، ثم قال - أي: عليش - عند قوله: "فاشغل بها العمر تفز بالذخر"، ما نصه: "أي: الثواب الذي يدَّخر لك عند الله". ثم ذكر بعض فضائل الذكر عموماً من آيات وأحاديث، إلى أن قال: "فذكر الكلمة المشرفة مأمور به، محصل للثواب على كل حال، ولا يفتقر لنيةٍ كما يوهمه شرح "الصغرى"؛ لأن ما كان قربة بذاته ولا تنوع فيه، لا يفتقر إليها، كما قُرر في محله. لكن الأكمل في ذكرها على الوجه الأكمل، المنتج لورود المواهب والفتوحات، والأسرار اللدنية، والفوائد الجليلة على قلب الذاكر؛ يتوقف على آداب يُعظِّم بها الذاكر ما عظم الله. وقد بين الساحلي تلك الآداب وتلك الفوائد في كتابه "بغية السالك"، وتبعه في شرح "الصغرى"". ثم ذكر بعضها، وقد تقدم عنه طرف منها. ثم قال بعد كلام طويل وذكَر خلافا في التفضيل بين الهيللة والحمدلة، ما نصه: "واختار ابن رشد أن صيغة التشهد أفضل من الحمد". اهـ.

قلت: وكأن اختيار ابن رشد هذا قول ثالث في المسألة بالتفصيل، فيكون ذكر الكلمتين المشرفتين معا: لا إله إلا الله محمد رسول الله. أفضل من الحمدلة، ولعل السر في ذلك - والله أعلم - ما في ذلك من شكر الواسطة،

والجمع بين الشريعة والحقيقة..وغير ذلك. بخلاف المقتصر على التهليل فقط، الذي هو أحد القولين الآخرين؛ فإنه يدل على التوحيد خاصة، ولذا كان القول الآخر بأفضلية الحمد على التهليل أرجح من مقابله، كما نص عليه الحافظ ابن حجر والغزالي والمناوي وغيرهم؛ لأن الحمد فيه تنزيه الله وتوحيده، وزيادة شكره، وذكر الكلمتين المشرّفتين معاً قد اشتمل على ما في الحمد وزيادة؛ لأن من معنى لا إله إلا الله: لا كمال إلا لله، ولا محموداً إلا الله. ثم تزيد على ذلك: الإقرار بالرسالة؛ إذ بواسطته عرفنا ذلك، وهو الذي دلنا عليه. فتجمع بين الثناء على الله وعلى رسوله الذي هو واسطة في ثنائك على ربك، وذلك أبلغ. فلله در ابن رشد حافظ المذهب وعميده، ما أدق نظره وأغزر علمه.!

ثم قال الشيخ عليش: "وأما محمد رسول الله. فينبغي أن ينوّن اسم سيدنا محمد ﷺ مرفوعاً مدْغماً تنوينه في راءِ رسول الله بعده، وأن يضم للإمام من رسول الله، وأن يحقق اسم الجلالة. وقد نص الشافعية على أن من قال في دخول الإسلام: أشهد أن محمداً رسول. ولم يضفه إلى الله؛ لا يجزيه؛ لعمومه. قالوا: بخلاف: أشهد أن محمداً نبي. فإنه يجزيه. ذكره العلامة سيدي أحمد زرّوق في "اغتنام الفوائد" - أي: في شرح عقائد الغزالي - نفعنا الله بهما". اهـ. وأنشد في "مرآة المحاسن" لبعضهم:

ألا يا محب المصطفى زد صبابة وضمخ لسان الذكر دأباً بطيبه

ولا تعبأن بالمبطلين فإنما علامة حب الله حب حبيبه

وقال في "المرآة" أيضا، في ترجمة الولي الكبير، العارف الشهير، الكبير الصيت والباع؛ أبي محمد سيدي عبد العزيز التباع، دفين مراكش رضي الله تعالى عنه، ما نصه: "ورأيت بخط شيخنا أبي عبد الله القصّار - رحمه الله - أن الشيخ سيدي عبد العزيز التباع - شيخ الجماعة - كان يلقن: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهو ذكر سيدي رضوان". اهـ.

ونحوه في "ممتع الأسماع" للعلامة سيدي المهدي الفاسي، ونصه: "وقال الشيخ القصار رحمه الله: كان سيدي عبد العزيز التباع، شيخ

الجماعة، يلقن: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وهو ذكر سيدي رضوان". اهـ منه بلفظه.

وفي "ابتهاج القلوب": أن الشيخ الإمام، العارف الحجة الهمام؛ سيدي أبا المحاسن الفاسي رضي الله عنه؛ كان يأمر في الذكر بضم محمد رسول الله للهيللة". اهـ.

وفي "تحفة الإخوان، ببعض مناقب شرفاء وازّان"، للشريف العلامة سيدي حمدون الطاهري ما نصه: "وأما أوراد سادتنا وأشياخنا رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين، التي تُذكر في الصباح والمساء؛ فهي..."، ثم ذكر بعضها إلى أن قال: "ولا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ وعلى آله، عشر مرات دبر كل صلاة مكتوبة". اهـ.المراد منها بلفظها.

وقال الشيخ جَسُّوس في "شرح الرسالة" بعد أن قرر وساطته ﷺ لكل أحد، ما نصه: "ومِن ثَم كان من الحق الواجب على المؤمن إذا ذكر الله تعالى: أن يعطف بذكر رسوله ﷺ، فيكون ذَكَرَ الله حقيقة، وذكر رسوله شريعة". اهـ منه بلفظه.

وقال الحطّاب في "شرح المختصر"، بعد أن نقل عن كتاب الذبائح من "المدونة" أن: الذبح ليس بموضع صلاة على النبي ﷺ، ومثله لابن ناجي في شرحها، ما نصه: "قال الشيخ أبو الحسن في "الأمهات": قيل لابن القاسم: هل يقول بعد التسمية: صلى الله على محمد، أو: محمد رسول الله؟. قال: ذلك موضع لا يُذكر فيه إلا اسم الله وحده. قال ابن حبيب: قال أصبغ: عن ابن القاسم: إن في بعض الأحاديث: موطنين لا يذكر فيهما إلا اسم الله وحده: الذبيحة والعطاس. لا يقل بعد التسمية والتحميد: محمد رسول الله. وإن شاء قال بعدهما: صلى الله على محمد؛ لأن الصلاة على النبي ﷺ ليست بتسمية له مع الله سبحانه. وقاله أشهب". اهـ منه بلفظه.

قلت: وقول ابن القاسم هذا؛ صريح أو كالصريح في طلب وصل الذكرين واقترانهما وعدم افتراقهما، وأن ذلك هو الأصل إلا في الموضعين المذكورين، فللعاطس أو الذابح أن يصلي على النبي ﷺ إثر الحمد أو

التسمية بدلاً عن قوله: محمد رسول الله. فيفيد أن المعهود عندهم: قول ذلك بعد ذكر الله تعالى في غير الموضعين، كما يؤخذ ذلك من السؤال أيضا. فتأمله. كما أن قوله: "ذلك موضع لا يذكر فيه إلا اسم الله وحده"، يفيد ذلك.

وقال الحطاب - أيضا - ما نصه: "وفي سماع أبي زيد من "الجامع": سئل مالك عن الذي يرى الشيء فيعجبه، أو يعطس؛ فيحمد الله، أيكره له أن يصلي على النبي ﷺ؟. قال: لا؛ أنا آمره أن لا يصلي على النبي ﷺ؟، إني إذاً لأقول له: لا تذكر الله. قال: إنه يذكر في ذلك حديث، قال: ما يحدّث به. كأنه لا يرى ذلك الحديث شيئا. قال ابن رشد: قد أمر الله تعالى بالصلاة على النبي ﷺ، فهي على الوجه الذي أمر به من التعظيم لحقه، والرغبة في الثواب عند ذكره أو ذكر شيء من أمره، مرغبٌ فيها مندوب إليها. وأما عند التعجب؛ فالشيء للتعجب دون القصد إلى احتساب الثواب مكروه. قاله سحنون في رسم "نذر" من سماع عيسى من كتاب المحاربين. وأما الصلاة عليه مع الحمد عند العطاس؛ فيحتمل أنه لم يُرد بذلك القربة، فيكون مكروها، ويحتمل أنه يذكر سنته في أمر العاطس بالحمد، فصلى عليه على ما سنّه من ذلك، فيكون مستحبا. ولما احتملت صلاته هذا الوجه، توقف في أن يقول: إنه مكروه. اهـ باختصار". اهـ كلام الحطّاب بلفظه.

قلت: وتأمل قول الإمام رضي الله عنه على جهة الاستفهام الإنكاري: "أنا آمره أن لا يصلي على النبي ﷺ؟، إني إذاً لأقول له: لا تذكر الله". فهو نص صريح منه رضي الله عنه في أن ذكر الله تعالى وذكر نبيه ﷺ متلازمان، وأن ذكر النبي ﷺ من ذكر الله تعالى؛ لقوله: "إني إذاً لأقول له: لا تذكر الله". وكفانا نص إمامنا هذا رضي الله عنه في هذا الباب؛ إذ هو إمام المحدثين، وقدوة الفقهاء المجتهدين.

وزاده ابن رشد، حافظ المذهب، بياناً بقوله: "ويحتمل أنه يذكر سنته في أمر العاطس بالحمد، فصلى عليه على ما سنه من ذلك، فيكون مستحبًّا". ومعناه والله أعلم: أنه لما حمد الله تعالى، تذكر من سن له الحمد وأمره به،

وهو النبي ﷺ، فصلى عليه شكراً له على ذلك، فيكون قد فعل مستحبا.

فانظر كيف جعل وصْل الذكرين والقصدَ إلى ذلك مستحباً في موضع لم يرد فيه إلا ذكر الله تعالى والأمر بحمده خاصة، نظراً للأدلة العمومية المقتضية لذلك، ومنها: ملاحظة وساطته ﷺ، وأداء شكره. ولذا: لما قيل للإمام رضي الله عنه: "إنه يُذكر في ذاك حديث". قال: "ما يُحَدَّث به". يعني: لم يثبت. ففيه دلالة ظاهرة على أن كل موطن ذُكر الله تعالى فيه إلا ويُذكر فيه النبي ﷺ معه، إلا ما ثبت تخصيصه بالله تعالى. فهو شاهدٌ لما أوضحناه وقررناه، وحجة قوية لما أصّلناه وحررناه. وقد تقدم أول الكتاب نص الإمام الشافعي رضي الله عنه بنحو ذلك، والله تعالى أعلم. وأنشد في "مرآة المحاسن" لبعضهم:

ألا يا محب المصطفى زد صبابة ... وضمخ لسان الذكر دأباً بطيبه
ولا تعبأن بالمبطلين فإنما ... علامة حب الله حب حبيبه

قلت: ولهذين البيتين قصة ذكرها الحافظ المقري في "نفح الطيب" في ترجمة أبي الحسن ابن الجياب، أحد مشايخ لسان الدين ابن الخطيب، ونصه: "قال لسان الدين: ولما نظم القاضي أبو بكر ابن شيرين بيت الكتابة ومؤلف الجملة هذين البيتين: ألا يا محب المصطفى...إلخ، أخذ الأصحاب في تذييل ذلك؛ قال الشيخ الرئيس أبو الحسن ابن الجياب رحمه الله تعالى ورضي عنه:

فمن يعمر الأوقات طراً بذكره ... فليس نصيب في الهدى كنصيبه
ومن كان عنه معرضاً طول ذكره ... فكيف يرجّيه شفيع ذنوبه؟

وقال أبو القاسم ابن أبي العافية رحمه الله تعالى:

أليس الذي جلّى دجا الجهل هديُهُ ... بنور أقمنا بعده نهتدي به؟
فمن لم يكن من ذاته شكر منعم ... فمشهده في الناس مثل مَغيبه

وقال أبو بكر ابن أرقم رحمه الله تعالى:

نبي هدانا من ضلال وحيرة ... إلى مرتقى سامي المحل خصيبه

فهل ينكر الملهوف فضل مجيره ويغبط شاكي الداء شكر طبيبه؟

فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد ابن أبي المجد رحمه الله تعلى، فقال:

ومن قال مغرورا: حجابُك ذكرُه فذلك مغرور طريدُ عيوبِه

وذكر رسول الله فرضٌ مؤكد وكل مُحِق قائل بوجوبه"

وقال العارف الفاسي في حاشيته على "الصغرى"، عند كلامه على الفدية، ما نصه: "ثم الظاهر والمتبادَر من كلام الأيمة: الاقتصار على الهيللة في ذلك، وإن كان الكمال والأكمل: زيادة ذكر الرسالة؛ لأن الهيللة حقيقة وتوحيد، وذكر الرسالة يفيد الشريعة والتسديد، وذلك هو الكمال، ولكنه لا يلزم في هذا المقام، وإنما ذلك للسالك القاصد". اهـ.

[تاويل معنى وجوب قرن الذكرين]

فقف على قوله: "وإنما ذلك - أي: لزوم اقترانهما - للسالك القاصد". والسالك القاصد: هو من سلك على يد شيخ مربي، ومفاده: أن غيره لا يلزمه ذلك، أي: وإنما يكون أكمل. مع أنه صرّح جماعة بالوجوب مطلقا؛ منهم: الشيخ جسّوس على "الرسالة"، في قوله كما تقدم: "ومن ثَم كان من الحق الواجب على المؤمن إذا ذكر الله تعالى أن يعطف بذكر رسوله ﷺ"...إلخ، ومنهم: العلامة سيدي أحمد بن مبارك حسبما مر عنه أيضاً في قوله: "فالواجب على المؤمن الخائف على إيمانه: أن يداوم على ذكره ﷺ، وأن يجمع كلمتي الشهادة معاً ولا يفرقهما، لا في أول الأمر ولا في آخره"...إلخ. ومنهم: الإمام أبو عبد الله الخرّوبي، وتقدم - أيضا - قوله: "ولما قرن الحق سبحانه اسمه باسم حبيبه في الكلمة التي هي أصل السعادة وعماد الدين؛ وجب أن لا يفارق أحد الاسمين"...إلخ. ونقله شيخ الإسلام سيدي العربي الفاسي في حاشيته على "الدليل" وأقره، وتقدم كلام العارف ابن عطاء الله، وهو صريح في ذلك أيضا.

قلت: الجواب عن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن مرادهم بالوجوب: تأكد الطلب الذي ينبغي أن يتحافظ عليه

وأن لا يُغفل، ليوافق كلام غيرهم ممن نص على أن ذلك على جهة الأولوية والأكملية، وقد تقدمت نصوص كثير منهم، وتأتي أخرى أيضاً.

الثاني: أن مراد من عبّر بالوجوب؛ يعنى: في حق الفئة الضالة التي تزعم أن الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب عن الله تعالى كما مر، فيكون الوجوب على ظاهره، معاملة لها بنقيض قصدها، وإزالة للوساوس التي عَلَقت بقلبها كما هو موضوع كلام بعض من عبّر بالوجوب من هؤلاء. والله أعلم.

[هل يلزم قرن الذكرين في الفدية؟]

وقول العارف الفاسي: "إن الاقتران لا يلزم في الفدية". هو أحد قولين في المسألة، والقول الآخر: إنه يُشترط ذكر الكلمتين المشرفتين معاً في الفدية في كل مرةٍ، وأن ذلك شرط صحة فيها، بحيث لو تركت: محمد رسول الله، ولو مرةً واحدةً من العدد؛ لم يحصل الفداء. وهذا هو الذي عليه جماعة من الأيمة؛ كالشيخ الإمام العارف الكبير أبي عبد الله سيدي مَحمد (فتحا) ابن ناصر الدرعي، وتلميذه العلامة المحقق سيدي الحسن اليوسي، والشيخ الأستاذ الصالح أبي الحسن الدراوي الهدّاجي، والشيخ الإمام العارف سيدي عبد السلام بن سليم الأسمر الطرابلسي...وغيرهم.

وقد قال في "الأجوبة الناصرية" ما نصه: "ونهاية الفداء وصفته: لا إله إلا الله محمد رسول الله. سبعين ألف مرةٍ، ولا يقول صلى الله عليه وسلم إلا في المرة الأولى". اهـ منها بلفظها. ومعنى قوله: "لا يقولها إلا في المرة الأولى": أن بها يخرج من عُهدة الطلب، وينجو من الوعيد، وإن زاد عليها؛ فهو خير. وليس المعنى أنه: لا ينبغي الزيادة عليها، كما قد يتبادر من العبارة.!

وفي حاشية شيخ بعض شيوخنا: الفقيه العلامة سيدي الطالب ابن الحاج على شرح الشيخ ميّارة لـ: "المرشد" ما نصه: "وقال الشيخ أبو عبد الله سيدي مَحمد بن ناصر الدرْعي: لا بد من الجمع بين: لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله؛ بحيث لو ترك: محمد رسول الله ولو مرةً؛ لم يحصل الفداء، وينبغي أن يقول: صلى الله عليه وسلم. مرةً أو مرتين عند الشروع؛ ليخرج من وعيد البخل". اهـ منه بلفظه.

وقال في "الصفوة"، في ترجمة الشيخ الأستاذ العلامة المشارك، الولي الصالح العارف؛ أبي محمد سيدي الحسن بن مسعود الدراوي، المعروف بالهدّاجي، ما نصه: "ومن فوائده: ما نقله عنه تلميذه القاضي أبو محمد عيسى بن عبد الرحمن السَّكْتاني أنه: كان يقول في الفدية بالهيللة أنه: لا بد أن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. يعني: في كل واحدةٍ من السبعين ألفا. واستدل على ذلك بكلام لابن الفاكهاني في شرح "الرسالة"". اهـ.

ونقل البرموني في "روضة الأزهار" عن الشيخ العارف سيدي عبد السلام الأسمر أنه: كتب لبعض إخوانه في بعض نصائحه ما نصه: "ويتأكد في حقكم أن تفدوا نفس ميتكم من النار، والفدية هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، سبعون ألفاً، بشرط الجمع بين اللفظتين، بحيث لو ترك أحدهم: محمد رسول الله ولو مرةً واحدةً؛ لم يحصل الفداء، ويكون ذلك في ليلة الجمعة أو الاثنين، وينبغي أن يقول القائل منكم: صلى الله عليه وسلم. مرةً أو مرتين عند الشروع، ليخرج من وعيد: أبخل الناس من ذكرتُ عنده فلم يصلِ عليّ". اهـ. نقله في "شفاء الأسقام".

قلت: وهذا هو الحق الأبلج إن شاء الله تعالى، الذي يثلج له الصدر، وينشرح له القلب، ولا سيما في مثل هذا الموطن الذي يسعى فيه الإنسان في فك رقبته أو رقبة أخيه المسلم من عذاب النار، وهل ينال ذلك على غير يديه ﷺ وبواسطته؟. فيحتاج لزيادة التودد إليه ﷺ والتقرب والتعرف، والتحبب بمداومة ذكره، وتكرار اسمه العذب في سره وجهره، عسى أن تشمله عطفته، وتعود عليه بركته، وتدركه عنايته، وتحصل له في الدارين شفاعته، فتتم مطالبه، وتنجح مآربه، إذ عند ذكره تتنزّل الرحمات، ويعم الأفضال والخيرات.

ثم بعد كتْب هذا وقفت على سؤال رُفع لشيخ الإسلام، وعالم الأعلام، خاتمة الجهابذة المحققين؛ أبي حامد سيدي العربي ابن الشيخ أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، عن مسائل من الفدية: كم عددها؟، وهل الحديث فيها صحيحٌ أم لا؟، وهل يُزاد قولنا: محمدٌ رسول الله أو لا يزاد؟...إلخ...

فأجاب بما ملخصه: "إن المشهور المعروف في عدد فدية لا إله إلا الله

أنه: سبعون ألفا، وهو المذكور فيما يقال إنه حديثٌ، وإن الأحاديث المذكورة في الفدية لم يصح شيء منها عند الحفّاظ، لكن بعضها حكموا عليه بأنه موضوعٌ مكذوب، كالذي يذكر في فدية لا إله إلا الله؛ فقد سئل عنه شيخ الإسلام ابن حجر فقال: هو باطل موضوع، لا تحل روايته إلا مقروناً ببيان حاله. وبعضها حكموا عليه بغاية الضعف".

"فأما الحديث الموضوع؛ فجهابذة الحديث ونقاده مطبقون على أنه لا تجوز روايته إلا مع بيان وضعه، ليحذر منه، وأنه لا يجوز العمل به مطلقا. أما مع العلم بوضعه؛ فلا أظن أحداً من أهل العلم المعتبَرين يخالف في ذلك. وأما الضعيف؛ فيعمل به في الفضائل بشروط؛ منها: أن لا يشتد ضعفه، وأن يكون مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج المختَرَع الذي لا أصل له أصلاً، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله".

"ثم إن العلماء قالوا: إذا ذكر في قول أو فعل حديث موضوع فضلا عن شديد الضعف، وكان الشرع يشهد لحسن ذلك القول أو ذلك الفعل؛ فلنا أن نقول ذلك القول أو نفعل ذلك الفعل استناداً لشهادة الشرع، لا لما ذكر في ذلك. وعلى هذا المعنى قال القاضي أبو بكر ابن العربي في حديث: سورة المائدة نِعْمت الفائدة. حديث موضوع لا يحل لمسلم اعتقاده، أما أنا فأقول: سورة المائدة نعمت الفائدة، ولا نؤثره عن أحد، ولكنه كلام حسن".

"قال الشيخ أبو عبد الله المَوّاق: فكذلك أنت أيها المريد؛ إذا عثرت على خبر بفعل خير، أو كلام طيب، ووقع موقعا من قلبك، فطيب به وقتك، ولا تؤثره عن أحد إذا كان على الوصف الذي قاله مفتي تونس البرزلي: إذا شهد الشرع باعتبار جنسه، وليس في الأصول ما يخالفه؛ فاغتنمه. وقد شهد الشرع شهادة في غاية الوضوح والثبوت بفضل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وإذا كان قولها مرةً واحدةً ينجي من النار بفضل الله تعالى؛ فما بالك بسبعين ألفا؟. فلذلك قال نجم الدين الغيطي بعد أن ذكر أن حديث الهيللة موضوع: ينبغي للشخص أن يفعلها اقتداءً بالسادة، وامتثالاً لقول من أوصى بها، وتبركاً بأفعالهم".

"وقد ذكر الشيخ أبو عبد الله ابن ثابت في شرحه لكفايته؛ أنه: استحب الأيمة هذا العدد الذي هو سبعون ألفاً من التهليل، وحضوا عليه. وأما قولنا: محمد رسول الله ﷺ. فمن آكد ما يحافَظ عليه، وكثيرا ما يقتصر من يتكلم على هذه الفدية على ذكر: لا إله إلا الله. حتى أجاب شيخنا الإمام أبو عبد الله القصّار - رحمه الله تعالى - هل لا بد أن يزيد الذاكر لفظ: محمد رسول الله ﷺ، أو لا يزيده إلا على وجه الكمال؛ بأن ابن ثابت اقتصر على التهليل على ظاهر الحديث المذكور في ذلك، ولا شك أن الذي يزيد: محمد رسول الله ﷺ، أفضل بكثير، وما ذكره الشيخ السنوسي في علمكم. اهـ".

"وقد قال غير واحد من العلماء: إن كلمة التوحيد حيثما وردت في الشريعة فهي مقترنة بكلمة الرسالة لفظاً أو قصداً، وإذا ذكرت كلمة التوحيد وحدها كان ذلك جارياً مجرى الترجمة عن مجموع الكلام".

"قال ابن الفاكهاني في "المنهج": "كقولك: قرأت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]. والمراد: جميع السورة اهـ. وقد نص الشيخ أبو عبد الله الساحلي على أنه: لا بد أن يقرن في الذكر بين الشهادتين. وقرر ذلك بما لا مزيد عليه، ونقله الشيخ أبو عبد الله السنوسي مرتضياً له، إلا أنه لم يسم قائله، وإذا كان ذلك في مطلق الذكر؛ ففي هذا المقام - الذي هو مقام الشفاعة وطلب العفو - أولى وأحرى أن يُذكر الشفيع ﷺ".

"وقد سئل الشيخ أبو زكريا يحيى بن محمد السرّاج - رحمه الله - هل يشترط في الفدية أن تكون في يوم، وهل يأتي بكمال الشهادتين؟. فأجاب بأنه: لا يشترط أن تكون في يوم أو في يومين، ويكمل الشهادتين". اهـ كلام سيدي العربي الفاسي باختصار كثير، ونحوه لولد أخيه العلامة سيدي عبد القادر الفاسي حسبما في نوازله الكبرى. وانظر أجوبة العلماء في مسألة الفدية هذه؛ كالعارف الفاسي، والعلامة اليوسي، والشيخ المسناوي...وغيرهم.

وفي بعض رسائل الشيخ أبي الفيض [محمد بن عبد الكبير الكتاني] رضي الله عنه ما نصه: "اعلم أن هاتين الكلمتين الشريفتين أختان متقارنتان - كما قال اليوسي - لا تقوم إحداهما بدون الأخرى، شرعا وعقلاً. أما شرعاً؛

فلأن الإيمان لا يُقبل إلا بمجموعهما، ولأجل هذا التقارن؛ يكتفى بالأولى كثيراً؛ نحو: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة".

"وأما عقلاً؛ فلأن الأولى مادة للثانية، والثانية مُظهرة للأولى. وبيان ذلك: أن الألوهية عنها نشأت الرسالة، والرسالة بها ظهرت الألوهية؛ فكانت الأولى مقتضية للثانية كاقتضاء السبب للمسبب. والثانية مقتضية للأولى على العكس؛ إذ هو ﷺ الدليل إلى الله تعالى، ولولاه ما عُرف رب من مربوب، ولا إله من مألوه، ولا عُرفت أصول التوحيد ولا الأصول التي عليها صلاح العالم، ولا الفروع التي يتعبد بها، ولبقي الخلق في وَحشة الجهالة هائمين. وهذا هو دليل الإمام الساحلي في قوله: وصِلْ بين ذكر المصطفى وإلهه. . .إلى أن قال: فدع قول بدعيٍّ تدنَّسَ بالوزر. فجعل إنكار قول: محمد رسول الله مع الهيللة من قول أهل البدع، وقد سلمه جمع؛ منهم: المحقق في شرح "المرشد" مقتصراً عليه، ونحوه للإمام السنوسي في شرح "الصغرى" ". اهـ كلامه ملخصاً. وما ذكره من أن: ذلك من قول أهل البدع؛ قد تقدم نحوه للعارف الفاسي، والعارف الهاروشي، والشيخ جسّوس. . .وغيرهم.

ولنختم هذه النقول بكلام طراز هذه العصابة، ومقتدى هؤلاء الأيمة، الذي طال ما أشاروا إليه، وعولوا في كلامهم عليه؛ وهو: الشيخ الإمام، العارف الحجة الهمام، مربي العارفين، وقدوة السالكين، وعمدة الصالحين، الراسخ المقدّم في الولاية والعرفان، المتفَق على ما له من الجلالة وعلو الشان؛ أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الساحلي، المتوفى بمالقة سنة 537 عن 78 سنة.

قال الحضرمي في فهرسته: "كان رجلاً كبيراً، من المشيخة المحققين، والأولياء المجتهدين، ذا قدر وديانة، مقيماً للسنن والأذكار، بقية الصالحين، له تواليف وشعر كثير". اهـ. وقد ترجمه بـ: "الإحاطة" بترجمة حافلة، بل أفرده بعضهم بمؤلف. أخذ أولاً عن الشيخ أبي القاسم المريد وغيره، ثم استقل أخيراً بطريقته التي صارت من جملة الطرق المنتشرة، وقد ذكرها كذلك صاحب "المنح البادية" وغيره من أرباب الفهارس.

وكلامه المذكور ذكره في كتابه "بغية السالك في أشرف المسالك"، ولننقل هاهنا ملخصه، فنقول: قال رضي الله عنه: "والذي درج عليه أهل هذا الطريق: تركيب التسبيح بذكر التصلية؛ وهو: توسل بالنبي ﷺ في فتح أبواب غوامض الصدق، وأكثر ما يستعملونه في ذلك: سبحن الله العظيم وبحمده اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله. وإياك وترك الدليل في كل مقام؛ أي: صلة ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى، ولو بالذكر المفرَد".

"ولم يزل الشيخ أبو القاسم المريد يحض على هذا ويقول: هو مذهب شيوخ هذه الطريق. وهل تحفظ الرسوم الشرعية عند ورود الاستغراق في أسرار التحقيق إلا بذكر النبي ﷺ؟.! مع ما في ذلك من تيسير الفتح، وتسهيل الارتقاء. فبالشفعاء تدرك الآمال، وتقضى الحاجات، وهذه نكتة لم أر من تعرّض لها من أهل هذا الشان، ولا أدري هل ذلك منهم كتمانٌ على سبيل الصيانة لهذه الحكمة النفيسة أو جهلٌ بها؟!".

"فإن قلت: قد ظهر أن الذكر المناسب لهذا المنزل هو: الذكر المفرد، فكيف يكون تناوله؟".

"فالجواب: إنَّ وصْل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى من الأمر الضروري، لا سيما في المواضع التي يحذّر فيها من صدمات الحقيقة، إذ تحفظ عليه إذ ذاك الرسل الشرعية، فالوجه في وصله هنا بالذكر المفرَد: أن ينظر في صاحب هذا المنزل، فإن اقتضت حاله وصله بالتصلية؛ فيقول: الله. صلواته وسلامه على رسوله محمد وآله. ولا بد من وصل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى، إما بتصلية وإما اعترافاً بالرسالة، وقد تتضمن التصلية معنى الرسالة، فتقوم مقام الأمرين، وهذا في أغلب الأحوال وأكثرها".

"وقد ترد على أصحاب المراقبة والمشاهدة أحوال يفردون فيها اسم الله عز وجل، ويذكرون فيه اسم النبي ﷺ بعد ذلك، أو قبله منفصلاً، بشرط أن يكون قد بقي عندها من الصلاة على النبي ﷺ ما تحفظ به الرسوم الشرعية عند ورود تلك الأحوال، وإلا؛ فلا بد من ذكر النبي ﷺ موصولاً بذكر الله تعالى على كل حال".

"ولا تظن أن قيام معنى الصلاة على النبي ﷺ بالروح شاغلاً عن قيام سر التوحيد؛ فإن من خاصية ذكر النبي ﷺ: أنه لا يشغل عن أسرار ذكر الله تعالى، بل يزيد في مادة العثور عليها، ويقوي وضوحها. وإذا تأملت حقيقة ذكر الصلاة على النبي ﷺ؛ وجدتها تستمد من حقيقة التوحيد، فالحقيقتان في الحقيقة حقيقة واحدة، وقد جعل الله تعالى ذكر رسوله محمد ﷺ نوراً يهتدى به، وسبباً يُرقى به. وهذه نكتة بديعة اختص بها عقد هذا المسلك الشريف، قلَّ من تعرض للكشف عنها".

"حتى إن بعض من غمره الجهل وعمه الضلال، يجعل أصحاب هذه الطريق من الصلاة على رسول الله ﷺ من قبيل الغلو المكروه، وهيهات؛ عَمِيَتْ عليهم الأنباء، وأحاطت بقلوبهم الظلْماء، وطمس بصيرتهم العماء، وهم لا يشعرون. ومن رام تحصيل أسرار التوحيد بالإعراض عن ذكر النبي ﷺ فهو راكب في الغرور، والسالم في الغرور قليل؛ لأن بحار الحقائق إذا تراكمت أمواجها، وتلاطمت لججها؛ ملكت أسرار الروح، فاستغرق فيها، فإن كان عرياً من قيام معنى ذكر النبي ﷺ؛ فلا شك أن الرسوم الشرعية تحفظ عليه، فتحطم سفينة سلوكه بين بحار أمواج الحقائق، وربما تردى في مهواة التعطيل".

"فإذًا؛ لا غنى لصاحب هذا المنزل من وصل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى على كل حال؛ ليكون له دليلاً في مفاوز الحقائق، وجنة وثيقة من تعطيل الرسوم الشرعية، ولا دليل في مثل هذه السباسب الجبروتية، كالنبي ﷺ الدال على الله، العارف به، المخصوص لديه، الكريم عليه. ومن لازَمَ دليله اهتدى، ومن فارقه ضل وتردى. فلا بد من التمسك بركابه، والتعلق بأذياله، ولا يطمع في كمال اتباعه من قصر في محبته، كما لا يطمع في محبته من قصر في ذكره".

"فمن نسي الدليل؛ ضل بذهوله عما دل عليه، فلا غنى عن ذكر الدليل؛ لأن بنيانه سبب لبنيان ما دل به من الشروط في معرفة الله تعالى. فلذلك وصلوا ذكر الدليل بذكر المدلول عليه، فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول

الله. خلافاً لمن طبع الله على قلبه فلم يهتد سبيلا، ومكر به شيطانه فأضله تسويلاً؛ وهي الطائفة الخاسرة، والزمرة الفاجرة، الذين يقولون: الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب عن الله تعالى، وشد بعضهم هذه العبارة فقال: إذا أفرد التهليل عن إثبات الرسالة؛ كان أبلغ وأسرع في تأثير معنى التوحيد. واحتج لذلك بأن قال: للتهليل معنى، ولإثبات الرسالة معنى، وإذا اختلفت المعاني على الباطن؛ ضعف التأثير، وبعدت الثمرة. قال: وإنما يكون وصل الذكرين عند الدخول في الإسلام!"

"وهذا - والعياذ بالله - من الفتن التي لا مورد لها غير النار، ولا عقبى سوى دار البوار، وما ذلك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة، والانحلال من ربقتها، وتعطيل رسومها. ولو علم هذا الضال ما تحت قولك: محمد رسول الله. من الأسرار التوحيدية، والحكم التهليلية؛ لا نقشع عنه العمى، فأصاب المرمى".

"ومن الواجب: أن نفوه بنبذةٍ تحمل السالك على الهداية، وترفع عنه ظلام العماية والغواية، فأقول مقتصراً، وبالله منتصراً: إن الله عز وجل أودع في ذكر نبيه مع ذكره فوائد وأسراراً؛ منها: أنه ﷺ باب عظيم إلى معرفة الله عزل وجل؛ فمن قصد معرفة الله من بابها؛ نالها ووصل إليها، ومن أعرض عنها؛ حُرمها ومنع الوصول إليها. ومنها: أن التوحيد لا يُنال سره إلا بالإيمان، والإيمان لا يصح إلا بإثبات الرسالة، لأنها أحد أصلي التوحيد، وكما يطلب السالك بما يحرك عنده قوة الإيمان بذكر التهليل؛ كذلك يطلب بما يحرك عنده قوة شرط الإيمان بإثبات رسالة الدليل".

"ومن تأمل بتحقيق النظر سر الرسالة؛ وجده من التوحيد، وذلك أن النبي ﷺ لم يكن نبياً ولا رسولاً بنفسه، بل بسر أسر فيه دون غيره، وذلك السر هو من الغيب الذي خُص به، وأهّل له، ولذلك السر الوجداني الصادر عن الغيب وجب التعظيم والتوقير، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، فجعل طاعته في طاعة رسوله".

"ومنها: أن ذكره ديدنا، يؤكد اتباعه، الذي هو فرض على الأعيان، وبه

النجاة والخلاص؛ لأنه يقتضي حبه، وحبه يقتضي اتباعه وطاعته.

ومنها: حفظ العهد للوساطة؛ بأن يُذكر ولا يُنسى، وهو ﷺ الواسطة بيننا وبين الله تعالى والدال عليه، فمن حُسن العهد: أن لا يُنسى، وأن يُذكر. كيف ولم ينس في حياته ولا عند مماته ولا عند الحشر ولا عند النشر؟!"

"ومنها: أن ذكره نورٌ يسطع في أرجاء قلوب محبيه وذاكريه. أتُرى يبقى مع النور أشكال؟، أيوجد مع الضياء ظلام؟.! فما انبهم في الباطن من أسرار التوحيد، أو غاب عنه من معنى العبودية؛ لا شك أن بيانه وظهوره يدركان بذكره ﷺ، ولا مطمع في درك الحقائق بالترقي إلى حضرة التخصيص لمن أعرض عن ذكره والصلاة عليه ﷺ، أو تكاسل في ذلك. جعلنا الله ممن اختص بمحبته، وواصل ذكره وظفر بقربه". اهـ المراد من كلام الإمام الساحلي رضي الله عنه، باختصار وتقديم وتأخير؛ لأنه ذكره مفرَّقاً على حسب مقامات الإسلام والإيمان والإحسان، وقال في آخره:

"وبهذا يظهر لك ويتبين أن لذكره ﷺ في كل مقام اختصاصا؛ فاختصاصه في مقام الإسلام: بالاهتداء إلى الطاعات. وفي مقام الإيمان: بالاهتداء إلى حقائق المعتقدات. وفي مقام الإحسان: بالاهتداء إلى أسرار المشاهدات. فمن عدل عن ذلك؛ حُرم موارد الاختصاص، ومن أحله من باطنه المكان المكين؛ بلغ به مراتب التمكين. فلا بد من ذكره في كل المقامات متصلاً بذكر الله تعالى ومتفرداً؛ ليدخل السالك في خدم دليله موارد التخصيص، فقد يدخل الخديم حضرة الملك في خدم مخدومه فيكرَم من أجله، ويقرَّب بسببه". اهـ

وقد نقل طرفاً منه: الشريف العلامة الفاضل سيدي حمدون الطاهري في كتابه "تحفة الإخوان"، وقال بعده ما نصه: "وقال رضي الله عنه - يعني: الإمام الساحلي - يمدح النبي ﷺ في قصيدة له؛ وهي: هذه:

ملائكة الرحمن جل جلاله ... تحف بقومٍ يذكرون محمدا
يقولون: زيدوا من مدائح أحمد ... وجُدّوا؛ فلا تنسوا مدا الدهر أحمدا
فجبريل والأملاك في درجاتهم ... غذاؤهمُ ذكر الشفيع مسرمَدا
وخُدّام ربي في السماوات كلها ... يصلّون إكراماً على علَم الهدى

وجملة رسلِ الله كل بذكره توسلَ للرحمن في موقف النِّدا
وهل سيد السادات إلا نبيُّنا أتى رحمة للعلمين وسيدا؟!
وما رافعٌ للحجْب إلا محمدٌ وما منقذ غيرُ الحبيب من الردى
وما المصطفى المختارُ إلا مرفّعٌ وذاكره أضحى بذكره سيدا
أضاءت قلوبُ السالكين بذكره فيا حبذا قلبٌ يحب محمدا
وما ذكر خير الخلق إلا مطهِّر لأدناس قلب قد أضر به الصَدا
وهل تثبت الظلماء في قلب ذاكر تلألأ بالنور القوي توقَّدا
وأي سناء مثلُ نور محمد به أشرقتْ أنوار قلب من اقتدى؟!
تعلقْ بأذيال النبي ولذ به تفز بجزيل الأجر يا طالب الهدى
وكم ضمن المختار للسالك الذي يصلي عليه ألفاً ذكرا مقيّدا
يبشَّر بالجنات قبل وفاته بشارة تخصيص بذلك أوعدا
وأما إذا صلاه في كل مطلع فيبصرُ قبل الموت في الخلد مقعدا
وليست بشارة كرؤية ناظر وإن كانت البشرى يُزاح بها الردى
وأما الغنى للنفس لا فقر بعده فبالنصف من الفا فشائك والهدى
وفي مائة لا شك يحرَم جسمُه على النار يا هذا؛ فعظم محمدا
وبعد صلاة العصر من يوم جمعة يصلى ثمانون على صاحب الهدى
ليُغْفَر من أوزار ذاكر أحمد ثمانون عاماً. هكذا جاء مسنَدا
وأما جبان الطبع في معرِك اللقا فيرجع بالهادي شُجاعاً وسيدا
كما أن بالمختار يذهب بخلنا فإن لم تصدقنا؛ فمد له اليدا
وكل صفات المجد يُمنحها الفتى بذكر نبي في العُلا بلغ المدى
وذكر حبيب الله لا شك عندنا طريق إلى الجنات، فاسلك مجدِّدا
ورافق أخا الإرشاد ينبئ ناصحا عن المسلك السامي ولا تك مفرِدا
ولذ بإمام لا يفارق سنة ودع عنك من أضحى عن الرشد مبعِدا
فما يرتقي السبّاق إلا بهذه ألا يا فتى فاعبُر طريقاً مؤيَّدا

وأي طريق مثله وإمامنا   أبو بكرٍ الصديق بالصدق قُلِّدا
وما فَضَلَ الصحْبَ الكرامَ بصومه   ولا بصلاة في الدُّجاء تهجّدا
ولكن بسر قد أقر بصدره   به فاق أهل الأرض مجداً وسوددا
وما كان إلا مولعاً متمسكا   بذكر نبي طاب ذكراً ومولدا
فلما تغالت في الأنام صلاته   على حِبِّهِ؛ أضحى العليَّ الممجَّدا
ولم يك مكثاراً للاعمال ظاهراً   ولكنه للذكر دأباً تجرّدا
أتى عمرُ الفاروقُ يسأل أهله   عن اعماله في بيته يبتغي الهُدى
فقالت: وربي ما رأيت لجسمه   كثيراً من الأعمال يبغيه مقصِدا
وما وِرْدُه إلا ثلاثةُ عشْرة   من الركَعات المحكَمات تعبُّدا
ولكنه قد كان يجلس دائما   بوجهه للبيت الكريم مقعَّدا
يغمِّض عينيه ويجعل رأسه   على ركبتيه ساهراً متهجدا
ويزفر زفرة يشم روائحا   من الكبد الزكيِّ أسا وتردُّدا
وما تلكمُ الزفَرات إلا لأنه   يردد بالقلب المبارك: أحمد
ومن يلحق الصدّيق في صلواته   على حِبِّه، من ذا يزاحمُ مفرَدا
يحق لطلاب الرشاد اتباعه   وهل فاز إلا من بأفعاله اقتدى؟!
فزاحم صفوف السالكين مصلياً   أيا ساحليُّ اذكر نبيك سرمدا
فما يعصم الإنسانَ من لحج الردى   سوى ذكر مختار إلى الرُّشْد أرشَدا
فخذ منه ورداً ألف ذكر عشية   وألفاً إذا في الصبح إشراقُه بدا
ولو أبصر الإنسان بدر رشاده   لكان لذكر الهاشميِّ مردِّدا
فأنجاكمُ في الحشر في كل موطن   من اهوالها، فز بالنبي تزودا
ومنوا على أبصاركم بتأملي   وطيبوا بإشراقي، فوجهي لكم بدا
فقد طال ما كنتم تحبون رؤيتي   وتدعون فيها قائمين وسُجَّدا
وكنتم مدا الأيام تبغون رؤيتي   إلى يثرب من كل أرضٍ تعمّدا
فهذا وصالٌ ليس ينفكُّ دائماً   وهذا نعيمٌ لا يزال مؤيّدا

مـن الـلـه أرجـو أن يـفـرِّحـنـا بـه إذا أسبـق الأنـجـاد لـلـمـصـطـفـى غـدا
ويـجـعـلـنـا مـن خـيـر قـومٍ تـسـابـقـوا إلـيـه، وجَـدّوا يـطـلـبـون مـحـمـدا
ويـدخـلـنـا الـجـنـات فـي خـيـر زمـرة مع المصطفى المختار أعلى الورى غدا
صـلاةٌ وإكـرام عـلـيـه ورحـمـةٌ وأزكـى سـلام لا يـزال مـجـددا

انتهت القصيدة المباركة بحمد الله تعالى، ورحم الله ناظمها، ونفعنا به، وأعاننا على القيام بما فيها وما حض فيها عليه. . .آمين يارب العالمين". اهـ كلام "تحفة الإخوان" بلفظه.

فذكر - رحمه الله تعالى - أن بذكره ﷺ تنال السيادة، وتضيء قلوب السالكين، وتطهر من الأدناس والصدا، فلا تثبت فيها الظلمة أبداً، لإشراقها بالنور، وهما ضدان لا يجتمعان، وبه تنال صفات المجد، وأنه يعصم من الردى ويحفظ من كل سوءٍ ومكروهٍ؛ لما تقرر وسيأتي من أنه ﷺ جليس من ذكره، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33].

وأن به تحصل النجاة في الحشر من أهوال يوم القيامة، وأنه الطريق الموصلة إلى الجنة، والطريق التي يعبرها السباق ويرتقون بها، وأنها طريق سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه القدوة الأعظم للأمة بعده ﷺ، وهي - أيضاً - طريق السلف الصالح، وعليها السالكون إلى الله تعالى من المتصوفة ومشايخ الطرق، وقد قدمنا عنهم من ذلك ما فيه مقنع وكفاية، مِنْ حضهم على اتصال الذكرين واقترانهما، وعدم التفريق بينهما، فكلامهم حجة على كل من اتصل بطريقهم، وانخرط في سلكهم وفريقهم.

[قرن الذكرين هو مذهب أئمة الشاذلية وشيوخها]

فها أنت ترى الإمام ابن عطاء الله - الذي هو مرجع طريق الشاذلية بالمغرب وغيره، وسائر فروعها؛ كالوفائية والبكرية، والزروقية والجزولية والمليانية - كيف رجح ما ذكر، واستدل عليه وأيده كما مر في كتابه "تاج العروس"، وفي كتابه "مصباح الأرواح"، وغيرهما من كتبه، وهو الإمام القدوة المتبوع في هذا الفن وغيره، وقد تلقت الأمة كتبه بالقبول، وعوّلوا عليها في طريق القوم. فكلامه حجة على كل من بطريقته اتصل، وبسلسلته وصل.

وطريق الشاذلية هي أصل جل الطرق الموجودة اليوم، وإليها مرجعها؛ فهي حجة على الجميع، وتقدم قول العارف الفاسي: "وطريق الشاذلية مبنية على الصلاة على النبي ﷺ، وقد قال إمامهم أبو الحسن: صلاةٌ واحدةٌ عليه ﷺ تفرج كل هم وشدة في الدنيا والآخرة"، وتسليمه لكلام السنوسي في شرح "الصغرى"، ومتبوعه الساحلي، بل وتأييده - كما سبق عنه كما مر عنه أيضاً - أن اقتران كلمتي الشهادة يلزم السالك القاصد.

ولا يخفى أن العارف الفاسي هو مرجع الطريقة الدرقاوية الآن؛ فكلامه حجة على كل من تمسك بها وانتسب إليها؛ فإن الشيخ العارف الكبير مولاي العربي الدرقاوي أخذ عن الشيخ العارف سيدي علي الجمل عن الشيخ سيدي العربي ابن عبد الله عن أبيه العارف الكبير سيدي أحمد عن العارف سيدي قاسم الخصَاصي عن الشيخ سيدي محمد ابن عبد الله عن العارف الفاسي.

وكذلك الطريق الناصرية حسبما تقدم عن إمامها، وكذلك الطريق الصادقية؛ تتصل بالشيخ زرُّوق من طريق سيدي عبد الله الخياط عن الملياني عنه، وهو عن الإمام السنوسي فارس هذه الميادين، وقد تقدم كلامه.

والشيخ زروق هو مرجع طريق الشاذلية وفروعها بالمغرب وغيره، وقد علمت أنه تلميذ الشيخ السنوسي.

وكذلك الطريق الوزانية؛ وشيخها هو: القطب الكبير مولاي عبد الله بن إبراهيم الشريف الوزاني، أخذ عن الولي الصالح العلامة سيدي محمد بن عطية السلوي؛ دفين حومة الرميلة من فاس، وهو عن شيخه أبي الحسن سيدي علي بن محمد الحارثي عن شيخه سيدي أحمد بن موسى السوسي عن شيخه سيدي عبد العزيز التباع عن الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي.

ومن فروع الشاذلية أيضا: الطريق الخلوتية، ومرجعها بالمغرب من طريق القطب مولاي أحمد الصقلي، وقيامها بالمغرب إنما هو من جهته، وشيخه وعمدته فيها: الشيخ أبو عبد الله سيدي مَحمد (فتحا) بن سالم الحفْناوي المصري الشافعي، وهو عن الولي الكبير سيدي مصطفى البكري، وعن مولاي أحمد الصقلي انتشرت هذه الطريق بالمغرب، وأخذها عنه به جماعة؛ كالشيخ سيدي عبد الوهاب التازي وغيره.

[قرن الذكرين هو مذهب أئمة النقشبندية كذلك]

وكذلك الطريق النقشبندية، التي هي مشابهة للشاذلية ومضاهية لها، وقد قال الإمام العلامة المحقق أبو سالم العياشي في رحلته ما نصه: "لطيفه: ولما كانت طريق ساداتنا النقشبندية مع نفاستها، وظهور محاسنها، ولطيف أسلوبها، وجريانها مع الكتاب والسنة، قلما توجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم، لبعد مشايخها، فلم تصل تآليفهم إليه، ولا دخل هذه البلاد أحد من أهلها - فيما نعلم - مع اكتفاء أهل المغرب عنها وعن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها، واتضح أمرها، وأمنت غائلتها، واستقامت أصولها، وجرت مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها، طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع؛ الإمام أبي الحسن الشاذلي، وأتباعه أيمة الهدى والحق، وأصحاب الإخلاص والصدق، رضي الله تعالى عن فريقهم، وجعلنا من سالكي طريقهم. ولعمري - وما عمري علي بهين - ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد، وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد:

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها

"ومن تأمل رشحات النقشبندية، وحِكَم الشاذلية؛ لم يجد بينهما اختلافاً إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية، والمنازلات العرفانية؛ فلا فرق أصلاً".

"رأيت أن أذكر في هذه اللطيفة بعض أصول طريقهم، وكيفية سلوكهم، مع الاختصار، ليستفيد ذلك من طلبه. وقدا قتطفت من كلام الشيخ تاج الدين بن عثمان، ومن كلام الكاشفي، ما يكون فيه إشارة إلى المقصود، عوناً على المراد. فأقول":

"قال الشيخ تاج الدين في بعض رسائله ما نصه: فصل في طريق الوصول إلى الله تعالى على طريق السادات النقشبندية، إما بمحض الصحبة، أو بالذكر، أو بالمراقبة، وطريق هذه السلسلة: أن تذكر الكلمة الطيبة، أعني: لا إله إلا الله محمد رسول الله. بحبس النفس، وتراعي العدد الوتر، وإذا جاوز

العدد إحدى وعشرين مرة ولم يظهر للذاكر أثر؛ فهذا دليل على عدم قبوله، فليشرع في ابتداء الذكر من أصله، وأثر الذكر هو: أنك في زمان تنفي عنك وجود البشرية، وفي زمن الإثبات يظهر فيك أثر من آثار تصرفات الجذبات الإلهية، والأثر متفاوت بحسب الاستعدادات".

"ثم قال: وكيفية الذكر: أن تجعل اللسان ملتسقاً بسقف الفم، وتلصق الشفة بالشفة، والأسنان بالأسنان، وتحبس النفس، وتشرع في كلمة "لا" مبتدأً بها من السرة، وتصعد بها إلى جانب الدماغ، فإذا وصلت إلى الدماغ؛ ملت بـ: "إله" إلى جانب اليمين، وبـ: "إلا الله" إلى جانب اليسار، ورميت بها على القلب الصنوبري بقوةٍ، بحيث يظهر أثرها وحرارتها في سائر البدن، وتميل بـ: "محمد رسول الله" من جانب اليسار إلى جانب اليمين، أي: تأتي بها بينهما".

"ثم قال نقلاً عن بعض العارفين من رجال هذه الطريق في معنى الكلمة الطيبة: إن لا إله إلا الله معناه: نفي الألوهية الطبيعية، وإثبات المعبود بالحق. ومحمد رسول الله معناه: أنك أدخلت نفسك في مقام: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾". اهـ.

وقال أيضاً بعد أن ذكر أن طريق إمام هذه الطائفة العلية، ورأس هذه العصابة السنية: الشيخ عبد الخالق العجدواني رضي الله عنه، حجة على جميع الفرق، ومقبول لهم؛ لأنهم كانوا على الدوام على طريق الصدق والوفا، ومتابعة الشرع وسنة المصطفى، ومجانبة البدع ومخالفة الهوى، ما نصه: "وكان يخفي طريقه عن الأغيار، ويداوم على الذكر الذي وصل إليه من الخضر عليه السلام، والخضر عليه السلام كان أمره أن يذكر: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فداوم عليه بشروط ذكرها، وحصل له القبول، وفتح له أبواب الفتوح". اهـ كلام أبي سالم في "الرحلة" ملخصاً.

ثم وقفت على رسالة للشيخ الإمام، العارف الحجة الهمام، المحقق الرباني؛ سيدي محمد الحراق، الذي هو أحد فروع الطريق الدرقاوية الشاذلية، قال فيها في معنى الشهادتين ما نصه: "أشهد أن لا إله إلا الله؛ جمعٌ لحقيقة التوحيد باطناً، وأشهد أن محمداً رسول الله؛ جمعٌ لماهيته

ظاهرا؛ لأن الحقيقة المحمدية هي ظاهر التكوين، والحقيقة الأحدية هي باطنه، ومن أراد الدخول في الإسلام؛ تعيّن عليه إخلاص التوحيد من ظاهره وباطنه؛ لأن ملكوت كل شيء وحقيقته الباطنة جميعاً أحدية، وملك كل شيء وحقيقته الظاهرة جميعاً محمدية، فلا بد من إقراره بالتفريد ظاهراً وباطناً؛ لأنه هو في خاصة نفسه أحديٌّ باطناً، ومحمدي ظاهراً، فلا بد من الاعتراف الدال على باطنه وظاهره، فلا تجزيه لا إله إلا الله وحدها؛ لأنهما إقرار بالتفريد والأحدية باطناً فقط. ولا يجزيه محمد رسول الله وحدها؛ لأنه اعتراف ظاهراً فقط، فلا بد من الجمع بينهما. وهذه هي النكتة في دخول الكافر الإسلام بالشهادتين".

"وفي كل حال؛ لا بد من التلبس بمعنى هذا الاعتراف علماً وشهوداً، وبذلك جاء الحديث بالبطاقة التي يخرجها الحق سبحانه لمن غلبت سيئاته حسناته حتى يرى أنه هالك، فيقول سبحانه: إني خبأت لك عندي خبئاً، فيقول: يا رب؛ وما هو؟. فيخرج له بطاقة مكتوب فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فتوضع في الميزان، فتطيش سيئاته. وإنما طاشت بسببها؛ لكون ذاكرها كان حين ذكره عند الحق سبحانه علماً وشهوداً، ويدل لذلك قوله تعالى في الحديث: عندي. وإنما وسعها الميزان؛ لما فيها من الفرق، وهو: لا إله إلا الله، ومحمدٌ رسول، الدال على عالم الملك، ولولاه لما وسعه ميزانٌ ولا أرضٌ ولا سماءٌ". اهـ باختصار.

[سبب إعراض المريدين الحاليين عن قرن الشهادتين أثناء الذكر]

قلت: إن قلت: هذا الذي ذكرته عن أيمة الطرق ومشايخها مخالف لما عليه المنتسبون اليوم في زواياهم، فإن عَمَل جلهم فيها على إفراد التهليل غالبا، ثم يختمون العدد بذكر كلمة الرسالة، وكثيراً ما يذكر ذلك بعض المريدين في معرض الاحتجاج، لعلمهم بأنهم كذلك تلقوا الورد من مقدمي طريقهم إلى الشيخ.

قلت: أما أولاً؛ فبعد أن قررنا أصل الطرق، فلا يضرنا الفرع المخالف لأصله، وادعاؤهم اتصال السند بذلك إلى الشيخ في عهدتهم. وعلى فرضه؛

فلم ينه الشيخ الواصل السند إليه عن ذكر كلمة الرسالة قطعاً، معاذ الله أن يصدر ذلك من مسلم فضلاً عن شيخ مرشد يدعو إلى الله، هذا لا يكون أبدا، وإذا وجد في كلام متبوع ما يؤذن بالاقتصار على التهليل مثلاً؛ فيحمل على أنه اقتصر عليه اكتفاء، لأنه ترجمة على الكلمتين معاً كما مر، فأخذ بظاهره من لم يفهم، ثم زاد به الجهل إلى أن صار يعتقد النهي عن وصل الذكرين، ويقول: "نحن مسلمون، ولا نشك في إيماننا، فلا حاجة بنا إلى ذكر الرسالة". وليت شعري؛ إذا كان الأمر على ما زعم؛ فأي حاجة به إلى ذكر كلمة التوحيد أيضا؟، لأنه مسلم.

وأما ثانيا؛ فقد قدمنا أنا لا ننازع في أن لا إله إلا الله وحدها ذكر يثاب عليه الثواب الجزيل، بل من أفضل الذكر، وكون الجمع بين الكلمتين أكمل لا يقتضي أن الاقتصار على الأولى ليس بكمال. فقد خلق الله الحسن والأحسن، والكمال والأكمل. والمضر هو: الاعتقاد الباطل، فليت هذا الذاكر المفرِد اقتصر على ذكره ولم يعتقد ما يخل بالأدب مع الله أو مع رسوله، فإنا لا ننكر عليه ذلك، وإن كنا نرشده إلى الأكمل الذي هو وصل الذكرين ابتداء وانتهاء.

فها نحن قد أتينا بحول الله وقوته بما لا مزيد عليه من النصوص، المقنعة للعموم والخصوص، من كلام الأيمة الأعلام، وجهابذة فحول الإسلام، الصريحة في طلب اقتران ذكر نبينا ﷺ بذكر ربه تعالى، وعدم افتراقهما، والدالة على ذلك، مما يشفي ويكفي، زيادة على الآيات والأحاديث المقتضية لذلك.

ولنختم هذا المقصد النفيس بتتمتين مهمتين:

الأولى: [يلقن الميت الشهادتين معا عند الاحتضار]:

لما قال الشيخ خليل في "المختصر"، في باب: الجنائز، عطفاً على المندوبات: "وتلقينه الشهادة"؛ كتب عليه الزرقاني ما نصه: "وأراد بالشهادة: الشهادتين، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، كقوله: أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. وقد علم أنها لا تكفي دون: محمد

رسول الله". اهـ منه بلفظه، وسلمه الشيخ بناني، والشيخ الرهوني بسكوتهما.

بل أيده الشيخ الرهوني؛ فنقل عن "التوضيح" ما نصه: "وظاهره: الاقتصار على لا إله إلا الله، وقال بعضهم: تلقين الشهادتين. ابن الفاكهاني: ومراد الشرع والأصحاب: الشهادتان معا، واكتفي بذكر أحدهما". اهـ منه بلفظه.

وهذا هو الذي نص عليه ابن المنير وبهرام في "شرح المختصر"، وأبو زيد الثعالبي في "العلوم الفاخرة" نقلاً عن ابن الفاكهاني، ونصه: "قال ابن الفاكهاني: قوله ﷺ: لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله. أي: مع محمد رسول الله، فيلقن الشهادتين معا، وهذا كقوله ﷺ: أمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. أي: مع الشهادة الأخرى، وهي: محمد رسول الله ﷺ. قال: وهذا أمر لا ينبغي أن يُخْتَلَفَ فيه؛ إذ لا يكون العبد مسلماً إلا بهما، فينبغي أن يلقنهما جميعاً ليموت عليهما". اهـ بلفظه.

وقال الشيخ بهرام في كبيره عند قوله: "وتلقينه الشهادة" ما نصه: "يعني: ومما يستحب أيضا: تلقينه الشهادة؛ لما رواه مسلم والنسائي والترمذي وأبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله. ابن الفاكهاني: يريد: ومحمد رسول الله. وهذا مثل قوله عليه السلام: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. قال العلماء: يريد مع الشهادة الأخرى، وهي: محمدٌ رسول الله. وهذا الأمر لا ينبغي أن يختلَف فيه؛ إذ لا يكون العبد مسلماً إلا بهما، فينبغي أن يلقِّنهما جميعا؛ ليموت عليهما، فيكونا آخر كلامه". اهـ بلفظه.

وقال العلامة الصعيدي في حاشيته على شرح أبي الحسن على "الرسالة"، عند قوله: "يستحب أن يلقَّن المحتضَر: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله"، ما نصه: "وقدّر الشارح: محمد رسول الله؛ للإشارة إلى أنه لا بد من جمع محمد رسول الله مع لا إله إلا الله، إذ العبد لا يكون مسلماً إلا بهما". اهـ بلفظه. فهذه نصوص المالكية.

ونحو ذلك للحافظ ابن حجر من الشافعية؛ فإنه قال في "فتح الباري" عند

قول وهب بن منبه في "الصحيح": "إن مفتاح الجنة: لا إله إلا الله"، وأنه: ورد حديث معاذ مرفوعاً بمعناه، وهو ما رواه أبو داود والحاكم من طريق كثير بن مرة عن معاذ بن جبل مرفوعا: "من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة"، ما نصه: "والمراد بلا إله إلا الله في هذا الحديث وغيره: كلمتا الشهادة، فلا يرِد إشكالُ ترك ذكر الرسالة. قال الزين ابن المنير: قول لا إله إلا الله جرى علَماً على النطق بالشهادتين شرعا". اهـ منه بلفظه.

قلت: وهذا هو التحقيق، خلافاً لما في المناوي والعزيزي في شرحيهما على "الجامع الصغير" وأصله للنووي في "حلية الأبرار" عازياً له لجمهور أصحابهم، من الاقتصار على التهليل فقط، وخلافاً لما في الحطاب عن الأبّي عن بعضهم أنه: استحب أن يلقّن الشهادتين، ثم يلقن التهليل وحده.

وعبارة الحطّاب في شرح "المختصر" هي ما نصه: "قال في "التوضيح": قال ابن الفاكهاني: ومراد الشرع والأصحاب: الشهادتان معا. ثم قال: ونقل الأبي عن بعضهم أنه: استحب أن يلقّن الشهادتين، ثم يلقن التهليل وحده. وذكر لي الوالد عن بعض شيوخ شيوخه أنه: كان يفعل ذلك". اهـ بلفظه، وتصديره بالقول الأول يدل على ترجيحه طبق ما ذكرنا.

وعبارة العزيزي في شرح "الجامع الصغير" تبعاً للمناوي عند ذكر حديث التلقين هي مانصه: "قال الدَّمِيري: نقل في "الروضة" عن الجمهور: الاقتصار على لا إله إلا الله، ونقل جماعة من الأصحاب أنه: يضم إليها: محمد رسول الله؛ لأن المراد: ذكر التوحيد، والمراد: موته مسلماً. وهو لا يسمّى مسلماً إلا بهما. والأول أصح". اهـ بلفظه.

قلت: بل الثاني أرجح من جهة الدليل والنظر، ويكفي في توجيه أرجحيّته: التعليل الذي ذكروه من أن المقصود من التلقين: أن يموت مسلما. وهو لا يموت مسلماً إلا بهما. فتأمله، فإنه وحده كافٍ في الاستدلال لذلك.

لا يقال: إنه مسلم والأصل هو الاستصحاب. لأنا نقول: هذا وارد حتى على ذكر الأولى وحدها، فلا يحتاج إلى تلقين، ومهما احتيج إلى تلقين الأولى؛ فيحتاج إلى تلقين الثانية أيضا، من باب لا فرق.

ولا يقال: إنه بتلقين الأولى يتذكر الثانية لأنها علم عليهما معا، فيقتصر على الأولى اكتفاء. لأنا نقول: المحل محل خطر وهول عظيم، وشدة لم ير العبد مثلها في حياته، مما يدهش عقله ويحيّر لبه، فيحتاج لزيادة بيان وتثبيت، خشية الزلل في هذا المقام الوعر، ولما يرجى من نزول الرحمة التي هو حينئذٍ أحوج ما يكون إليها بسبب ذكره ﷺ، وجريان اسمه الشريف على لسانه في هذا المحل المخوف، مما يكون سبباً لدفع الشيطان الذي يريد أن يفسد على المحتضِر عقيدته، وغير ذلك مما هو ظاهر جلي وواضح للغاية.

وقد قال جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]: "إن المراد بذلك: عند الموت، وعند سؤال القبر". وقد علم أن سؤال القبر يكون عن النبي ﷺ، كما سيأتي، فتلقين المحتضر الكلمة المشرفة هو من القول الثابت الذي يثبت الله به الذين آمنوا على لسان الملقن.

قال في "شرح التثبيت"، عند ذكر هذه الآية الكريمة ما نصه: "ويعني بالقول الثابت: كل الشهادتين: لا إله إلا الله، والإقرار بالنبوة. والمراد بالحياة الدنيا هذه: مدة حياة الإنسان عموماً، وعند الموت خصوصا. وفي الآخرة: هي وقت سؤاله في قبره. قاله طاوس وقتاده، ونسبه ابن عطية وابن جُزي للجمهور، واستحسن ذلك ابن عطية وناصر الدين المشدالي، ورجحه الطبراني". اهـ.

وقد قال العلامة المحقق سيدي أحمد بن مبارك في كتابه "إزالة اللبس"، عند تعرضه للكلام على هذه المسألة، بعد ما نصه: "وعندي أن الإعراض عن ذكره ﷺ جفاء عظيم، فالواجب على المؤمن الخائف على إيمانه أن يداوم على ذكره ﷺ، وأن يجمع كلمتي الشهادة معاً ولا يفرقهما، لا في أول الأمر ولا في آخره، فإنه ﷺ هو سيده وواسطته، وشفيعه عند خروج روحه حتى يكتب في جملة المؤمنين، وعند وضعه في قبره، وفي عرصات القيامة، وعند مروره على الصراط، وعند دخوله الجنة، وهو السبب له في الوصول إلى خير الدنيا وخير الآخرة، وهو الآخذ بيده في كل موطنٍ من مواطن الخوف

والهلاك. فما معنى الإعراض عن ذكر الرسالة، والاقتصار على الهيللة؟".

"وليت شعري؛ كيف يسوغ للعاقل الذهاب إلى ذلك، واعتقاده وترجيحه، والاستدلال عليه؟، وكيف لا يذوب قلبه ويطير عقله في ساعة الاشتغال بالاستدلال على تصحيح الإعراض عن ذكر الرسول ﷺ، ولولا الرسول ﷺ لم يكن له نور ولا إيمان، ولا عقل ولا علم ولا فهم، ولا خير من الخيرات بالكلية؟!".

ثم قال: "ولو أردنا شرح هذه الجملة؛ ما وسعنا لها كراسة ولا كراستان ولا أكثر. اللهم لا تجعلنا من المطرودين عن جناب نبيك وحبيبك وصفيك سيدنا ومولانا محمد ﷺ في حياتنا ومماتنا، وحركاتنا وسكناتنا، ولو في لحظة من اللحظات. فالصواب: ما عليه الجماعة من ابن حجر وابن المنير وابن الفاكهاني والثعالبي وبهرام، وصاحب "التوضيح"...وغيرهم". ثم ذكر كلام الشيخ الخروبي في "كفاية المريد" التي اختصر فيها "بغية السالك" للإمام الساحلي نحو ما تقدم.

ثم قال: "فهذا مذهبنا الذي عليه نموت ونحيا إن شاء الله، فلا نفارق ذكر نبينا ﷺ بحول الله وقوته في حالة من الأحوال، لاسيما عند الغرغرة وتلاطم الأهوال. فالحذر كل الحذر من الإصغاء إلى مخالفه؛ فإنه عين القطيعة، وما ظننت أن أحداً قط يذهب إليه حتى رأيت ما في حلية النووي؛ فاقشعر منه الجلد والشعر، وساءني ما سمعت من ذلك الخبر، وما اشتمل عليه من تمام الغِيَر، فقيدت ما قيدت مبالغة في النصيحة، وتحذيراً من الوقوع في تلك الفضيحة، فإنها عين الجفا، ونقيض الصفا".

"وبحثت غاية البحث عن "شرح المهذب" - يعني: للنووي - لأنظر المسألة من أصلها فيه، وأحل ما توهمه دليلاً على ما ذهب إليه، فإنه يستحيل في المعقول والمنقول أن يقوم دليل على إسقاط ذكر الرسول ﷺ، فلم أظفر به - أي: "شرح المهذب" - وطالعت عدة كتب للشافعية رجاء أن يتعرضوا لكلام النووي وينقلوه؛ فلم أر أحداً منهم تعرّض لذلك. ثم رأيت المناوي في حرف اللام من "الجامع الصغير" قال في حديث: لقنوا موتاكم لا إله إلا

الله: وظاهره أنه لا يلقن الشهادة الثانية، وذلك لأن القصد ذكر التوحيد، والصورة أنه مسلم، فلا حاجة إليها، ومن ثَم وجب تلقينهما معاً للكافر. اهـ".

"وقوله: وذلك لأن القصد ذكر التوحيد، والفرض أنه مسلم. مردود؛ فإن القصد هو: ذكر التوحيد والرسالة معاً، اللذين هما ركنا الإيمان. وقوله: والصورة أنه مسلم، فلا حاجة إليها. مردود؛ فإن المسلم كما لا يحتاج - على زعمه - إلى ذكر الرسالة لا يحتاج إلى ذكر التوحيد؛ لأن الفرض أنه موحّد مسلم، وإن كان يحتاج إلى ذكر التوحيد في هذا الموطن العظيم؛ فإنه يحتاج إلى ذكر الرسالة من غير فرق بينهما، فهذه هي حجة المناوي على ما جزم به أولاً، فانظر ما أخسّها وأضعفها!".

"وقد رأيت كلام الحافظ ابن حجر رضي الله عنه - وهو أمير المؤمنين في الحديث، ومتأخر عن النووي، ولا يخفى عليه شيء من كلامه - وما ذهب إلا لنقيض ما قال النووي، جازماً به، ولم يحك فيه خلافا. على أن الأبي ذكر عن عياض في حديث: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة. أن في رواية: من لقيه يشهد أن لا إله إلا الله صدقاً من قلبه؛ حرمه الله على النار. وهو بمعنى حديث التلقين، فيكون شاهداً للجماعة. والله أعلم". اهـ كلام سيدي أحمد بن مبارك، وهو من التحقيق بمكان، وقد سلمه مقرظوا كتابه المذكور؛ كالعلامة المحقق المشارك الورع سيدي الكبير السرغيني، والعلامة البركة سيدي محمد بن عبد الصادق بن عبد السلام الفرَجي السوسي، والعلامة المحقق سيدي أحمد بن أبي القاسم بن عبد القادر الصبيحي، والعلامة المحقق المشارك الحافظ أبي حفص سيدي عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف بن محمد العربي بن يوسف الفاسي..وغيرهم، وأثنوا على المؤلف، ووصفوه بغاية التحقيق والتحرير، وبالغوا في الثناء على تصنيفه المذكور بما لا مزيد عليه.

ونص ما كتبه في ذلك أولهم، وناهيك به علماً وجلالة، وورعاً ودينا:

"الحمد لله الذي أدرّ على قلوب العلماء سحائب جوده الكواكف،

وسكب عليها من حيا مزن المعارف، ما يتضاءل دونه كل تليد والطارف، ونصبهم - سبحانه وتعالى - قبلةً يتحيز إليها كل من خاف الانقطاع في مهامه الجهل والمتالف، وأفضل الصلاة والسلام على النور المبين، والحبل المتين، والرحمة المهداة إلى كافة الخلق أجمعين، سيدنا ومولانا محمد الذي من تمسك بسببه فاز ووصل، ومن حاد عنه زاغ عن الحق وعدل، وتاه في بيداء الخزي والمخاوف، وعلى آله وأصحابه الذين برزوا في ميادين العرفان، فصاروا قدوةً في مقام الإسلام والإيمان والإحسان، فأيتم بهم كل مؤمن ومؤيد وصديق عارف".

"وبعد؛ فقد وقفت على الموضوع المسمى بـ: "إزالة اللبس"، مما كتبه الشيخ الإمام، حسنة الليالي والأيام؛ أبو العباس سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي، حمد الله سعيه وشكره، وبارك لنا فيه وأطال عمره، وتأملت كثيراً مما أودعه من المزايا، ونظمه فيه من الفرائد، فإذا هو رضي الله عنه قد شمر عن ساق الجد والاجتهاد، فأجاد وأفاد، إذ نهض بجودة القريحة، إلى جلب ما في النازلة من النقول الصريحة، مميزاً بين صحيحها وسقيمها، منتهجاً من عقيمها، فأوضح السبيل، بما أبداه من التحصيل، وأبان من ذلك ما عليه التعويل، مؤيداً بواضح التفصيل. فجزاه الله أفضل الجزاء، وجعل سعيه في ذلك لوجهه الكريم، ونفعنا وإياه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قاله وكتبه: محمد بن محمد بن محمد بن علي؛ المدعو: عبد الكبير بن الغزواني السرغيني، تاب الله عليه. يوم الأحد، لخمس عشرة خلت من ربيع النبوي، عام سبعة وأربعين ومائة وألف". اهـ ما كتبه بلفظه وحروفه.

تنبيهان

الأول: [شواهد لحتمية تلقين الميت الكلمتين معا]

مما يدل لتلقين الكلمتين معا: حديث الصحيحين عن البراء بن عازب مرفوعا: "إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجعْ على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك،

وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. واجعلهن من آخر كلامك، فإن مت من ليلتك؛ مت وأنت على الفطرة". قال: "فرددتهن لأستذكرهن، فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت. قال: قل آمنت بنبيك الذي أرسلت!". زاد في رواية: "وإن أصبحت أصبت خيرا". والشاهد في قوله: "فإن مت؛ مت على الفطرة"، بعد تلقينه أن يقول: "آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت"، فهو شبيه بتلقين المحتضر؛ لأن النوم هو الموت الأصغر، ويحتمل أنه لا يقوم منه.

وقد قال الأبي في "شرح مسلم" على هذا الحديث، عند قوله: "متَّ وأنت على الفطرة"، ما نصه: "عياض: الفطرة: الإسلام، وإن كان مسلماً من قبل، على نحو ما روي عن ابن عباس: لا تنام إلا على وضوء، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت. وهو من نحو ما جاء: من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله. دخل الجنة. القرطبي: قال الشيوخ: هو بمنزلة: من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله. دخل الجنة. وإذا كان بمنزلته؛ فأين فائدة تلك الكلمات العظيمة، والمقامات الشريفة؟".

"ويجاب بأنه: وإن كان كل منهما على الفطرة؛ فمقامات أهل الفطرة مختلفة: فطرة من قال تلك الكلمات فطرة المقربين الصديقين، وفطرة من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله؛ فطرة أصحاب اليمين". اهـ منه بلفظه.

وقال أيضا: "قال عياض: تضمن - يعني: هذا الحديث - ثلاثة سنن: الوضوء للنوم؛ ليموت إن مات على طهارة، وليكون آخر عمله من الدنيا إن مات عمل الطهارة وذكر الله تعالى. والسنة الثالثة: ذكر الله تعالى عند النوم، إذ قد يموت في نومته تلك كما قال في الآخر: واجعلها آخر كلامك". اهـ المراد منه.

فهذا كله شاهد صريح لمسألتنا بالأحرى، وإن أغفله ابن المبارك وغيره ممن تكلم عليها.

ومما يدل لذلك أيضا: سؤال القبر يكون عن النبي ﷺ كما ثبت في

الحديث، فبتلقين تلك الكلمة المشرفة التي شرع تلقينها له ليموت مسلماً يرجى اهتداؤه إلى حجته عند السؤال؛ لقرب عهده بها، وكون سؤال القبر عنه ﷺ هو من خصائصه التي اختصه الله تعالى بها عن غيره من الأنبياء، كما ذكره الحافظ السيوطي في "أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب" وغيره.

أخرج الإمام أحمد والبيهقي بسند صحيح عن عائشة مرفوعاً: "فأما فتنة القبر؛ ففيَّ تُفتَنون، وعني تُسألون". وأخرج الحاكم عن عائشة أيضاً مرفوعا: "فتنة القبر فيَّ، فإذا سئلتم عني؛ فلا تشكوا". وأخرج الشيخان عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تُفتنون في قبوركم مثل - أو قال: قريباً - من فتنة المسيح الدجال، يقال: ما عِلْمُك بهذا الرجل؟. فأما المؤمن - أو قال: الموقن - فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى فأجبناه واتبعناه"...الحديث.

وأخرج الترمذي والبغوي في "المصابيح" وحسّنه عن أبي هريرة مرفوعاً: "إذا أقبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟. فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"...الحديث.

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد قال في شرح "التثبيت" أثناء كلام ما نصه: "المقصود من السؤال: إظهار شرف النبي ﷺ وبيان مزيته وخصوصية شرفه، بأن الميت يُسأل عنه في قبره، ولم يعط ذلك نبي قبله، فإذا عرفت المقصود من السؤال؛ عرفت منه حكمة التكرير، وهو أبلغ في إظهار شرف المصطفى وخصوصيته، ومكانته وعلو منزلته". اهـ منه بلفظه.

[الجواب عن تلقين النبي ﷺ عمه أبا طالب]:

الثاني: إن قلت: قد ثبت أن النبي ﷺ لقن عمه أبا طالب ولم يذكر إلا الهيللة في قوله: "يا عم؛ قل: لا إله إلا الله".

قلت: الجواب عن ذلك والله أعلم، من وجوه أربعة:

الوجه الأول: قد قدمنا أن لقائل لا إله إلا الله حالتين؛

الحالة الأولى: أن يقولها في معرض الإخبار عنها أو الأمر بها، ونحو ذلك، فتكون الهيللة جارية مجرى الترجمة عن مجموع الكلمتين؛ لأنها علم عليهما معاً كما مر.

والحالة الثانية: أن يقولها تعبُّداً على وجه القربة، ابتغاء الأجر والثواب، وفي هذه الحالة يجمع بين الكلمتين غالباً، بخلاف الحالة الأولى؛ فيقتصر فيها على الأولى غالباً، ومنها هذا الحديث.

وحينئذٍ؛ فقوله ﷺ: "قل: لا إله إلا الله"، يعني: مع محمد رسول الله. واقتصر على الأولى اكتفاء، وقد قال الأبي في "شرح مسلم" لدى هذا الحديث، عند قوله: "قل: لا إله إلا الله"، ما نصه: "الأظهر أنها كناية عن الشهادتين معا؛، لأنه لا يثبت حكم الإسلام عندنا إلا بهما". اهـ المراد منه بلفظه.

وقال الزرقاني في "شرح المواهب" على هذا الحديث أيضاً، عند قوله: "قل: لا إله إلا الله"، ما نصه: "أي: محمد رسول الله؛ لأن الكلمتين صارا كالكلمة الواحدة". اهـ منه بلفظه. ونحوه للشيخ جسُّوس في "شرح الشمائل".

وعليه؛ فلا يردُ إشكال ترك ذكر الرسالة في هذا الحديث؛ لأن الهيللة ذُكرت فيه في معرض الأمر بها، فهي كناية عنهما معاً، واقتصر عليها اكتفاءً.

تنبيه: يؤخذ من هذا أنه: يفرق بين تلقين الكافر والمسلم. فأما الكافر؛ فإنه يؤمر بذكر كلمة الشهادة أمراً صريحاً؛ ليموت مسلماً، بأن يقال له: "قل"، بخلاف المسلم؛ فقد قال العلماء: "إنه لا ينبغي أن يقال له: قل. مخافة أن يقول: لا؛ جواباً للشيطان الذي يوسوس له، فيساء به الظن، وإنما تذكر بين يديه وهو يسمع مرة بعد أخرى حتى يقولها".

الوجه الثاني: أنه أمره بالأولى فقط؛ تدريجاً، فلو قالها؛ للقنه الثانية أيضاً، وذلك لِئلّا يكثر عليه فيرتج، كما اتفق في فتح مكة مع أبي سفيان؛ فإنه

لما جاء به العباس إلى النبي ﷺ قال له: "ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟". فقال: "بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؛ لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئا". قال: "ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!". قال: "بأبي أنت وأمي؛ أما والله هذه؛ فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً"...الحديث، فكذا يقال هنا، وهو احتمال ظاهر قوي.

الوجه الثالث: ذكر الإمام الحاتمي في "الفتوحات" أن القائل: لا إله إلا الله: "لا يكون مؤمناً موحداً إلا إذا قالها لقول رسول الله ﷺ - أي: امتثالاً لأمره بها - فإذا قالها لقوله؛ فهو عين إثبات رسالته". اهـ. فكذا يقال هنا في هذا الحديث؛ فلو قالها أبو طالب امتثالاً لقوله وإذعاناً؛ لكان عين إثبات رسالته، وهذا مفقود في غيره ﷺ من كل ملقِّن بعده إلى يوم القيامة.

الوجه الرابع: "قال الأبّي في "شرح مسلم": "يحتمل أنه لم يسأله إلا كلمة التوحيد؛ لأنه كان يعلم صحة رسالته حسبما دلت عليه السير". اهـ، ونحوه للحافظ في "فتح الباري"، ونصه: "وإنما عرض النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله. ولم يقل فيها: محمدٌ رسول الله. لأن الكلمتين صارتا كالكلمة الواحدة، ويحتمل أن يكون أبو طالب كان يتحقق أنه رسول الله ولكن لا يقر بتوحيد الله، ولذا قال في الأبيات النبوية:

دعوتني وعلمتُ أنك صادقٌ ... ولقد صدقتَ وكنتَ قبل أمينا

فاقتصر على أمره له بقول: لا إله إلا الله. فإذا أقر بالتوحيد؛ لم يتوقف على الشهادة بالرسالة". اهـ منه بلفظه، ونقله الزرقاني في "شرح المواهب" وأقره.

قلت: وفي هذا الاحتمال بحث، أما أولاً: فإنه يلزم من اعتقاد صحة رسالته معرفة مرسله.

وأما ثانياً: فإن شعره المذكور صريح في معرفته بذلك، إذ قوله: "ودعوتني وعلمت أنك صادقٌ" نص في معرفته بما يدعو إليه من عبادة الله وتوحيده، إذ كونه كان يدعو إلى ذلك ضروري عند أعدائه فضلاً عن غيرهم. وتقدم أن مما نُسب له:

وشَق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

فهذا صريح في معرفته بالله ورسوله، لكن مجرد المعرفة بالنبوة لا يستلزم الإسلام الذي هو الإذعان والقبول، وهذا مبني على تصور وجود الكفر عناداً، وهو الصحيح؛ بأن يعلم المعاند صدق الرسول ﷺ ويقر به، ويعتقد صدقه، وينطوي ضميره على ذلك ثم لا يؤمن به مع ذلك ويقول: إنه كاذب. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: 33]. الآية.

قال ابن عطية في تفسيره: "نزلت هذه الآية في قول قتادة والسُّدّي وغيرهما في المعاند - وهو: الذي يصدق في السر ويكذب في العلانية - ثم قال: وكفر العناد جائز الوقوع بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه، كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]، وغيرها. وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان، والجحود يقتضي الكفر، ولا سبيل إلى اجتماعهما. . .ثم قال: وكفر العناد من العارف بالله وبرسوله بعيد؛ لأنه لا داعية إلى كفر العناد إلا الحسد، ومن عرف الله والنبوءة وأن محمداً ﷺ كهيئة ملك من السماء؛ فلا سبيل إلى بقاء الحسد مع ذلك". اهـ.

قال العلامة سيدي أحمد بن مبارك في "إزالة اللبس" بعد نقله ما نصه: "قلت: وقد تكون الداعية إلى كفر العناد هي: إرادة الله تعالى، فهي الداعية. وقد قال أبو طالب في شعره:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوَسَّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ فابشر وقِرَّ بذاك منك عيونا

ودعوتني وعرفتُ أنك ناصحي ولقد صدقتَ وكنت ثَم أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سُبة لوجدتني سمحاً بذاك مُبينا

ذكره الثعلبي والبغوي، و"الكشاف". . .وغيرهم، فأي حسد في أبي طالب يُتصور مع هذا الاعتقاد؟، والمانع له من الإيمان هو: الإرادة الأزلية المشار لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]". اهـ منه بلفظه.

قلت: وقد ثبت في الصحيحين أن فيه نزلت هذه الآية المذكورة، وأنه أهون أهل النار عذاباً. وذهب جماعة من الصوفية وبعض أهل الظاهر إلى أنه مات مؤمناً. والصواب: الإمساك وعدم الخوض في هذه المسألة إلا من ضرورة؛ أدباً معه ﷺ، وإعزازاً لجنابه الشريف.

[يجب الكف عن الكلام فيمن لم يؤمن من أهله ﷺ]

وقد قال العلامة ابن التلمساني في "شرح الشفا" أثناء كلام في أبي طالب ما نصه: "ولا ينبغي ذكره إلا بخير؛ لأنه في حماية رسول الله ﷺ، ولا يذكر بشرٍّ تعظيماً لرسول الله ﷺ؛ لأنه حَماه ونصره بقوله وفعله، وفي ذكره بمكروه إذاية له ﷺ، ومؤذيه كافر، والكافر يُقتل". اهـ.

قلت: روى ابن منده وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاءت شيبة بنت أبي لهب إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله؛ إن الناس يقولون: أنتِ بنت حطب النار. فقام رسول الله ﷺ وهو مغضَب فقال: ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي؟، ومن آذاني فقد آذى الله!". قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57]، فالحذر الحذر مما يؤدي إلى ذلك.

فائدة: قال ابن عطية في تفسيره: "والذي عندي في كفر حُيَيْ بن أخطب ومن جرى مجراه: أنهم كانوا يرون صفات النبي ﷺ وأكثرها، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم، فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة وبأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم؛ فيقولون مرةً: هو ذاك، ومرةً: عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة؛ فيتزايد ويتمكن إعراضهم وكفرهم، فهم على هذا. وإن عرفوا أشياء وعاندوا فيها؛ فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة، فبقوا في ظلمة الجهل، فهم جاهلون بأشياء، معاندون في أشياء غيرها. وأنا أستبعد العناد مع المعرفة التامة". اهـ.

قال في "إزالة اللبس" بعده: "قلت: ما ذكره مردود بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: 146]، وأي ظنون تتخالج في معرفة الابن؟. بل قال ابن سلام رضي الله عنه: إن معرفته بمحمدٍ ﷺ دانت

أقوى من معرفته بابنه؛ لأنه يعرف أن محمداً ﷺ[1] هو: ابن عبد الله، وأما ابنه؛ فلا يدري ما صنعت النساء. وهكذا الحال في حُيي بن أخطب وأضرابه. بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]".

"وقد سلم ابن عطية - رحمه الله تعالى - في تفسير هذا الموضع، أعني: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾...الآية دلالته على صحة وقوع الكفر عناداً. ولعمري؛ أيُّ مانع يمنع منه؟، فإن العلم لا يستلزم العمل بمعلومه، فلا مانع من وقوع العلم بالألوهية والرسالة مع عدم العمل بذلك، بأن لا ينطق بلسانه ولا ينقاد في باطنه، هذا لا يمنع منه مانع عقلي ولا نقلي. وقوله: ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم، فيتملقون في مغالطة أنفسهم، إنما يصح ما ذكره لو كانت الآيات زائدة على ما عندهم، مناقضة للرسالة ولما عندهم، أما حيث كانت مؤكدة لما عندهم ومقوية للرسالة وظاهرة في المعجزة؛ فلا معنى لما ذكره". اهـ.

قلت: ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: 14] الآية، ففيها صراحة بجحدهم نبوته ﷺ، والحال أنهم يستيقنونها كبراً وعناداً.

ونقلنا هذا كالذي قبله؛ لمناسبات لا تخفى، تتميماً للفائدة. والله أعلم.

[فك كلام لبعض العارفين مشكل في الموضوع]

التتمة الثانية: إن قلت: قد نقل القشيري في رسالته عن الشِّبلي أنه: "أذّن مرةً، فلما أتى بالشهادتين وقف وقال: وعزتك لولا أنك أمرتني بذكر رسولك؛ ما استطعت أن أذكره!". ونقل بعضهم عن أبي سعيد الخراز أنه: سمع مرةً المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله. فقال: "من هذا الذي قُرن مع اسم الله تعالى؟!". ونقل بعضهم - أيضاً - عن رابعة العدوية أنها: قيل لها: "كيف كان حبك لرسول الله ﷺ؟". فقالت: "حب الخالق أغناني عن حب المخلوق".

---

(1) يعني: بصفاته المعروفة عنده في الكتب القديمة. انتهى مؤلف.

قلت: لا يمتري عاقل في أن هذا الكلام صدر من هؤلاء في حال غيبتهم واصطلامهم، وقبل كمالهم واتساع معرفتهم، وإلا؛ فمن معه أدنى شعور وتمييز لا يقدر أن يفوه بهذا الكلام؛ لما يترتب عليه من العتب والملام، لمصادمته لما أمرنا به من الأدب معه ﷺ، والتوقير لجنابه الشريف، الواجب ذلك بنص القرآن. ولأنهم ولو ترقوا في الحقيقة إلى ما لا نهايةِ له؛ فلا يخرجون عن وساطته ﷺ طرفة عين ولا أقل منها، ولا غنى لهم ولا لغيرهم من الخلائق عن مدده ﷺ الساري في الوجود سريان الماء في العود الأخضر مدى الأنفاس، ولو انقطع مدده ﷺ عن الوجود لحظة؛ لتلاشى واندكت دعائمه، إذ هو روحه، وبه قوائمه كما شهد بذلك أرباب البصائر، وورد بمعناه عدة أحاديث.

قال الشيخ أبو مَدْيَن رضي الله عنه: "الحق تعالى مستبد، والوجود مستمد، والمادة من عين الوجود، ولولا المادة لانهد الوجود". اهـ نقله المحقق الشيخ الطيب في شرح توحيد "المرشد"، والشيخ عليش في شرح "إضاءة الدجنة" وغيرهما. ولا شك أن عين الوجود الذي منه المادة هو: نبينا ﷺ.

[معنى حديث اللبنة]

قال الأبي في "شرح مسلم"، على حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطيفون به، يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا، إلا هذه اللبنة. فكنت أنا تلك اللبِنَة"، ما نصه: "قال ابن العربي: إذا تأمل المتفطن هذا الحديث؛ رأى أن قدره ﷺ أعظم من لبنة في حائط. قال: وقد تكررت فيه إلى كثير، فلم أجد عند أحد طريقاً إلى الإعلام، فرجعت إلى نفسي القاصرة، فظهر لي أن هذه اللبنة: كانت هي الأساس، ولولا كونها هي الأساس؛ لانهدم البناء؛ لأنها قاعدته". اهـ بلفظه.

قال الأبي: "كون اللبنة مكملة لحسن البناء واضح في الحس، وهو ﷺ مكمل لحسن الإرسال حساً ومعنى؛ لما خصه الله تعالى به من الصفات التي

يطول تعدادها. وذكر البناء واللبنة هو على سبيل التقريب للفهم، وإلا؛ فقدره ﷺ في الأنبياء - عليهم السلام - أعظم من لبنة في حائط كما ذكر ابن العربي". اهـ بلفظه.

قلت: ذكر اللبنة تقريباً للفهم لا ينافي الإشارة إلى أنها أساس البناء وقاعدته التي لولاها لا نهدم، ففيه إشارة لما تقرر من أنه ﷺ مادة الوجود وأصله كما ذكرنا، وإذ كان كذلك؛ فكيف يغفل المؤمن عنه أو يعرض عن ذكره وملاحظة وساطته وشكره وبه وجوده وقوامه؟.!

ولذا قالت أم رومان - زوج أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما - لابنتها عائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك: "قومي إليه". أي: إلى رسول الله ﷺ. قال الأبّي: "عياض: أي: احمديه وقبلي رأسه لما بشّرك به من نعمة الله عليك" اهـ. وقال السنوسي في "شرح مسلم": "قومي إليه: أي: احمديه وقبلي يده ورجله؛ لأن هذا الاعتناء العظيم بك، الوارد من رب العالمين؛ إنما كان ببركته وشرفه صلوات الله وسلامه عليه". اهـ.

فدلتها على شهود واسطته ﷺ؛ لأنه السبب في براءتها، وعلى لسانه برئت، وإن كانت عائشة رضي الله عنها حصل لها مقام الدلال حتى قالت: "والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله؛ هو الذي أنزل براءتي"، وحال أمها في ذلك أرفع وأكمل؛ خلافاً للأبيّ في "شرح مسلم"؛ فإنه قال ما نصه: "إنما أرشدتها إلى القيام إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه السبب في تكرمتها بنزول الوحي فيها، وراعت عائشة رضي الله عنها مقام إسناد الأمر إلى الله تعالى لا مع مراعاة السبب، ومقامها في ذلك أرفع من مقام الأم". اهـ.

[أم المؤمنين عائشة كانت أتم معرفة من والدتها]

وكتب الشيخ السنوسي هنا ما نصه: "أشارت عليها أمها بالوجه الأكمل؛ وهو: القيام بحق التوحيد برؤية النعم كلها من الله تعالى لا شريك له في ذلك، وحق الشرع في شكر من ظهرت النعمة على يديه، ولهذا قال ﷺ: من لم يشكر الناس لم يشكر الله. وغلب على عائشة رضي الله عنها في هذا الحال المقام الأول؛ وهو: مقام التوحيد؛ لما أيست من الخلق وأسلمها

أقرب الناس إليها من أب وأم ونحوهما، وعظمت عليها المصيبة، فجاءها على هذه الحال العظيمة والمصيبة الهائلة الجسيمة الغوث من أرحم الراحمين؛ فلم تجد في قلبها مسلكاً لغيره، وغابت عن العالم بأسره. . .قال: وهذا الذي أشرت إليه من أن الذي أرشدتْ إليه أم عائشة رضي الله عنهما أكمل مما رأت عائشة؛ أشار إليه الشيخ ابن عطاء الله، وهو يضعف ما قاله الشيخ الأبّي من أن مقام عائشة في ذلك أرفع من مقام أمها". اهـ بلفظه.

قلت: ما أشرنا إليه من كون عائشة كانت إذ ذاك في مقام الدلال والتيه بحبِّها وقرة عينها ﷺ؛ أنسب مما ذكروه من غيبتها واصطلامها، مراعاة لحسن الأدب معه ﷺ ومع أزواجه الطاهرات رضي الله عنهن؛ لأن مقام الغيبة والاصطلام أدون، والأكمل هو: تعمير المراتب، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه، بأن ترى النعم من الله تعالى، وتشكر الواسطة فيها.

وحمل عائشة على المقام الأول؛ فيه من سوء الأدب ما لا يخفى، فلذا قلنا: "إنها كانت في مقام التيه والدلال به ﷺ"، وهو من المقامات المعروفة عند أهلها، وصاحبه من المحبوبين. وكثيراً ما كانت تخيّم في هذا المقام الدال على عظيم المحبة والائتلاف والوصال، وأخبارها المؤذنة بذلك كثيرة:

كحديث الصحيحين عنها رضي الله عنها قالت: "قال لي رسول الله ﷺ: إني لأعرف غضبك ورضاك. قالت: وكيف تعرف ذاك يا رسول الله؟.! قال: إنك إذا كنت راضية؛ قلت: بلى ورب محمد. وإذا كنت ساخطة؛ قلت: لا ورب إبراهيم". قالت: "قلت أجل؛ لست أهاجر إلا اسمك".

وفي رواية لمسلم: "إني لأعلم إذا كنتِ عني راضية وإذا كنت علي غضبى". قالت: "فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟!". قال: "أما إذا كنت عني راضية؛ فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى؛ قلتِ: لا ورب إبراهيم". قالت: "قلت: أجل؛ والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك".

فانظر هذا القول؛ فإنه لا يصح إطلاقه من غيرها؛ لأن مغاضبته ﷺ وهجره كبيرةٌ عظيمةٌ كما قاله عياض ونقله الأبي، ولكن محبوبيتها وغيرتها اقتضت صدور ذلك منها ومسامحتها فيه.

وأجاب بعضهم بأنها: كانت عليها إذ ذاك حلة محمدية؛ فقالت ذلك بلسانه ﷺ لا بلسانها.

قلت: وهو مناسبٌ أيضاً، وموافق لما كان يتظاهر به من وصف العبودية، حتى كان وصفه بها أحب إليه من كل وصفٍ سواها.

وعلى كلٍ؛ فالأكمل هو: شهود الواسطة، وقد كتب بعضهم على كلام رابعة المتقدم ما نصه: "هذا كان قبل توغلها في المعارف، وإلا؛ بعد التوغل تجد أن لا وصول إلا من بابه، ولا ترقي إلا في محرابه، وإن كان لا سبيل لإزاحة نقابه". اهـ.

ونقل القسطلاني في "المواهب"، والقشيري في "الرسالة" عن أبي سعيد الخراز أنه قال: "رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله؛ اعذرني؛ فإن محبة الله شغلتني عن محبتك.! فقال: يا مبارك؛ وهل محبة الله إلا محبتي؟!". قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على "الرسالة القشيرية": "وذلك أن من أحب محبوباً وكمل حبه له؛ أحب من أحبه المحبوب، فلو كمل نظرك لأحببتني أشد المحبة؛ لأني حبيب المحبوب". قال: "ولفظة: يا مبارك. تستعمل فيمن قصر نظره بعض القصور". اهـ.

فهذا نصٌ صريحٌ من هذا الإمام في أن: من أراد ولوج هذا الباب، والغيبة عن شهود الواسطة؛ فنظره قاصرٌ. ولذا لم يقر ﷺ ذاك القائل، ولا عذره بعدما طلب منه العذر، بل أرشده إلى الكمال والطريق الأسلم، والسبيل الأقوم؛ وهو: التنافس في المحبتين؛ لأنهما في الحقيقة شيءٌ واحدٌ؛ لأن محبته ﷺ من تمام محبة الله تعالى، ومستلزمةٌ لها، ولا تصح بدونها.

وقد أرشدنا مولانا تعالى لذلك في كتابه العزيز، مقرعاً لمن ادعى محبته تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ . . .[آل عمران: 31]. الآية، فجعل علامة محبته: متابعة نبيه المستلزمة لمحبته أيضاً، وفي الحديث الصحيح: "ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"، فجعلهما جزءاً واحداً من الثلاث، إشارةً إلى أنهما شيءٌ واحدٌ وأن الواحدة منهما بدون الأخرى لاغية.

فإن قلت: هذا في المحبة العامة، وذاك في المحبة الخاصة.

قلت: ليست إلا محبةً واحدةً، وإنما يقع التفاوت فيها بالقوة والضعف على حسب مراتب الناس ومآخذهم، ومشاربهم ومقاماتهما وأحوالهم. . .فافهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المسلك الرابع

في الاستدلال لذلك بأمور خارجية

فاعلم - هداك الله تعالى - أن هذا الباب فسيح الأركان، متسع الميدان، حقه أن يُفْرَد وحده بتأليف مستقل، ولكن نقتصر من ذلك على الأهم تنبيهاً على الباقي، ونحصر كلامنا في عشرة وجوه:

الوجه الأول

[من عادة الصحابة قرن ذكر النبي ﷺ بذكره تعالى في كل موطن]

هؤلاء الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - كان من عادتهم المنيفة: مقارنة ذكر الله تعالى بذكر رسوله ﷺ في كل موطن. ومن تتبع كتب السنة عثر من ذلك على العجب العجاب، وكان مهما استخبرهم عن أمرٍ إلا قالوا: "الله ورسوله أعلم"، مع أنهم لو اقتصروا على قولهم: الله أعلم؛ لكان كافياً في تحصيل المعنى المراد من الاعتراف بالعجز، ورد العلم إلى الله جل جلاله، المحيط بكل شيء علما، لكن لحسن أدبهم وكمال معرفتهم؛ كانوا يردون العلم إلى الله وإلى رسوله، وهم القدوة والأسوة لكل من جاء بعدهم. والأحاديث بذلك كثيرة جدا.

1 - كحديث الصحيحين عن ابن عباس أنه ﷺ قال: "أتدرون ما الأيمان بالله وحده؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم"...الحديث.

2 - وحديثهما أيضاً عن عمر بن الخطاب في حديث جبريل: "يا عمر؛ أتدري من السائل؟"، قلت: "الله ورسوله أعلم".

3 - وحديثهما أيضاً عن معاذ بن جبل قال: "بيناً أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل". فقال: "يا معاذ". قلت: "لبيك رسول الله وسعديك". ثم سار ساعةً ثم قال: "يا معاذ". قلت: "لبيك رسول الله

وسعديك". ثم سار ساعةً ثم قال: "يا معاذ". قلت: "لبيك رسول الله وسعديك". قال: "هل تدري ما حق الله على عباده؟". قلت: "الله ورسوله أعلم". قال: "حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً". ثم سار ساعةً ثم قال: "يا معاذ بن جبل". قلت: "لبيك رسول الله وسعديك". قال: "تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟". قلت: "الله ورسوله أعلم". قال: "حق العباد على الله: أن لا يعذبهم".

4 - وحديثهما - أيضاً - عن أنس بن مالك أن أبا طلحة قال لأم سليم: "قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس لنا مانطعمهم". فقالت: "الله ورسوله أعلم".

5 - وحديثهما - أيضاً - عن علي أن عمر بن الخطاب لما قال للنبي ﷺ: "دعني أضرب عنق هذا المنافق"، يعني: حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى أهل مكة يعلمهم بمسير النبي ﷺ إليهم، وقال النبي ﷺ له: "لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"، أو قال: "وجبت لكم الجنة"؛ دمعت عينا عمر وقال: "الله ورسوله أعلم".

6 - وحديثهما - أيضاً - عن أبي بكرة وعبد الله بن عمر أنه ﷺ خطب الناس في حجة الوداع، فقال: "أي شهر هذا؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم". ثم قال: "أي بلدٍ هذا؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم". ثم قال: "أي يومٍ هذا؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم"...الحديث.

7 - وحديثهما - أيضاً - عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري قال: "لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين؛ أقسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس. فقال: يا معشر الأنصار؛ ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟. وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟. وعالة فأغناكم الله بي؟. كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنّ". وفي رواية أخرى عن أنس قالوا: "بل المنة لله ورسوله". زاد في أخرى: "ألا تحبون أن يرجع الناس بالغنائم وترجعون أنتم برسول الله ﷺ؟".

8 - وحديثهما - أيضاً - عن أبي هريرة أنه ﷺ أمر أن ينادى يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن". فقالت الأنصار: "أما الرجل؛ فقد أدركته رغبة في قرابته ورأفة في عشيرته". قال أبو هريرة: "وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليس أحدٌ منا يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما قضى الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار؛ قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم: أما الرجل فقد أدركته رغبةٌ في قرابته ورأفة بعشيرته؟. قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا؛ إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيى محياكم، والممات مماتكم. فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم".

9 - وحديثهما - أيضاً - عن عائشة رضي الله عنها أنها: اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ أقام على الباب فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهية. قالت: "يا رسول الله؛ أتوب إلى الله وإلى رسوله"...الحديث.

10 - وحديثهما - أيضاً - عن عتبان بن مالك: أن بعض الصحابة لما تكلم في مالك بن الدخشم ونهاهم النبي ﷺ بقوله: "ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله. يريد بذلك وجه الله؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم".

11 - وحديثهما - أيضاً - عن زيد بن خالد الجهني مرفوعاً: "أتدرون ماذا قال ربكم؟". قلنا: "الله ورسوله أعلم"...الحديث.

12 - وحديثهما - أيضاً - عن سعد بن أبي وقاص، وسهل بن سعد، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة رضي الله عنهم أنه ﷺ قال يوم خيبر: "لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله"...الحديث. وفيه أنه: أعطاها لسيدي علي بعدما تفل بعينيه وكان بهما رَمَد، فبرأ من حينه.

13 - وحديثهما - أيضاً - عن أنس - أيضاً: "نادى منادي رسول الله ﷺ: "إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر؛ فإنها رجس".

14 - وحديثهما - أيضاً - عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: "من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟".

15 - وحديثهما - أيضاً - عن أنس بن مالك مرفوعا: "من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله"...الحديث.

16 - وحديثهما - أيضاً - عن جابر بن عبد الله مرفوعا: "إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة، والخنزير والأصنام"...الحديث.

17 - وحديث مسلم عن عثمان بن عفان: حدثنا رسول الله ﷺ عند انصرافنا من صلاتنا هذه - قال مسعر: أراها العصر - فقال: "ما أدري؛ أحدّثكم بشيء أو أسكت؟". فقلنا: "يا رسول الله؛ إن كان خيراً فحدثنا، وإن كان غير ذلك؛ فالله ورسوله أعلم". قال: "ما من مسلم يتطهر فيتم الطهور الذي كتب الله عليه فيصلي هذه الصلوات الخمس؛ إلا كانت كفارة لما بينهن".

18 - وحديث مسلم - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً: "أتدرون ما الغيبة؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم". قال: "ذكرك أخاك بما يكره"...الحديث.

19 - وحديثه - أيضاً - عن أبي هريرة - أيضا: "كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: أتدرون ما هذا؟. قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها".

20 - وحديث مسلم - أيضاً - عن أنس بن مالك قال: "كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون مم أضحك؟. قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه عز وجل يقول: يا ربي؛ ألم تجرني من الظلم؟. قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكنّ وسُحْقاً،

فعنكن كنت أناضل".

21 - وحديث أحمد عن عائشة مرفوعاً: "أتدرون من السابق إلى ظل الله يوم القيامة؟". قالوا: "الله ورسوله أعلم". قال: "الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم".

22 - وحديث البخاري عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: "يا معشر اليهود؛ أسلموا تسلموا". ثلاث مرات. ثم قال: "اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا؛ فاعلموا أن الأرض لله ورسوله".

23 - وحديثهما - أيضاً - عن أنس بن مالك أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: "متى الساعة؟". قال له رسول الله ﷺ: "ما أعددت لها؟". قال: "حب الله ورسوله". قال: "أنت مع من أحببت". وفي رواية: "ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله". قال: "فأنت مع من أحببت". قال أنس: "فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت". قال أنس: "فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكرٍ، وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم".

24 - وحديث مسلم عن أبي هريرة رفعه: "قريش والأنصار، ومَزِينَة وجُهَيْنَة، وأسلمُ وغفار، وأشجع؛ مَوال ليس لهم مولى دون الله ورسوله". وفي رواية: "والله ورسوله مولاهم"... إلى غير ذلك مما يهول تتبعه.

وهذا سيد العارفين بإجماع، وإمام الأولياء المحمديين بلا دفاع: سيدنا أبو بكرٍ الصديق رضي الله تعالى عنه: لما أتى بجميع ماله إلى النبي ﷺ حتى وضعه بين يديه وقال له: "ما تركت لأهلك يا أبا بكر؟". قال: "الله ورسوله". قال الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي رضي الله عنه في "الفتوحات": "وفي قوله: تركت لأهلي الله ورسوله. غاية الأدب؛ حيث قرن رسول الله ﷺ مع الله تعالى، فلو قدر أنه ﷺ رد على أبي بكر شيئاً من ماله؛ لكان قبله من يده ﷺ؛ لكونه رضي الله عنه ترك رسول الله ﷺ لأهله يعولهم، فما حكم أبي بكر في ماله إلا حكم من استنابه رب المال. فانظر يا

أخي ما أشد معرفة أبي بكر بمراتب الأمور، وبذلك فَضَل الصحابة". اهـ كلام الحاتمي، ونقله العارف الشعراني في "اليواقيت والجواهر".

وذكر الفخر الرازي في تفسيره أنه ﷺ: "أعطى خاتمه لسيدنا أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، وأمره أن ينقش عليه: لا إله إلا الله. فذهب به أبو بكر إلى النقّاش وأمره أن ينقش عليه: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله. فلما جاء به إلى النبي ﷺ وجد منقوشاً فيه: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، أبو بكر. فسأله عن ذلك، فسكت حياءً، فنزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله تعالى يقول: إن أبا بكرٍ لما لم يفرق بين اسمك واسمي؛ لم نفرق بين اسمه واسمنا". اهـ.

قلت: وهكذا كانت حالة أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه من الاستغراق في محبوبه ﷺ، والاستهتار[1] بذكره، واللهج به في سره وجهره، آناء الليل وأطراف النهار. وكان إذا فرغ من تهجده؛ يجثو على ركبته ويغمض عينه، ويزفر زفرات تشم منها رائحة كبده، ويردد ذكر النبي ﷺ ويلهج به عامة ليله حتى يصبح - كما أشار إلى ذلك الإمام الساحلي في بغيته، في القصيدة المتقدمة، حيث يقول فيها عند ذكر الصديق رضي الله تعالى عنه:

وما كان إلا مولعاً متمسكا بذكر نبيٍ طاب ذكراً ومولدا

إلى أن قال:

وما تلكم الزفرات إلا لأنه يردد بالقلب المبارك: أحمد

وراجعها فيما تقدم.

ومن هذا المعنى: ما أورده في "الشفا" عن عبدة بنت خالد بن معدان قالت: "ما كان خالد يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، يسميهم، ويقول: هم أصْلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك. حتى يغلبه النوم".

---

(1) يعني: كمال الانشغال وترك السوى.

وفيها - أيضاً - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه: "خدرت رجله يوماً، فقيل له: اذكر أحب الخلق إليك يزل عنك ذلك. فنادى: وا محمداه. فانتشرت".

وفيها - أيضاً - عن زيد بن أسلم، قال: "خرج عمر ليلة يحرس، فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كنت قواماً بكا بالأسحار يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعنِّي وحبيبيَ الدار

"تعني: النبي ﷺ. فجلس عمر رضي الله عنه يبكي". ولما احتضر بلال؛ نادت امرأته: "وا حزناه". فقال: "بل وا طرباه؛ غداً ألقى الأحبة: محمداً وحزبه". ومثله قال عمر رضي الله عنه قبل قتله. وقضاياهم المؤذنة بذلك كثيرة، والآثار في هذا الباب كثيرة لا حصر لها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الوجه الثاني

[من أحب شيئا أكثر من ذكره]

ليت شعري؛ هل تنتج المحبة إلا دوام ذكر المحبوب، والشغف به وتقديمه على كل مطلوب؟.! إذ من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وفي "المواهب": "وأما لهج اللسان بذكره ﷺ؛ فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره". قال شارحها: "وهو لفظ حديث رواه أبو نعيم ثم الديلمي من طريق مقاتل بن حيان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة عن النبي ﷺ: من أحب شيئاً أكثر من ذكره". هـ.

ونحوه للشيخ مرتضى في "شرح الإحياء"، وزاد عقبه ما نصه: "وقال المحاسبي في "الرعاية": علامة المحبين: كثرة ذكر المحبوب على الدوام، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون. فذكر المحبوب هو الغالب على قلوب المحبين، لا يريدون به بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، ولو قُطعوا من ذكر محبوبهم؛ فسد عيشهم. وقال بعضهم: علامة المحبة: ذكر المحبوب على عدد

الأنفاس. واجتمع عند ربيعة جماعة من العلماء والزهاد، وتفاوضوا في ذم الدنيا وهي ساكتة، فلاموها، فقالت: من أحب شيئاً أكثر من ذكره، إما بمدح أو ذم؛ فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء؛ فلمَ تذكرون لا شيء؟!". اهـ لفظه.

وقال الإمام الموّاق في "سنن المهتدين": "وقد قالوا: الذكر يؤكد محبة المذكور، والمحبة تؤكد اتباع المحبوب، فذكر رسول لله ﷺ وسيلة إلى حبه، وحبه وسيلة إلى اتباعه، واتباعه واجب. فتأكد أمر الصلاة عليه ﷺ". نقله في "كنوز الأسرار".

وذكر القطب الجزولي في أول "دلائل الخيرات" حديثاً أنه: سئل النبي ﷺ عن علامة المحبين؛ فقال: "إيثار محبتي على كل محبوب، واشتغال الباطن بذكري بعد ذكر الله". وفي روايةٍ أخرى: "علامتهم: إدمان ذكري، والإكثار من الصلاة عليّ". فذكره ﷺ وترديد اسمه الشريف سبب لدوام محبته وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به.

لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه؛ تزايد حبه له، وتضاعف شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره؛ نقص حبه من قلبه. ولا شيء ألذ لعين المحب من رؤية محبوبه، ولا أقر لقلبه من ذكره واستحضار محاسنه، ويكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحس قالب المعنى. قال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل سبيل

فأخبر أن حبها له مانع من نسيانها، ويلزم من ذلك: مداومة ذكرها وترديد اسمها. وقال آخر:

يُراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقلِ

فأخبر أن حبهم وذكرهم قد صار له طبعاً، فمن أراد منه خلاف ذلك؛ أبت عليه طباعه. وفي المعنى قيل:

أمرُّ على الديار ديار ليلى ... أُقبل ذا الجدار وذا الجدار

فما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

وقد نسج على منوالهما من قال في مثال النعلين الكريمين:

أمرغُ في المثال بياض وجهي فقد جَعل النبي لها قبالا

فما حب النعال شغفن قلبي ولكن حب من لبس النعالا

وفي هذا الجناب الشريف حق أن ينشد:

لو شُقَّ عن قلبي؛ يُرى ضمنَه ذِكُرك والتوحيدُ في سطر

فتوحيد الله تعالى وذكر رسوله ﷺ مكتوبان في قلب المؤمن، لا يتطرق إليهما محوٌ ولا إزالة ولا تغيير، وذكر الشيء موجب لدوام محبته، ونسيانه سبب لزوالها أو ضعفها. فذكره ﷺ بعد ذكر الله تعالى هو حياة الوجود وروحه كما قيل:

روحُ المجالس: ذكرهُ وحديثه وهدىً لكل ملدد حيران

وإذا أخلَّ بذكره في مجلسٍ فأولئك الأموات في الأحيان

وقيل:

ذكر الحبيب لا يُمل أبداً على التمادي أبداً مؤبَّدا

هو الحياة للقلوب وبه نحظى ونرقى لمراقي السُّعدا

وقيل:

إذا أملت من مولاك قرباً فجدد ذكر خير الأنبياء

وصلِ عليه أول كل قولٍ وآخره بصبحِ والمساء

وقيل:

أصوم عن الأغيار قطعاً وذكركم سحور لصومي في الهوى وفطور

إذا ذكر ارتاحت قلوبٌ لذكره وطابت نفوس وانشرحن صدور

وقيل:

لئن غبتمُ عن ناظري وتباعدتْ منازلكم عني فذكركمُ أُنسي

به تنطفي نار البِعاد ويشتفي فؤادي وأسلو، بل وفيه منافسي

وقيل:

كرر على مسمعي ذكراه تطربني   روحي الفداء لمن باسم الحبيب حدا
هو الحبيب فلا شيءٌ يماثله   تالله ما مثله للقلب حين بدا
إن مت في حبه شوقاً فلا عجب   يا حبذا إن أكن من جملة السعدا

ولابن الفارض رضي الله عنه:

وإذا ذكرتكمُ أميل كأنني   من طيب ذكركمُ سُقيت الراحا
وإذا دُعيت إلى تناسي عهدكم   ألفيت أحشائي بذاك سماحا

وللفقيه الصوفي الصالح سيدي محمد بن أحمد الصباغ رحمه الله تعالى:

تنعَّم بذكر الهاشمي محمدٍ   ففي ذكره العيش المهنّأ والأُنْسُ
وقوفاً على الأقدام في حق سيدٍ   تعظمه الأملاك والجن والإنس
فيا جملة العشاق أين ولوعكم   فشهرتكم في الحب ما بها بأس؟
ألا فاطربوا أنساً بذكر محمدٍ   فقد لاحت الأنوار وارتفع اللبس
فكلٌ له عرس بذكر حبيبه   ونحن بذكر الهاشمي لنا عرس
إذا ذكر السباق بدءا وعودة   فأحمد لم تطلع على مثله شمس
أيا شادياً يشدو بأمداح أحمد   سماعك طب ليس يعقبه نكس
فكرر رعاك الله ذكر محمد   فقد لاحت الأنوار وارتفع اللبس

وحُقَّ أن ينشد في هذا الجناب الشريف، العالي القدر المنيف:

وإن ذُكرت في الحي أصبح أهله   نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطرت يوماً على خاطر امرئٍ   أقامت به الأفراحَ وارتحل الهم
وفوق لواء الجيش لو رُقم اسمها   لأسكر من تحت اللوا ذلك الرقم
ولو عبقت في الشرق أنفاس طيبها   وفي الغرب مزكوم؛ لعاد له الشم

فائدة: [تكرار اسمه الله تعالى واسم رسوله ﷺ لا يزيد إلا حلاوة]

كل لفظ تكرر؛ فإنه يحصل في تكراره ثقل، إلا اسم سيدنا ومولانا محمد ﷺ؛ فإن التكرار يزيده حلاوةً وطلاوةً وتلذذاً، كاسم الله تبارك

وتعالى، ولا يعد ذلك من الإيطاء في الشعر، الذي هو: توافق القافيتين لفظاً ومعنىً، وهو عيب من عيوب الشعر. فمن ذلك قول بعضهم في اسم الجلالة:

يا صاحب الهم إن الهم منقطع — أبشر بخيرٍ فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحب — لا تيأسن فإن الصانع الله
قد يحدث الله بعد العسر ميسرة — لا تجزعنّ فإن الكافيَ الله
إذا بُليت فثق بالله وارضَ به — إن الذي يكشف البلوى هو الله
والله مالكَ غير الله من أحدٍ — فحسبك الله من كل لك الله

ومما قيل في اسم النبي ﷺ:

محمدٌ ساد الناس كهلاً ويافعاً — وساد على الأملاك أيضاً محمد
محمدٌ كل الحسن من بعض حسنه — وما حسن كل الحسن إلا محمد
محمدٌ ما أحلى شمائله وما — ألذ حديثاً راح فيه محمد

وللإمام، العارف الهمام، العلامة الكبير، المحب الشهير؛ أبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - عدة قصائد على هذا المنوال، غريبة الأسلوب عظيمة النوال. فمنها: قوله في مقاماته التي عارض بها مقامات الحريري وجعلها في الكمالات المحمدية، مما لم يسبق إليه فيما نعلم:

ذي بحارٌ دافقاتٌ — من حروف اسم محمد
فُجرت لَانهار منها — وجرت باسم محمد
وعيونٌ من رحيقٍ — مُزجت باسم محمد
لا تسل عما اكتسته — من جمال اسم محمد
كل من فيها تجلّى — بكمال اسم محمد
وانجلت جنات عدن — بحروف اسم محمد
ليس من حوراء إلا — لهجت باسم محمد
ظُللت جنات عدن — بحروف اسم محمد

ليس يدري الخلقُ طراً ... سر حرف من محمد

ومنها: قوله من قصيدةٍ طويلةٍ يمدح فيها النبي ﷺ:

محمدٌ قرة العينين ذخري ... محمدٌ عدتي سؤلي محمد
محمدٌ قد سبى عقلي ولبي ... وما يسبي الحجا إلا محمد
محمدٌ وجهه قمر منير ... وما شمسُ الضحى إلا محمد
محمدٌ ليس لي غوث سواه ... وما يرجى غداً إلا محمد
محمدٌ ظمأتي يشفي بحوض ... وما يشفي الظما إلا محمد
محمدٌ الذي يبري سقامي ... وما يبري الضنا إلا محمد
محمدٌ الذي فيه دوائي ... وما يعطي الدوا إلا محمد
محمدٌ الذي يشفي غليلي ... وما يسدي الشفا إلا محمد
محمدٌ الذي يطفي لهيبي ... وما يطفي لظى إلا محمد
محمدٌ الذي يحمي ذماري ... وما دفع الأذى إلا محمد
محمدٌ الذي جبر انكساري ... وما فيه الوفا إلا محمد
محمدٌ الذي أغنى افتقاري ... وما فيه الغنى إلا محمد
محمدٌ الذي بسط الأيادي ... عليَّ، وليس لي إلا محمد
محمدٌ الذي فيه الأماني ... وما فيه المنى إلا محمد
محمدٌ أشكلٌ أقنى أزجُّ ... كحيل الطرف مولانا محمد
محمدٌ ازهر أبهى مليح ... سويُّ القد مولانا محمد
محمدٌ وجهه كالشمس حُسْنا ... وبدر التَّم يخجل من محمد
محمدٌ الذي حاز المعالي ... وما حاز العلا إلا محمد
محمدٌ الذي أسرى بليلٍ ... به المولى، وخاطبه محمد
محمدٌ الذي صلى إماما ... بكل الخلق، ما أعلى محمدا!
محمدٌ الذي علم الخفايا ... وما في اللوح يُروى عن محمد
محمدٌ حاز تخصيصا وقربا ... ونودي للكرامة: يا محمد

مـحـمـدٌ اسـتـفـاد الـعـرشُ مـنـه ضيا، والحسنُ أجمع من محمد

. . .إلى أن قال في آخرها:

مـحـمـدٌ احـمـدُ الـحـلـبـي أدلـى بـمـدح، مـا لـه إلا مـحـمـد

مـحـمـد؛ هـا ذنـوبـي أوثـقـتْـنـي ومـا لـي مـلـجـأ إلا مـحـمـد

محمدُ قد دخلتُ حماك، كن لي وجُد لي بالشفاعة يا محمد

مـحـمـدٌ الـف ألـف مـن سـلام من المولى عليك أيا محمد

مـحـمـدُ رحـمـةُ الـرحـمـن تـتـرا لآلـك والـصـحـابـة يـا مـحـمـد

والآثار في ذلك كثيرة جداً، وفيما ذكرناه كفاية. والله تعالى أعلم.

الوجه الثالث

[إذا كان عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة؛ فبالأحرى النبي ﷺ]

إذا كان عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة كما قاله سفيان بن عيينة، حسبما نقله عنه المواق أول كتابه "سنن المهتدين"، وعياض صدر "المدارك"، والتادلي في "التشوف"، وابن عسكر في "الدوحة"، وصاحب "الروضة"، و"الابتهاج"...وغيرهم، بل ورد مرفوعاً؛ أخرجه الديلمي في "مسند الفردوس" من حديث معاذ بن جبل بلفظ: "ذكر الأنبياء من العبادة، وذكر الصالحين كفارةٌ للذنوب". أورده الحافظ الأسيوطي في "جمع الجوامع".

فما بالك بذكر سيدهم وممدِّهم؟، وما ظنك بما ينزل عند ذكر قُدوتهم ونقطة دائرتهم من الرحمات والخيرات، وتزايد الإمدادات والبركات؟، كيف ومنه تكوّنت الرحمة، وهو عينها ﷺ؟.! ونقل الحافظ السخاوي في "غنية اللبيب" عن ابن الصلاح أنه: "من أقرب الوجوه في إصلاح النية في الحديث: ما رويناه عن أبي عمرو بن نجيد أنه: سأل أبا جعفر بن حمدان - وكانا من الصالحين - بأي نيةٍ أكتب الحديث؟. فقال: ألستم تروون أن: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟. قال: نعم. قال: فرسول الله ﷺ رأس الصالحين". اهـ.

لكن نص الحافظان العراقي وتلميذه ابن حجر العسقلاني - كما نقله عنهما

السيد السمهودي في "الغمّاز" - على أن هذا الحديث لا أصل له. يعنيان: في المرفوع عن النبي ﷺ، وإنما هو كلام سفيان بن عيينة كما مر. وروي مثله عن سفيان الثوري؛ نقله عنه ابن عسكر في "الدوحة"، وعن معروف الكرخي؛ نقله عنه الشعراني في "الطبقات". ويرحم الله القائل:

أسرد حديث الصالحين وسمِّهم فبذكرهم تتنزّل الرحمات

واذكر فضائلهم؛ تنل بركاتهم وقبورَهم زرها إذا ما ماتوا

قال العلماء رضي الله عنهم: "وإنما كانت الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين؛ لأنهم عبيد الله تعالى القائمون بأمره ونهيه، الدالون عليه، فالمقصود من تعظيمهم: تعظيم الله، ومن الثناء عليهم: الثناء على الله تعالى، ومِن ذكر أحوالهم: التعرف إلى الله تعالى. فالمراد من ذكرهم: ذكر الله عز وجل؛ فألحقوا به، وحكم لهم بحكمه من نزول الرحمة والسكينة عنده". أنظر شرح العلامة ابن زكْرى لهمزيته.

قلت: وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في فضل الذاكرين: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم". ولا شك أنهم إنما نالوا ذلك بمدده الساري فيهم. وطالما ذكر العلماء من الأسرار العجيبة، والخواص الغريبة، لذكر أسماء ساداتنا أهل بدرٍ رضي الله عنهم، ومداومة تلاوتها مما لا يعد، وأن كثيراً من الأولياء أعطوا الولاية ببركة أسمائهم، وأن الرحمة والبركة والمغفرة والرضوان تحيط بالعبد إذا ذكرهم، وأن الدعاء عند ذكرهم مستجاب، والتوسل بهم في جميع المهمات أنجح للإجابة...وغير ذلك.

وهو ﷺ إمام أهل بدرٍ وقدوتهم، ورئيسهم ومتبوعهم، وما نالوا ذلك إلا ببذلهم نفوسهم ومهجهم في طاعته ومرضاته، ومقاتلة أعدائه. وإذا رتب هذا الفضل الكبير في ذكر أسماء الخدَمة؛ فلعَمري ماذا يرتّب من الفضائل على ذكر اسم السيد المخدوم، الذي هو سند الكل وقدوة الجميع ﷺ؟.!

وقد قال الإمام الرصّاع: "ذكر نبي الله ﷺ رحمة، والصلاة عليه نعمة، فإذا ذكر وصلي عليه؛ أحاطت الرحمة بالمصلي، ومن أحاطت به الرحمة؛ كيف لا تجاب له الدعوة؟. وإذا كان الدعاء مقبولاً عند ذكر كثير من

الصالحين؛ فكيف بذكر سيد العارفين الذي أرسله الله رحمةً للعالمين؟. فذكره نعمةً، والصلاة عليه رحمةٌ يرحم الله تعالى بها عبده ويجيب طلبه". اهـ.

وقال في "مطالع المسرات" ما نصه: "قال الشيخ أبو جعفر ابن وداعة رحمه الله: روي عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنه قال: ما من موضع يُذكر فيه النبي ﷺ أو يصلّى عليه فيه؛ إلا قامت منه رائحةً تخرق السماوات السبع حتى تنتهي إلى العرش، يجد ريحها كل من خلق الله في الأرض إلا الإنس والجن؛ فإنهم لو وجدوا ريحها لشغل كل واحدٍ منهم بلذتها عن معيشته، ولا يجد تلك الرائحة ملك ولا خلقٌ من خلق الله تعالى إلا استغفر لأهل المجلس، ويكتب لهم بعددهم كلهم حسنات، ويرفع لهم بعددهم درجات، سواءٌ كان في المجلس واحد أو مائة ألف، يأخذ من الأجر هذا العدد، وما عند الله خيرٌ وأجزل".

ثم قال ابن وداعة: "وإذا أردت أن تعرف حقيقة هذا القول؛ فانظر إلى قوله ﷺ: ما جلس قومٌ مجلساً ثم تفرقوا على غير الصلاة على النبي ﷺ؛ إلا تفرقوا على أنتن من ريح الجيفة.! يظهر لك أن المجالس التي يُذكر فيها النبي ﷺ أو يصلّى فيها عليه توجد فيها روائح عطرية، وتنموا منها نوافح مسكية".

"ولما كان هو ﷺ أطيب الطيبين، وأطهر الطاهرين، وكان من خصائصه الشريفة التي عُجلت له من صفات أهل الجنة: أنه لا يمر بموضع ولا يجلس فيه، ولا يمس بيده ولا بجارحةٍ من جوارحه الطاهرة شيئاً إلا ويبقي فيه رائحةً كرائحة المسك، حتى لقد كان أصحابه يعرفون الطريق التي يمر عليها ﷺ بذلك؛ أبقى الله تعالى هذه الكرامة، فكان ﷺ إذا ذُكر في موضع وصلي عليه فيه؛ طاب ذلك الموضع بذكره، ونمت منه روائح طيبة. فصلى الله عليه وعلى آله صلاةً تطيّب مجالسَ الذكر، ويُغفر بها عظيم الوزر". اهـ بلفظه.

الوجه الرابع

[كل الدلائل وأعلام الشريعة تشير إلى اقتران ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى]

اعلم أنك إذا تأملت ببادي الرأي، وأمعنت النظر في جميع ما تقدم من

أول الكتاب إلى هنا، وجدت أن الحق سبحانه وتعالى جعل اسم حبيبه ﷺ مصاحباً لاسمه عز وجل، ومقارناً له في سائر الحضرات الملكية والملكوتية، فكان قلّما يُذكر الله عز وجل إلا وذُكر معه حبيبه ﷺ.

فهذه الخطب لا يثنى على الله سبحانه إلا ويثنى على حبيبه ﷺ أيضاً، وهذه الرسائل كما تُستفتح بحمد الله تعالى والثناء عليه كذلك تستفتح بالصلاة عليه ﷺ والثناء عليه، وهذا الأذان والإقامة لا يكملان إلا بذكره ﷺ مع الله تعالى، وهذا التشهد لا يقال فيه: "التحيات لله"...إلخ إلا ويقال أيضاً: "السلام عليك أيها النبي"...إلخ، وتُسن الصلاة عليه ﷺ في آخره أو تجب، على اختلاف العلماء في ذلك، وهذه تلاوة القرآن يستحب افتتاحها بحمد الله تعالى والصلاة عليه ﷺ.

وهذه الصلاة التي هي عماد الدين وشعار المهتدين؛ ما من فريضةٍ من فرائضها إلا وبجنبها سنةٌ أو سنن، وكذلك بقية قواعد الإسلام الخمس وغيرها، وكذا الطهارة الكبرى والصغرى وبدلهما، كل ذلك احتفت به سنن عدة مما سنه ﷺ وشرعه؛ إشارةً إلى ملاحظته ﷺ ومشاهدة وساطته في كل شيء، وتذكره مع الله تعالى، وعدم الغفلة عنه أصلاً.

وتأمل قوله ﷺ في رمضان: "فرض الله عليكم صيامه، وسننت لكم قيامه"، ومن تتبع الأوامر الشرعية كلها يجد الأمر هكذا؛ ما من أمر إلهي إلا وبجنبه أمر محمدي.

ثم انظر كيف جعل سبحانه التعبد بتعظيم ذكره ﷺ كالتعبد بتعظيم ذكره تعالى، والتقرب إلى حضرته تعالى باسمه ﷺ كالتقرب إلى حضرته باسمه تعالى، وجعل سبحانه اسمه ﷺ داخلاً في أشرف العبادات؛ لا تكمل إلا به، كاسمه تعالى، وجعل سبحانه إشهار اسمه ﷺ بالنداء في الأذان على رؤوس الخلائق كإشهار اسمه تعالى، وجعل لاسمه ﷺ من الاحترام بالانضمام إلى اسمه تعالى مثل ما لاسمه، وكلف عباده بتعظيمه ﷺ كتكليفهم بتعظيمه تعالى.

وعلمت أن المؤمن ينبغي له أن يتخلق بأخلاق ربه سبحانه وتعالى، وأنه تبارك وتعالى قرن اسم نبيه ﷺ باسمه عز وجل في سائر الحضرات من العرش فما دونه.

ثم نظرتَ وتأملت أسرار الأذان وما فيه من اللطائف المؤذنة بإعزاز الحضرة المحمدية والجلالة الأحمدية، وأنه إعلام للكافة والجمهور، ونداء بين أظهرهم وفوق رؤوسهم بسيادته ﷺ، وأنه يندب لكل سامع حكايته ليتلبس بالتعظيم؛ في نفسه بلسانه زيادةً على السمع، ولو كان في صلاة النافلة أو تلاوة القرآن فضلاً عن غيرهما، مع أن المصلي يناجي ربه، ومع ذلك لم يُعذر مع ما هو فيه في إشهار كمالاته ﷺ والاشتغال بما يقتضي حبه وتعظيمه، إشارةً إلى عظيم حقه علينا، ورفعة قدره، وجلالة منصبه، وعلو مكانته، وشفوف مرتبته عند بارئه وخالقه تعالى، وينبغي أن يصرح بذلك تذكيراً واعتناءً، وتلذذاً واستجابةً واستحلاءً، وطُلب في أن يكون على الأماكن المرتفعة، وأن يكون فاعله صيتاً قائماً، وأن يُسمع من كل الجهات، مبالغةً في التنبيه على إجلاله ﷺ، وعظيم منزلته، وأصالة خصوصيته، وإيقاظاً للإقبال على ما جاء به، والاشتغال بما دل عليه وأمر به، من عبادة الله تعالى وطاعته، المقصود ذلك من خلقنا وإيجادنا، وإزعاجاً للقلوب بتذكيرها وصفَ الجلال والكبرياء والعظمة الباعث على القيام بأعباء التكاليف الشرعية.

ولقد نطق الحق على لسان بعض الكفار في قضية ذكرها أبو حيان في تفسيره المسمى بـ: "البحر المحيط"، عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الآية [الزخرف: 44] ونصه: "وذكر أن هلاون - ملك التتر - سأل أصحابه: من الملك؟. فقالوا: أنت الذي دوّخت البلاد، وملكت الأرض، وطاعت لك الملوك. فقال: لا؛ الملك هذا!- وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن - هذا الذي له أزيد من ستمائة سنة منذ مات وهو يُذكر على المآذن في كل يوم خمس مرات. يريد: محمدٌ رسول الله ﷺ". اهـ.

فائدة: قال السُهَيْلي: "الحكمة في إعلام الناس بالأذان على غير لسانه ﷺ التنويه بقدره، والرفع لذكره بلسان غيره، ليكون أقوى لأمره، وأفخر لشأنه". يعني: في قضية مشروعية الأذان على لسان سيدنا عبد الله بن زيد الأنصاري البدري رضي الله عنه مناماً كما في الصحيح. قال الحافظ ابن حجر: "وهذا - أي: كلام السهيلي - حسن بديع، ويؤخذ منه: حكمة عدم الاكتفاء برؤيا عبد الله بن زيد حتى أضيف عمر للتقوية التي ذكرها، ولم يقتصر على عمر؛

ليصير في معنى الشهادة". اهـ، نقله الزرقاني في "شرح المواهب"، وفي "شرح الموطأ".

وفي همزية العلامة ابن زكري:

رفع الله ذكركم فعلمنا أن ذاكركم له استعلاء
في الأذان وفي التشهد كل الـ ـمؤمنين بعزكم شهداء
أي عزٍ ورفعةٍ كانضمام للعزيز الذي له الكبرياء؟

قلت: ولا شك أن استشعار المؤمن بهذه الأسرار التي ذكرناها في الأذان، واستعمال فكره فيها؛ يثمر له محبته ﷺ ويقويها، ويزيد في مادتها. وذلك أصل السعادة والربح دنيا وأخرى؛ لأن الناس يتفاوتون في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبته ﷺ.

فإذا تأملت هذا كله وأحطت بجميعه خُبراً؛ علمت علم يقين رفْع ذكره ﷺ، وجلالة قدره، وعلو شأنه، وإعزاز منصبه، وضخامة مرتبته، وجليل مكانته. وأن ذكره الشريف، والانحياش إلى علا علي قدره المنيف؛ هو أقنوم السعادة الأبدية، والسيادة السرمدية، دنيا وأخرى. فكيف لا يجعله العاقل دأبه وديدنه، ويشغل به سره وعلنه، ويعمر به أوقاته وساعاته؛ تقرباً إليه ﷺ، وخدمةً لجنابه الشريف، وسعياً في مرضاته؟.! اللهم عرفنا إياه معرفةً نسلم...إلخ[1].

وقد قال في "الفتوحات" عند تعرضه للكلام على أسرار الأذان، بعدما ذكر أسرار الكلمة الأولى من الشهادتين؛ ما نصه: "وكذلك قوله: أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ. وهو أنه: لما تشهد بالتوحيد بما أعطاه الدليل، تشهد

(1) يعني بها قول الإمام العارف مولانا عبد السلام بن مشيش قدس سره، في صلاته المشيشية الشهيرة: "اللهم عرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك، حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب لأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمي، بتحقيق الحق الأول، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن...".

به علماً لأعلى طريق القربة؛ لأن الإنسان - من حيثُ عقلُه - لا يعلم أن التلفظ بذلك، وأن النظر في معرفة ذلك، يقرب من الله. وإنما حظه أن يعلم أن نفسه تشرف بصفة العلم على من يجهل ذلك، وأن التصريح به وبكل دليل على مثل هذا العلم على جهة تعليم من لا يعلم، وإرداع المعاند، تشريفاً لهذه النفس على نفس من ليس له ذلك؛ لأنه لا حكم للعقل في اتخاذ شيء قربة إلى الله، فجاء الرسول من عند الله، فأخبره أن يقول ذلك، وأن ينظر في ذلك، أن يخفيه في نفسه ويسره".

"وفي التعليم والإرداع للغير - إذا أعلن به - أن يكون ذلك على طريق القربة إلى الله، فيكون مع كونه علْماً: عبادة، فيقول العالم المؤمن إذا أذن أو قال مثل ما يقول المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله. علماً وعبادةً، ويقولها العامي تقليداً وتعبداً، والتثنية في هذه الشهادة الرسالية والتربيع، والحكم فيها على حكم شهادة التوحيد، سواء في المراتب التي ذكرناها سواء، فإن ثلّث - كأذان البصريين؛ الأربع كلمات على نسقٍ واحدٍ في كل مرةٍ - فهو: أن يقولها في المرة الأولى: علماً، وفي المرة الثانية: تعليماً؛ لأنه معلن، وفي المرة الثالثة: عبادةً. فهي كلها علم وتعليم وعبادة. فافهم". اهـ المقصود منه بلفظه.

وقال في محل آخر ما نصه: "واعلم أن التلفظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد فيه سر إلهي، عرفنا به الحق سبحانه؛ وهو: أن الإله الواحد الذي جاء بوصفه ونعته الشارع؛ ما هو التوحيد الإلهي الذي أدركه العقل، فإن ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد، فهذا التوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ما هو التوحيد من حيث ما أثبته النظر العقلي، وإذا كان الإله الذي دعانا الشرع إلى عبادته وتوحيده إنما هو في رتبة كونه إلهاً لا في ذاته؛ صح أن تنعته بما نعته به من النزول والاستواء والمعية، والتردد والتدبر. . .وما أشبه ذلك من الصفات التي لا يقبلها توحيد العقل المحض، المجرد عن الشرع".

"فهذا المعبود ينبغي أن تُقرن شهادة الرسول برسالته بشهادة توحيد مرسله، ولهذا يضاف إليه، فيقال: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول

الله. كل يوم ثلاثين مرة: في أذان الخمس صلوات، وفي الإقامة. والمتلفظون بهذه الشهادة الرسالية؛ التفصيل فيهم كالتفصيل في شهادة التوحيد، فلنمش بها على ذلك الأسلوب من المراتب. وفي الإيمان بالله وبرسوله: الإيمان بكل ما جاء به من عند الله ومن عنده، مما سنه وشرعه، ويدخل فيما سنه: الإيمان بسنة من سن سنة حسنة، فاستمر الشرع وحدوث العبادة المرغب فيها، مما لا ينسخ حكماً ثابتاً إلى يوم القيامة". اهـ المقصود منه بلفظه أيضاً.

قلت: وما ذكره من أن الشهادة الرسالية تكرر كل يوم ثلاثين مرة في الأذان والإقامة؛ إنما يأتي على مذهب من يثنّي الشهادتين في الإقامة؛ وهو: مذهب الشافعية. وأما على مذهب من يفردهما ولا يثني إلا التكبير - كالمالكية - فالعدد: خمس وعشرون فقط. فتأمله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن كلام للشيخ الإمام، العارف بالله تعالى، المحقق الرباني؛ أبي عبد الله سيدي محمد الحراق رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته، في بعض رسائله ما نصه: "قال رضي الله عنه في معنى الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله: جمع لحقيقة التوحيد باطناً. وأشهد أن محمداً رسول الله: جمع لماهيته ظاهراً؛ لأن الحقيقة المحمدية هي ظاهر التكوين، والحقيقة الأحمدية هي باطنه، ومن أراد الدخول في الإسلام؛ تعين عليه إخلاص التوحيد من ظاهره وباطنه؛ لأن ملكوت كل شيء وحقيقته الباطنة جميعاً: أحدية. وملك كل شيء وحقيقته الظاهرة جميعاً: محمدية".

"فلا [مفر] من إقراره بالتفريد ظاهراً وباطناً؛ لأنه هو في خاصة نفسه أحدي باطناً، ومحمدي ظاهراً. فلا بد من الاعتراف الدال على باطنه وظاهره، فلا تجزيه: لا إله إلا الله وحدها؛ لأنه إقرار بالتفريد والأحدية باطناً فقط، ولا يجزيه: محمد رسول الله وحدها؛ لأنه اعتراف بالتفريد والأحدية ظاهراً فقط. فلا بد من الجمع بينهما، وهذه هي النكتة في دخول الكافر في الإسلام بالشهادتين؛ ليسقط عنه ما عمل في حال كفره، لإقراره بالفاعل انفراداً".

"وفي كل حال: لا بد من التلبّس بمعنى هذا الاعتراف علماً وشهوداً،

وبذلك جاء الحديث بالبطاقة التي يخرجها الحق سبحانه لمن غلبت سيئاته حسناته حتى ظهر له أنه هالك، فيقول سبحانه: إني خبأت لك خبئاً عندي. فيقول: يا رب؛ وما هو؟. فيخرج له بطاقة فيها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فتوضع في الميزان، فتطيش سيئاته. وذلك - والله أعلم - لتلبُّسه بتفريد الحق سبحانه ظاهراً وباطناً، فينسلخ من حقيقته وصفاته وأفعاله، حسنة كانت أو سيئة؛ فتبطل - إذ ذاك - باطنةً كانت أو ظاهرةً؛ لسقوط الباطنة بتفريد الفاعل المختار باطناً، وسقوط الظاهرة بتفريد الفاعل المختار ظاهراً. ويبقى العبد بربه سالماً من عيوب الشركة في الذات والأفعال والصفات".

"لكن الحق - سبحانه - يبقي عليه حسناته؛ لأنه ذكر - سبحانه - أنه تفضل بها عليه؛ لقوله: ما أصابك من حسنة فمن الله. وحاشاه أن يستردّ ما وهب، أو يسلب ما أعطى، وهو المفضال الغني. وأما السيئات؛ فقد ذهبت ببيان التفريد. والله تعالى أعلم".

"ولولا نور المذكور في طي أسمائه؛ ما طاشت السيئات بوضع البطاقة في الميزان. ولذلك اعتنى الناس بسر حروف الأسماء لا بالحروف. وقال ابن عطاء الله: وصُنّي بسر اسمك المصون. ولم يقل: باسمك. لأن أسماء الحق سبحانه قد استكنّ فيها نور المذكور لا نور الذكر، فالذاكر صدقاً يلوح له من ذكره نور ذات مذكوره؛ لغيبته عن الذكر في المذكور، الذي هو سر الاسم".

"وهذه البطاقة التي ذكرها رسول الله ﷺ أنها توضع في الميزان فتطيش بسببها السيئات؛ إنما طاشت السيئات بسببها لكون ذاكرها كان حين ذكره عند الحق سبحانه علماً وشهوداً، ويدل لذلك: قوله تعالى: عندي. في الحديث المتقدم. وإنما وسعها الميزان؛ لما فيها من الفرق، وهو: لا إله إلا الله. ومحمدٌ رسوله. الدال على عالم الملك، ولولاه - أي: الفرق - لما وسعه ميزان ولا أرض ولا سماء؛ لأنه - سبحانه - منزّه عن أن يحويه زمان أو مكان". اهـ كلام الإمام الحرّاق رضي الله تعالى عنه بلفظه.

الوجه الخامس

[ذكر اسم النبي ﷺ مفردا من أعظم الأذكار، فضلا عن اقترانه باسم الجلالة]

اعلم أن ذكره ﷺ مجرداً، واللجاج باسمه الشريف مفرداً؛ من أعظم الأذكار قدراً، وأنجحها قصداً، فأحرى مع اقترانه باسم الله تعالى.

وذلك؛ لأنه ﷺ هو باب الله الأعظم، فمن ذكره كمن ذكر الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10].

ومن أسمائه ﷺ: ذِكْرُ الله. كما في "دلائل الخيرات" وغيره. ومن أسمائه ﷺ: الذكر. قال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق: 10 - 11]. الآية. قال جماعة: هو سيدنا محمد ﷺ. وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ذكر الحافظ السيوطي في تفسيره المسمى بـ: "الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور"، عن مجاهد في تفسير هذه الآية الكريمة، قال: "بسيدنا محمدٍ ﷺ وأصحابه". وكذا ذكره القاضي عياض في "الشفا" وغيره. قال القاري في شرحها: "أي: بما يذكر عنه ويروى عنه وعن أصحابه؛ لما يفيد من الدلالات اليقينية، والإفادات العلمية في الأمور الشرعية، مما تطمئن به القلوب، وتسكن به النفوس. أو بمجرد ذكره وذكر أصحابه؛ فإن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، وعند نزول الرحمة يحصل للقلوب الاطمئنان والسكينة". اهـ. فقف على قوله: "أو بمجرد ذكره".

وقال الشيخ الإمام سيدي المهدي الفاسي في شرحه على "دلائل الخيرات"، المسى بـ: "مطالع المسرات"، ما نصه: "ومعنى كونه ﷺ: ذكر الله؛ أن من رآه ﷺ أو سمع باسمه الشريف وأحواله المنيفة وأخلاقه الحميدة؛ ذكر الله تعالى وحمده، وأثنى عليه بما هو أهله، وآمن به وصدقه؛ فكان وجوده سبباً في ذكر الله، فسماه الله تعالى: ذكر الله. ولأن ذاته توجب ذكر الله، وصفاته توجب توحيد الله، وأفعاله تدل على الله، وأقواله تأمر بذكر الله؛ فكان ﷺ ذِكر الله في كل أحواله وأفعاله وصفاته، ونومه ويقظته".

"ولكثرة ذكره ﷺ لمولاه في دنياه وأخراه، وحمده إياه في جميع أحواله،

ولرفعة قدره عند الله تعالى وشرف منزلته عنده. والذكر: الشرف. ولذكر الله سبحانه له قبل الخلق؛ فإنه أول ما جرى في الذكر ذكرُه، وهو الأول في المقادير، وأول مذكور في اللوح. ولكثرة ذكره تعالى له؛ لأنه مكتوب على العرش وعلى السموات وجميع مواضعها، والجنان وجميع ما فيها، وخلق خلقه على صورة اسمه ﷺ، وأضاف اسمه إلى نفسه، وقرن اسمه مع اسمه، واشتق اسمه من اسمه، ومن ذكره فقد ذكر الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، ومن بايعه فإنما بايع الله. فكان ﷺ ذِكْرَ الله تعالى في كل وجه". اهـ.

وتقدم عن "الشفا" و"المواهب" عن ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: "جعلتك ذكراً من ذكري، فمن ذكرك ذكرني". قال بعضهم: "أي: جعلت اسمك الكريم نوع ذكر من أذكاري، أفيض على ذاكره أسراري، وأحليه بأنواري". وقال الملا علي القاري: "أي: جعلتك نوع ذكرٍ من أذكاري".

وقال الزرقاني في "شرح المواهب": "إني جعلت ذكرك ذكراً من ذكري. أو: جعلت ذاتك مبالغةً حتى كان من رأى ذاته ذكر الله. أو المعنى: كأن ذكرك عين ذكري؛ لعدم انفكاكه عنه غالباً. أو: هو مثله في التقرب والأجر. أو: هو معدود من أفراده؛ لأن كل مطيع لله ذاكرُه". اهـ.

وقال في "عرائس البيان": "جعلتُ تمام الإيمان في ذكرك معي، وجعلتك ذكراً من ذكري؛ فكأن من ذكرك ذكرني". اهـ.

وقال العارف الهاروشي في أول كتابه "الفتح المبين" نقلاً عن بعضهم: "إن ذاكر النبي ﷺ يُعد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، والغافل عن ذكره يُعد من الغافلين". اهـ. ونحوه للحافظ السخاوي وغيره.

وفي "مفتاح الشفا" للعلامة أبي زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي ما نصه: "وقد أجمع أهل الطريق على أن ذكر النبي ﷺ وحبه مما يعين على ذكر الله تعالى وحبه، ولا يشغل عنه، بل يقوى به، ويزيد، وتحفظ به الرسوم الشرعية عند ورود الأحوال". اهـ.

وفي "مسالك الحُنَفا" للإمام القسطلاني: "إن قيل: هل الأَوْلى الاشتغال

بذكر الله تعالى أو بالصلاة على النبي ﷺ؟. فالجواب كما قال بعضهم: إن الصلاة على النبي ﷺ من ذكر الله تعالى؛ فلا يختلج في فكرك ما تفوّه به بعضهم من أن الصلاة عليه ﷺ ليست من ذكر الله تعالى، إذ هذا - والعياذ بالله تعالى - خروج عن دائرة العلم إلى محض الجهل، ففي الخبر: إن الله تعالى قال: يا محمد؛ من ذكرك ذكرني. وأيضا؛ ليست كيفية من الصلاة عليه ﷺ إلا وفيها اسم من أسمائه تعالى، أو صفة من صفاته". اهـ.

ونحوه للإمام الساحلي في "بغية السالك"، ونقله عنه الشيخ جسُّوس في شرح تصوف "المرشد"، كما نقله - أيضاً - صاحب "تحفة الإخوان"، ونصه: "واعلم أن الصلاة على النبي ﷺ ذكرٌ مِن ذِكر الله؛ فلا يختلج في فكرك ما يفوه به بعض المحجوبين عن تلمُّح معنى الشريعة، المطرودين عن تحقيق وجوه العبادات، فقالوا: الصلاة على النبي ﷺ ليست من ذكر الله تعالى، توطية إلى ترك الصلاة على النبي ﷺ، واستدراجاً للإقلال منها، وهذا - والعياذ بالله - خروج عن دائرة العلم، وإخلاد إلى حضيض الحرمان. وقد جاء في بعض الآثار أن الله تعالى قال: يا محمد؛ من أحبك فقد أحبني، ومن ذكرك فقد ذكرني".

"وليست كيفية من كيفيات الصلاة على النبي ﷺ إلا وفيها اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته؛ فكيف يكون ذاكر اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته غير ذاكر لله؟. ومع ذلك؛ فالقيام بالصلاة على النبي ﷺ قيام بأمر لله تعالى حين أمرنا بالصلاة عليه، والقيام بالأمر ذكر للآمر. وهل المصلي على النبي ﷺ إلا يناجي ربه يطلب منه الصلاة على النبي ﷺ؟.! فقد تضمنت الصلاة على النبي ﷺ ذكر الله من وجوه". اهـ منه بلفظه.

وفي شرح "المشيشية" للعلامة ابن زكري بعدما ذكر أن اسمه ﷺ مشتق من اسم الله تعالى ما نصه: "وفي الحكم بالاشتقاق إشارةٌ إلى أن في الفرع - وهو: محمد - ما في الأصل - وهو: محمود - وزيادة؛ إذ حمدُه ﷺ متضمن حمد الله تعالى. والمقصود من الثناء على الواسطة: التوسل إلى من وسّطه، بخلاف العكس؛ إذ لا يشهد مرتبة الرسالة عند ذكر الله تعالى إلا

العارفون من حيثية واسطته لهم في ذلك، ومن أثنى على عبد الملك لأنه عبد الملك؛ كان ذلك منه أدل على محبته للملك من ثنائه على الملك؛ لأن من الناس من قد يخضع للملك ولا يخضع لعبده. ومن هنا قال الشيخ زرّوق: إن الصلاة على النبي ﷺ أعظم العبادات وأشرفها؛ لقوة دلالتها على قوة الامتثال...".

ثم قال: "فإن قيل: لم بولغ في حمده دون حمد الله تعال، فقيل فيه: محمود؟. قلت: لما مر من أن حمده متضمن حمد الله تعالى، ولأن محمديّته لما كانت بجعل الله تعالى؛ احتيج للتنبيه على كمالها. قال الإمام الخرّوبي: المصلي عليه ﷺ ممتثل لأمر الله، والقيام بالأمر ذكر. وأيضاً؛ المصلي يناجي ربه، والمناجاة ذكر. وأيضاً؛ الصلاة على النبي ﷺ لا بد أن تكون مقرونةٌ باسمٍ من أسماء الله تعالى أو صفةً من صفاته، وإمرار ذلك على اللسان ذكر. وهذه الأوجه الثلاثة؛ تصح لكل مصلٍ عليه ﷺ".

"وذلك أن الخواص: إذا مر على ألسنتهم ذكر النبوءة والرسالة؛ استحضروا مع ذلك أسماء المرسِل وصفاته العظيمة، ومعاني الأمور المرسل بها؛ من أمر ونهي، ووعد ووعيد...إلى غير ذلك، وسلسل بهم الأمر إلى استحضار أمور كثيرة، ومعانٍ عديدة، تهديهم إلى تعظيم أمر المرسِل والمرسَل به، وهذا ذكر يطلق عليه اسم: الذكر من وجوه". اهـ بلفظه.

وفي "مرآة المحاسن"[1] عن الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه ما نصه: "اعلم أن المثابرة على الأذكار والدوام عليه؛ تكسب نورانية تحرق الأوصاف، وتثير وهجاً في الطباع، يخرج عن حد الاعتدال إلى حد الانحراف، فمن ثَم أُمر عند ذلك بالصلاة على النبي ﷺ؛ لأنها كالماء: تقوي النفوس، وتذهب وهج الطباع. ولهذا قال بعض الشيوخ: من لم يجد مربياً؛ فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ. وإنها لكذلك؛ لما فيها من سر الاعتدال

(1) يعني: "مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن" للإمام محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري. وأبو المحاسن هو والده الإمام يوسف بن محمد الفاسي الفهري، وقد طبع الكتاب بتحقيقنا، أصدرته دار النجاح الجديدة بالمغرب.

الجامع لكمال العبد وتكميله. ففي الصلاة على رسول الله ﷺ ذكر الله ورسوله، وليس كذلك عكسه، فلذلك يحصل الانحراف بالذكر دون الصلاة والسلام على النبي ﷺ؛ فهو عجيب!". اهـ. ونحوه في "مطالع المسرات"، انظره.

وقال بعض الأيمة عند تعرضه لبعض فوائد الصلاة على النبي ﷺ ما نصه: "ومنها: ما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله؛ ففيها ذكر الله تعالى، ولا كذلك عكسه. ولذا قالوا: إن من فسد مزاجه بالمثابرة على ذكر الاسم؛ فإصلاحه بأن يصلي على النبي ﷺ إثر صلاة الصبح مائة مرة، بقوله: اللهم صل على سيدنا محمدٍ وعلى آله صلاة تخرجني من ظلمات الوهم، وتكرمني بنور الفهم، وتوضح لي ما أشكل حتى يُفهَم، إنك تعلم ولا نعلم، وأنت علام الغيوب".

"ومنها: ما عرف وجرب من تأثيرها والنفع بها في التنوير ورفع الهمة، حتى قيل: إنها تكفي عن الشيخ في الطريق، وتقوم مقامه كما للشيخ السنوسي في شرح صغرى صغراه، والشيخ زرّوق، وأشار إليه الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن موسى بن مشرع اليمني في جوابٍ له".

"وأيضاً؛ كانت تقوم مقام الشيخ المربي؛ لما فيها من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله، ولهذا يحصل الانحراف بالذكر دونها. قال العارف بالله أبو زيد الفاسي رحمه الله تعالى: قال الشيخ زرّوق: قال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي الله عنهما: وعليك بدوام الذكر، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ؛ فهي سلم ومعراج، وسلوكٌ إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخاً مرشداً. فقد سمعت في سنة ست وأربعين وثمانمائة بالحرم الشريف رجلاً من الصالحين روى لي ذلك عن رجل من أهل الصدق مع الله، وكلاهما معروف ورأيتهما. قال الشيخ زرّوق: قلت: وذلك يرفع همة المتوجه وإن كان في مقام التخليط؛ لأنه نور كله - يعني: الذكر والصلاة على النبي ﷺ - والنور من طبعه: ينفي الظلمة؛ فهي أعظم فائدة والحمد لله". اهـ.

[كثرة الصلاة على النبي ﷺ تقوم مقام شيخ التربية]

قلت: وقد ذكر ذلك الشيخ زرّوق في قواعده، والإمام السنوسي في "شرح صغرى الصغرى"، وأبو العباس اليمني في جوابٍ له، ونقله عنهم العلامة المحقق الشيخ الطيب ابن كيران في "شرح الحكم"، وتلميذه العلامة الأديب سيدي حمدون ابن الحاج في "شرح عقود الفاتحة"، والعلامة سيدي المهدي الفاسي في "شرح الدليل"، والعارف الفاسي في "حواشي الصغرى".

والشيخ جسّوس في شرح تصوف "المرشد"، وزاد عقبه متصلاً به ما نصه: "وقد استشهدوا لذلك بقوله ﷺ لمن قال له: أجعل لك صلاتي كلها: إذن؛ تكفى همك، ويُغفر ذنبك: وهو ظاهرٌ. وبين ذلك أيضاً ما في "العهود" من أن: المكثر من الصلاة على النبي ﷺ يصير يشاهده نوماً ويقظةً ومتى شاء، ويسأله عما يعرض له، وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عنده. وأشار لهذا المعنى الشيخ الجزولي - نفعنا الله به - وهي: من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب. قال ذلك شيخنا المحقق في شرحه لـ: "النصيحة الكافية" ". اهـ منه بلفظه.

ونص ما للسنوسي في شرح "صغرى الصغرى": "وقد رأيت لبعض أيمة التصوف أن: من فقد شيوخ التربية؛ فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ؛ فإنه يصل به إلى مقصده". اهـ.

وجواب المشرع اليمنى المذكور: نقله العلامة سيدي حمدون ابن الحاج في شرحه لنظمه "عقود الفاتحة"، ونصه: "وسئل الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى المشرع اليمني رضي الله عنه عن قراءة القرءان وعن الصلاة على النبي ﷺ. فقال: الصلاة على رسول الله ﷺ هي قرءان القرءان، وفرقان الفرقان. أي: تنتج لصاحبها شهود الذات في حقائق الصفات، وحقائق الصفات في معاني الذات". اهـ كلام ابن الحاج. ورأيت هذا السؤال والجواب مقيداً أيضاً بخط شيخ شيوخنا العلامة سيدي الحاج محمد كنون رحمه الله في تقييد له.

قلت: وفيه غموض. والمعنى: إن كثرة الصلاة عليه ﷺ تنوّر قلب صاحبها، وتخرق له الحجب والكثافات النفسية حتى تنكشف له أسرار القرءان وحقيقة التوحيد، إذ الحامل له على كثرتها: محبته ﷺ المستلزمة لاتباعه واقتفاء هديه وسيرته، وهذا معنى قولهم: تقوم مقام الشيخ المربي. لأن المقصود من التربية هو هذا، فتأمل. والله أعلم.

وقد ذكر العلامة المحقق الشيخ الطيب ابن كيران في شرحه للحكم العطائية ما نصه: "ومن فوائد الصلاة على النبي ﷺ: أنها تنوّر القلب، وبقدر ذلك النور يقبل صاحبه على الخير والاستقامة، وينشأ عن ذلك النور نور حسي؛ لخبر ابن وداعة عن ابن عمر رفعه: أكثروا من الصلاة علي؛ فإنها نور في القبر، ونور على الصراط، ونور في الجنة...".

ثم قال: "ومنها: قلع الأغيار من القلب؛ فإذا تحلى منها؛ أشرق فيه نور جماله الحسي والمعنوي. ومنه: إحسانه. وهما سبب المحبة؛ فتقوى محبته في القلب، فلا يبقى له غرض إلا رضاه، ويميز بسبب ما أشرق فيه من النور بين الحقائق فيدركها على ما هي عليه بلا التباس، فيظهر له الحق حقاً، والباطل باطلاً، إدراك تمكن؛ كالمرآة الصقيلة؛ تظهر فيها الأشياء على ما هي عليه، فيزعجه ذلك للعمل بما جاء به، ويصير هواه تبعاً له". اهـ المراد منه.

تنبيه: [حول قيام الصلاة على النبي ﷺ مقام شيخ التربية]

هكذا اشتهر أن الصلاة عليه ﷺ تقوم مقام الشيخ المربي إذا لم يوجد. وكتب عليه مولانا الشيخ الأستاذ، العمدة الهمام المحقق، حجة العارفين؛ أبو الفيض [محمد بن عبد الكبير الكتاني] رضي الله تعالى عنه، بعد نقله ما نصه: "قلت: ولا بد أن يقيّد هذا الكلام الشائع بشرطين:

"الأول: الكثرة الحقيقية، لا مطلق ورد يومي أو ليلي؛ كالمائة والمائتين. فإن هذا إنما يوجب مطلق التنوير، ومجرد البعد عن المعاصي وكراهتها في القلب ببركة أنوار الصلاة على الحبيب. وعدد الكثرة: ما أشار إليه في "العهود"، ونصه: فكان ورد نور الدين الشوني كل يوم: عشرة آلاف، وكان ورد الشيخ أحمد الزواوي: أربعين ألف صلاة".

"فإن قلت: وهل لهذه الكثرة من علامة؟. قلت: نعم؛ وهي: ما أشار إليه في "العهود" نقلاً عن الزواوي: وقال لي مرة: طريقتنا أن نكثر من الصلاة على النبي ﷺ حتى يصير يجالسنا يقظةً، ونصحبه مثل الصحابة، ونسأله عن أمور ديننا، وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عندنا، ونعمل بقوله ﷺ فيها، وما لم يقع لنا ذلك؛ فلسنا من المكثرين للصلاة على النبي ﷺ. فهذا ضابط الكثرة، وثمرة الكثرة".

...ثم قال:

"الشرط الثاني: لا يقدر المكثر منها - الإكثار المغني عن الشيخ - في أن يكون متبحراً في علم الشريعة، عالماً بما يأتي ويذر، مع ضميمة التحلي بحلية الورع. وإلا؛ فالمخلط مع عدم التضلع بالعلوم الشرعية لا يمكنه إلا مطلق التنوير؛ لأن المصلي جليس لله تعالى ولرسوله، ومجالسة الحق جل سلطانه لا بد لها من أدبٍ عظيمٍ كبيرٍ، وليس إلا بالعمل بالشريعة على ما ينبغي على وفق الورع. وكذلك مجالسة مولانا رسول الله ﷺ لا بد لها من عمل بالآداب الشرعية، وصفاءٍ عظيمٍ. قال في أول "العهود": وصحبة النبي ﷺ البرزخية تحتاج إلى صفاءٍ عظيمٍ حتى يصلح العبد لمجالسته ﷺ، وإن من كانت له سريرةٌ سيئةٌ يستحي من ظهورها في الدنيا والآخرة؛ لا تصلح له صحبةً مع مولانا رسول الله ﷺ ولو كان على عبادة الثقلين، كما لم تنفع صحبة المنافقين. ومثل ذلك: تلاوة الكفار للقرآن؛ لا ينتفعون به؛ لعدم إيمانهم بأحكامه. اهـ منها".

"فإن وجد في شخصٍ هذا الشرط؛ وهو: التبحر في العلوم الشرعية التبحر المتبوع بالعمل على وفق الورع؛ يحتاج بعد إلى الإكثار الحقيقي والمداومة عليه، وإن وجد في شخص الإكثار وداوم عليه، وعدم الشرط الثاني؛ فربما يغنيه ويكفيه؛ لقوة نور الصلاة على الحبيب".

ثم ذكر حكايةٍ أوردها الساحلي في بغيته، والشعراني في "العهود"، وهي: أنه اجتمع ثلاثةٌ على طعام، وكانت بأحدهم علة الزكام لا تفارقه، حتى إنها تحرمه حاسة الشم. فقال أحدهم للآخر: "لك ثمانية أعوام فما

أثّرت فيك التصلية!". فقال له: "يا سيدي؛ زاد عندي كذا وكذا". فقال: "تنفس في كف فلان". قال: "فتنفس، فهبت من نفَسه رائحة المسك، لكنها ضعيفة". ثم تنفس الشيخ الآخر - وهو: الشيخ أبو عمران البردعي - قال: "فوالله لقد شقت رائحة المسك خياشيم الذي به علة الزكام حتى أرعفته من فوره، وسال الدم من أنفه، وعمت الرائحة المنزل حتى بلغ الجيران روائح المسك!!". ثم قال: "يظن أصحاب سيدنا محمدٍ ﷺ أنهم فازوا به دوننا، والله لنزاحمنّهم فيه حتى يعلموا أنهم خلّفوا بعدهم رجالاً يصلون عليه ﷺ !". اهـ كلام الشيخ رضي الله عنه.

قلت: ومما هو ملحق بهذا: ما ذكره ابن بُشكوال وغيره عن محمد بن سعيد بن مطرف الخياط قال: "كنت جعلت على نفسي كل ليلة عند النوم إذا أويت إلى مضجعي عدداً معلوماً أصليه على سيدنا محمدٍ ﷺ، فإذا أنا في بعض الليالي قد أكملت العدد، فأخذتني عيناي، وكنت ساكناً في غرفة، فإذا بالنبي ﷺ قد دخل عليَّ من باب الغرفة، فأضاءت به نوراً، ثم نهض نحوي وقال: هات هذا الفم الذي يكثر الصلاة عليَّ أقبله. فكنت أستحي منه أن يقبلني في فمي، فاستدرت بوجهي، فقبل في خدي وانتبهت فزعاً في الحين، وأنبهت صاحبتي إلى جنبي وإذا البيت يفوح مسكاً من رائحته ﷺ، وبقيت رائحة المسك في خدي نحو ثمانية أيام، تجدها زوجي في كل يومٍ وليلة في خدي". اهـ. جعلنا [الله] من أهل هذا الشأن بمنه.

هذا؛ وقد ذكر في "مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص" للإمام اليوسي، نقلاً عن صاحب "مفتاح الفلاح" ما نصه: "الذكر هو: التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق. وقيل: ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان، وسواء في ذلك ذكر الله أو صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو استدلالٌ على شيء من ذلك، أو دعاء أو ذكر رسله وأنبيائه وأوليائه، أو من انتسب إليه أو تقرب منه بوجهٍ من الوجوه، أو سببٍ من الأسباب، أو فعلٍ من الأفعال"...اهـ بلفظه.

فانظر كيف عمم؛ فجعل ترديد اسم كل من ينسب إلى خيرٍ ذكراً يثاب

عليه، فكيف بترديد اسم سيد الكائنات، وأشرف المخلوقات؟، فكيف لا يكون ترديد اسمه الكريم من أفضل القربات والطاعات، وأولى ما تعمر به نفائس الأوقات والساعات، وتصرف إليه الهمة من أهل البدء والنهايات، ويؤمن صاحبه من جميع المحن والآفات؟.! وإذا رتب على ذكر اسم غيره ﷺ من الأنبياء من الفضل ما نذكره؛ فكيف به ﷺ؟.

ذكر الشيخ أبو القاسم القشيري في تفسيره: أن في بعض التفاسير: "إن الحية والعقرب أتيا سيدنا نوحاً عليه السلام، فقالتا: احملنا. أي: في السفينة. فقال نوح: لا أحملكما، فإنكما سبب الضرر. فقالتا: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك. فعاهدهما وحملهما. فمن قرأ ممن كان يخاف مضرتهما حين يمسي وحين يصبح: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ [الصافات: 79 - 81]. ما ضرتاه".

[ذكر اسم النبي ﷺ يقي لدغة العقرب]:

ونقل ابن عبد البر في "التمهيد" عن سعيد بن المسيب قال: "بلغني أن من قال حين يمسي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات: 79]؛ لم يلدغه عقرب". اهـ. نقله القسطلاني في شرح البخاري.

وقال عمرو بن دينار: "إن مما أُخذ على العقرب: أن لا تضر أحداً من قال في ليلٍ أو نهارٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾". اهـ. نقله الكمال الدميري.

فإن قلت: هذه مزية لسيدنا نوحٍ عليه السلام، ولا يلزم اطرادها في غيره.!

قلت: قد تقرر عند العلماء أنه: ما أوتي نبيٌّ فضيلة أو منقبة، إلا وأعطي نبينا ﷺ مثلها أو ما هو أعظم وأجل مرتبةً، وقد نقل الكمال الدميري عن بعض العلماء المتقدمين أن: من قال في أول الليل وأول النهار: "عقدت زبان العقرب، ولسان الحية، ويد السارق، بقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"؛ أمن من الحية والعقرب والسارق.

فائدة: روى الإمام مالك والجماعة إلا البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ ما لقيتُ من عقربٍ

لدغتني البارحة. قال: أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم تضرك". ونسب القسطلاني في "إرشاد الساري" هذا الحديث لأصحاب السنن مقتصراً على ذلك، مع أنه رواه مسلم في صحيحه، وقد تقرر عند المحدثين أن الحديث إذا كان في الصحيحين أو أحدهما فلا يعزى إلى الغير إلا بعد عزوه لمن خرجه منهما. وفي كامل ابن عدي: أن الرجل المذكور هو: بلال رضي الله عنه.

وفي رواية للترمذي: "من قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم تضره حمةٌ تلك الليلة". قال سُهيل: "فكان أهلنا يقولونها كل ليلة، فلدغت جاريةٌ منهم، فلم تجد لها وجعاً". وقال: "هذا حديث حسن".

وفي صحيح مسلم - أيضاً - عن خولة بنت حكيم السلمية أنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا نزل أحدكم منزلاً؛ فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه".

وحكى الدَّمِيري عن الشيخ الإمام الحافظ فخر الدين عثمان بن محمد بن عثمان القوريزي نزيل مكة المشرفة أنه قال: "كنت أقرأ بمكة الفرائض على الشيخ تقي الدين الحوراني، فبينما نحن جلوس، وإذا بعقربٍ تمشي، فأخذها الشيخ بيده وجعل يقلبها في يده، فوضعت الكتاب من يدي، فقال: اقرأ. فقلت: حتى أتعلم هذه الفائدة. فقال: هي عندك. قلت: ما هي؟. قال: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: من قال حين يصبح وحين يمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. لم يضره شيء.! وقد قلتها أول النهار".

[ذكر اسم النبي ﷺ مجردا من أعظم الأذكار]

هذا؛ وقد ذكر بعض العارفين أن ذكره ﷺ مجرداً، واللهج باسمه الشريف مفرداً؛ من أعظم الأذكار قدراً، وأكملها نفعاً، وأكبرها أجراً. وله من الثمرات والفوائد ما لا يُنال بجدٍ ولا تشميرٍ، ولا يقدر قدره إلا اللطيف الخبير، وأن المواظبة على ذكر اسمه الشريف "محمدٍ" بلفظ: "سيدنا محمدٍ ﷺ" . . .إلخ

العدد، وأقله: ألف في اليوم للمشتغلين وأهل الحرَف، ولغيرهم: عشرة آلاف، بتوجهٍ تام وحضور قلب؛ تورث من العلوم والأسرار، وتخرق من الحجب والأستار، ما لا يدخل تحت حصرٍ، وتقطع من العقبات ما لا تقطعه الرياضة والمجاهدة السنين المتطاولة، وأنه سريع الفتح لمن داوم عليه.

وفي "شرح الإحياء" لخاتمة الحفاظ الشيخ مرتضى الحسيني الزبيدي الحنفي، نقلاً عن شيخ بعض شيوخه: الشهاب أحمد بن مصطفى الإسكندري؛ الشهير بالصباغ، في آخر إجازته ما نصه: "واعلم أن من أقرب أسباب رؤيته ﷺ: كثرة الصلاة عليه بأي صيغةٍ، وما فيها لفظ "محمد" أكمل، وأقل الكثرة: ألف مرةٍ في الليلة. فإن أهل الخصوصية نصوا على ذلك، وحضوا عليه كثيراً. ولقد سأله الفقير عن ذلك؛ فأشار برأسه أن: نعم". يعني: النبي ﷺ.

ثم قال: "وبالجملة؛ فأنجح شيء في هذا المقام: كثرة الشوق، وصدق التعلق به، واللجاج باسمه ﷺ، خصوصاً بعد وضع رأسك للوساد لطلب النوم ليلاً أو نهاراً، بعد ما قسم لك من الذكر أو القرءان، تختم بهذا الاسم الكريم اثنين وعشرين مرةً، فتجد له ما لا يدخل تحت حصر من الخير الجسيم. والله أعلم". اهـ بلفظه.

ونحوه للعارف البكري في شرحه على حزب النووي، حسبما نقله صاحب "سعادة الدارين"، ونصه: "ذكر العارف بالله سيدي الشيخ مصطفى البكري في أواخر شرحه على حزب النووي أن: من فوائد الاسم الكريم "محمد": من قرأه كل ليلةٍ اثنين وعشرين مرة؛ كثرت رؤيته للنبي ﷺ". اهـ بلفظه.

وقال العارف البوني في رسالته في الأسماء النبوية: "ما ناجى الله تعالى عبدٌ باسم سيدنا محمد ﷺ إلا رأى من أنواع المزيد ما تقصر الألسنة عن وصفه، ويبارك له في نفسه، وماله، ويأمن من كل مخوف. ولا يحل بمكان إلا كثرت عليه البركات، وظهرت على أهله الخيرات والزيادات، ومن ذكره؛ نور الله تعالى باطنه بنور يشهده، وزين ظاهره بأنوار الجمال، وأطلعه على عيب نفسه. وفيه أسرار عجيبة لمن كان صاحب حال صادقة، وفوائد كثيرة

يعرف بها أهل الفهم عن الله تعالى". اهـ.

وقال شيخ شيوخنا: الفقيه العلامة سيدي الحاج محمد كنّون في ختمه لـ: "المختصر"، عند تعرضه للكلام على جواز الذكر بالاسم المفرد، ما نصه: "وقد أجاز - أيضاً - شيوخ الطريق - كما قال الشيخ أبو القاسم المريد، ونقله عنه الساحلي - ذكر الأسماء المفردة لرسول الله ﷺ، وحضوا على ذلك؛ كأن يقول: الحبيب. الحبيب. الحبيب. ويستمر على ذلك؛ فإنه يجد في كل مرةٍ من الفتح والذوق ما لا يجده في غيرها، وما دام يعدده؛ فهو يستحليه، حتى كأن كل مرةٍ عنده هي المرة الأولى، وكأنه لم يتقدم له منه ذكرٌ؛ فهو في كل مرةٍ كالظمآن الذي وجد جرعةً باردةً حلوةً، والمحب في مقام التملق لمحبوبه، يناجيه بالكلمة الواحدة أياماً، بل شهوراً، بل سنين، لا يسأم منها ولا يمل، بل يجد في كل مرةٍ حلاوةً جديدةً، ونشاطاً غير النشاط الأول".

"فهي واحدةٌ بالذات، ومختلفة بحسب ما يحدث من اللذة، ويتجدد من الحلاوة، وينشأ من الإقبال، ويتحصل من اللطائف، حتى كأن تلك الكلمة - باعتبار مرات النطق - كلمات مختلفة من وجوهٍ كثيرةٍ غير منحصرة، ولاسيما إن استعمل ذلك على سنن الخطاب، كأن يقول: يا نعم الحبيب، يا نعم الحبيب، يا نعم الحبيب. . .ويستمر على ذلك إلى أن يغيب فيه. منّ الله علينا بذلك. . .آمين". اهـ منه بلفظه.

وقال لي بعض أيمة العلم[1] من أهل التقوى والورع والدين المتين؛ وهو: العلامة المحقق أبو العباس سيدي أحمد بن الشمس، المتوفى بالمدينة المنورة عند فجر يوم الاثنين ثاني وعشرين جمادى الثانية عام 1342، ودفن بالبقيع بعد الصلاة عليه بالمسجد النبوي، وهو من العلماء الأثبات، ذوي الأحوال العجيبة، والأسرار الغريبة، لما تذاكرت معه في هذه المسألة: "العبد إذا غرق في وادٍ مثلاً؛ فإنه ينادي ويستغيث بمن يجيره وينقذه مما هو فيه، ونحن

(1) من هنا يمكن معرفة تاريخ مراجعة المؤلف رحمه الله للكتاب.

غريقون في بحار الذنوب والمعاصي، ولا ملجأ لنا سوى سيدنا ومولانا محمدٍ ﷺ، فلا علينا أن نناديه ونستغيث به، ونذكره في جميع الأوقات والحالات، عسى أن يشفع لنا عند ربنا العظيم".

وقال شيخنا الإمام(1) في كتابه المسمى: "خبيئة الكون" ما نصه: "ومن حِكَم أمْرِ الله تعالى لنا بالصلاة على حبيبه ﷺ: أن شرّفنا بجريان ذكره على لساننا، وفي ذكرنا له ﷺ من استجلاب الرحمات الإلهية، واستمطار الألطاف الخفية في الأرض، ما لا يعلمه إلا من كوشف به لو رأى الأمر عيانا:

وما عَجَبٌ إكرام ألفٍ لواحدٍ لعينٍ تُفدّى ألف عينٍ وتُكرم

"فإنه لا يمكن أن يجري الله سبحانه اسم سيدنا محمدٍ ﷺ على أي لسان إلا وقد قدّر الله تعالى له نوعاً من أنواع الإسعاد، إما الديني وإما الدنيوي. وأما الإكثار من ذكره الشريف المحمدي؛ فلا شك أنه ينيل أقنوم الإسعاد الديني والدنيوي. وطالما قيل: إن من عرف اسم معروف الكرخي، واسم أبيه؛ دخل الجنة. وغيره من أهل الله، فكيف من عرف اسم من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم، وأكثرَ مِن ذكره؟.!!! سيما زمانٌ طمّت فيه ظلمات المعاصي، واستولت تشعبات الران على القلب، وتكاثرت الغفلات، وعسرت التوبة النصوح، فلا على المتبصر في أموره أن يكثر من ذكر المحبوب الأعظم محل نظره تعالى من خلقه، وإذا غفر الله تعالى للإسرائيلي ذنوب مائتي سنة، وزوّجه سبعين حوراء بسبب تقبيله اسم سيدنا محمدٍ ﷺ، فكيف بالإكثار من ذكره؟. سيما وأعطيات هذه الأمة أتم من أعطيات غيرها. قال تعال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. اهـ منه بلفظه.

قلت: وليت شعري؛ حيث أمرنا الله تعالى بالصلاة عليه ﷺ، وواعدنا عليها بالثواب الجزيل الذي لم يرتبه على عملٍ من الأعمال بالغاً ما بلغ، وذلك بعد أن أخبرنا - جل ذكره - أنه: يصلي عليه بنفسه المقدسة هو

---

(1) يعني: الإمام أبا الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني قدس سره، المتوفى عام 1327 شهيدا، والمؤلف ينقل عنه كثيرا، سواء بتسميته وبالإشارة إليه، وبعدمهما.

وملائكته عليهم السلام؛ فهل لذلك معنى إلا مطلوبية دوام ذكره ﷺ، والإقبال عليه، والاشتغال بما يقرب منه ويدني إليه، وتعمير الأزمنة بخدمته ﷺ كما يفيد ذلك التعبير بالمضارع المشعر بعدم تناهي صلاته تعالى عليه إلى الأبد؟. ثم أمر عباده بذلك؛ فكأنه تعالى يشير إلى استغراق جميع أوقاتهم في خدمة هذا النبي الكريم، والشغل به وبما يقتضي حبه وتقريبه، لما أن الشغل به ﷺ شغل بالله، إذ ذكره ذكر الله، ومحبته محبة الله، وطاعته طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

وفي "الأجوبة الكبرى" لشيخ الإسلام، وعالم الأعلام؛ أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي، لما سأل عن معنى حديث: "إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟". إلى أن قال السائل: "أجعل صلاتي كلها لك". وقول النبي ﷺ له: "إذن؛ تكفى همك، ويغفر ذنبك". ما نصه:

"هذا الحديث الكريم يدل على فضيلة الصلاة عليه ﷺ، وانبساط جاهه العظيم على من انقطع إليه وصدق المحبة فيه. فقوله: كم أجعل لك من صلاتي؟. أي: كم أجعل لك من الصلاة عليك من بين أذكاري ودعائي لنفسي في مهماتي. فما زال يدرجه حتى قال: أجعل لك صلاتي كلها. أي: أجعل دعائي كله صلاة عليك، فيكتفي بالصلاة عليه عن دعائه لنفسه. فأخبره ﷺ أنه: إن التزم ذلك؛ كفاه الله همه، وغفر ذنبه؛ إذ هو الوسيلة العظمى، والواسطة الكبرى بين الله تعالى وبين خلقه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾".

"فذكره ذكر الله، ومحبته محبة الله، ومن اشتغل بذكر الله كفاه الله [كل] مهمة، كما جاء: من شغله ذكري عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وكذا قال ﷺ لمن جعل دعاءه كلها صلاةً: إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك".

"وكيف لا يكفى همُّه ويغفرُ ذنبه والله يصلي على عبده بصلاته على نبيه ﷺ مرةً واحدةً عشراً؟. قال ابن عطاء الله: ومن صلى الله عليه مرةً واحدةً؛ كفاه الله هم الدنيا والآخرة، فكيف بمن يصلي عليه عشراً؟.! وقال

ابن شافع: انبسط جاهه العظيم ﷺ حتى بلغ المصلي عليه لهذا الأمر العظيم، وإلا؛ فمن أين يحصل لك أن يصلي الله عليك؟. لو عملت في عمرك كل طاعةٍ ثم صلى الله عليك صلاةً واحدةً؛ رجحت تلك الواحدة على ما عملت في عمرك من جميع الطاعات؛ لأنك تصلي على حسب وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته. هذا إذا كانت صلاةً واحدةً؛ فكيف إذا صلى عليك بكل صلاة، وبين كريمين منزل واسع؟.! اهـ".

"وحاصل الحديث والله أعلم: أنه كان يدعو الله لنفسه، ويجعل من دعائه نصيباً للنبي ﷺ في الدعاء له، ومعلومٌ أن الدعاء له صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بالصلاة عليه، فكأنه قال: "إني أكثر الدعاء لك في جملة دعائي، فكم أجعل لك من دعائي فيما أدعوه؛ هل الربع، أو الثلث؟..إلى أن قال: إذن أجعل صلاتي لك كلها. أي: أشتغل بالصلاة عليك عن جميع مطالبي ودعائي في مآربي. فقال له: إذا فعلت ذلك؛ كفاك الله جميع مهماتك ومطالبك، فإن من كان لله كان الله له، ومن انقطع إليه آواه". اهـ منه بلفظه.

وبمقتضى هذا؛ فنقول: إن الاشتغال بذكره ﷺ وبما يقتضي حبه وتقريبه؛ أفضل أعمال البر، لأن الذكر واسع على حسب مآخذ الناس ومشاربهم، ومراتبهم وما قسم لهم، فهذا فتح له في الصلاة عليه والتسليم، وهذا فتح له في مدحه والثناء عليه بما آتاه من مراتب التخصيص ربُّه العظيم، وهذا فتح له في الاستهتار بذكره، واللهج باسمه الشريف في سره وجهره، وهذا في تشخُّص صورته الكريمة، واستحضار نفحاته العميمة، وهذا في جمع أحاديثه وأخباره، ومطالعة سيره وآثاره، وهذا في ذكر شمائله الفاخرة، ومعجزاته الباهرة، وآياته الباطنة والظاهرة، وكل يسنح بما قدّر له، فيبلغ مناه وأمله:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكلٌ إلى ذاك الجمال يشير

تنبيه: [رد على البلقيني في نهيه عن ذكر اسم النبي ﷺ مجردا]

بما قدمته من جواز ذكر الأسماء المفردة لرسول الله ﷺ يعلم ما في فتوى البلقيني التي نقلها الحطّاب في "شرح المختصر"، عند قوله في باب الردة: "وأدب اجتهاداً في اد [كذا] وأشك للنبي ﷺ". ونصه: "وسئل البلقيني عن

جماعةٍ يذكرون، وفي أثناء ذكرهم يقولون: محمد. محمد. ويكررون الاسم الشريف، ويقولون آخر ذلك: ممجد. مكرم. معظم. هل يكون ذلك ذكراً ويؤجرون عليه؟، وهل فيه إساءة أدب؟، وهل ورد فيه شيء من الكتاب والسنة؟".

"فأجاب: لم يرد في ذلك آية ولا خبر عن النبي ﷺ، ولا أثر عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن الفقهاء بعدهم، ولا ذلك من الأذكار المشروعة، ولا يؤجرون على ذلك، وهم مبتدعون شيئاً قد يقعون في إساءة الأدب. وأما قوله: محمد. ممجد. مكرم. معظم؛ فليس هذا كالذي قبله، وهو إخبار بالواقع، ولم يرد فيه ما يقتضي أن يكون مطلوباً، والقياس على ما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: 63]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: 2]. ولما طلب من الأدب مع الله ومع رسول الله ﷺ؛ يقتضي النهي عن ذلك". اهـ.

قال الحطاب: "قلت: قوله: وأما قولهم: محمد. ممجد. مكرم. معظم. من غير تكرير للاسم الشريف؛ فما قاله ظاهر، ومثل هذا قول كثير من العامة: صلوا على محمد". اهـ بلفظه، ونقله الشهاب الخفاجي في شرحه على "الشفا".

قلت: وهو مردود بما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، عن علي القاري في شرح "الشفا" من قوله: "بما يذكر ويروى عنه وعن أصحابه..ثم قال: أو بمجرد ذكره وذكر أصحابه؛ فإن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، وعند نزول الرحمة يحصل للقلوب الاطمئنان والسكينة". اهـ. فقف على قوله: "أو بمجرد ذكره"، وبه فسر مجاهد الآية كما أخرجه عنه جماعة، قال: "بمحمد وأصحابه". قاله: الحافظ السيوطي في "الدر المنثور".

وتقدم عن "الشفا"، و"المواهب"، وغيرهما عن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾، قال: "جعلتك ذكراً من ذكري؛ فمن ذكرك

ذكرني، قال بعضهم: أي: جعلت اسمك الكريم نوع ذكرٍ من أذكاري، أفيض على ذاكره أسراري، وأحليه بأنواري". وقال الزرقاني في "شرح المواهب": "أي: جعلت ذكرك ذكراً من ذكري، أو كأن ذكرك عين ذكري، أو هو: مثله في التقرّب به والأجر، أو هو: معدود من أفراده". اهـ. بخ.

وقال الورتجيبي في تفسيره المسمى "عرائس البيان": "قال ابن عطاء: جعلتك ذكراً من ذكري؛ فكان من ذكرك ذكرني". اهـ.

وتقدم أيضاً قول الإمام أبي علي اليوسي في كتابه "مشرب العام والخاص"، في تعريف الذكر أنه: "ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان، وسواء في ذلك ذكر الله تعالى أو ذكر رسله وأنبيائه وأوليائه، أو من انتسب إليه"...الخ ما مر. فارجع إليه، فانظر كيف عمّم فجعل ترديد اسم كل من يُنسب إلى خير ذكراً يثاب عليه، فكيف بترديد اسم سيد الكائنات، ومن شرّفه الله تعالى على سائر المخلوقات؟.! فكيف لا يكون ترديد اسمه الكريم من أفضل القربات والطاعات، وأولى ما تعمّر به نفائس الأوقات والساعات، وتصرف إليه الهمة من أهل البدء والنهايات؟.!!

وفي أوائل الجزء الثاني من "السيرة الحلبية"، بعدما ذكر أن النبي ﷺ عرض نفسه على بكر بن وائل، وأنهم كانت بينهم وبين الفرس عداوة وحروب، ما نصه: "فلما التقوا مع الفرس؛ قال شيخهم - يعني: حارثة: ما اسم الرجل الذي دعاكم إليه؟. قالوا: محمد. قال: فهو شعاركم. فنُصروا على الفرس. فقال رسول الله ﷺ: بي نُصروا. أي: نصروا بذكرهم اسمي". اهـ منها باللفظ.

وذكر العارف الشعراني في "الأنوار القدسية": "إن الأولى بالأدب بالشيخ؛ أن يقول للمريد: إذا جاءك الشيطان؛ فاذكر اسم الله تعالى، أو اسم النبي ﷺ، أو عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأن الشيطان كان يفر من ظله".

وذكر في كتاب "عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق" ما نصه: "حدثني شيخ عرب الحمادات: محمد الحمادي سنة اثنين وسبعين وألف: أن رجلاً

من قرية شباس الغربية أصابه مرض الجذام، وتمكن منه سنين عديدة، فألهمه الله تعالى ذكر الصدّيق، فصار هجيراه: أبو بكر. أبو بكر. أبو بكر. لا يزيد على ذلك ليلاً ونهاراً؛ فمن بركة هجيراه باسم أبي بكر عافاه الله تعالى من الجذام. وصدّق الراوي جماعة مستفيضة". اهـ منه بلفظه. وإذا كان هذا في ذكر الصديق والفاروق رضي الله عنهما؛ فكيف بذكر اسم متبوعهما الذي منه نالا ذلك؟.!

وليت شعري؛ هل ورد نهيٌ من الله تعالى أو من رسوله ﷺ عن إدمان ذكر الأسماء الشريفة المحمدية؟. وحيث لم يرد نهي، وكان في ذكرها قرْع لأبوابه، وجدير بأن تُفتح للسائلين والواردين؛ فلا على من أكثر من ذكره، وشغفٍ به في سره وجهره، عسى أن تشمله عطفته وعنايته، وتحصل له في الدارين شفاعته. سيما باسمه الدال على جمعه الأوصاف الحميدة.

[بعض الآداب الواجبة عند ذكر اسم النبي ﷺ]

إلا أن الأولى للذاكر بأسمائه ﷺ، والمتأكد في حقه: أن يستعمل الآداب اللائقة والمطلوبة بذلك المقام؛ لأن ذاكره مجالس له ﷺ، ومجالسة الأكابر تحتاج إلى أدبٍ كبيرٍ، ووقار عظيم.

وقال الإمام الرصّاع في أول كتابه "تذكرة المحبين": "لما لم يكن عند الله تعالى أعظم من حبيبه ﷺ؛ حلاه بصفات الكمال، تعظيماً وتنبيهاً للخلق على مكانته عنده، فصارت تلك الأوصاف لكثرة إطلاقها عليه ﷺ أسماءً وألقاباً، وادخر المولى - جل جلاله - لتالي أسمائه وذاكرها وحافظها عُرُباً أترابا. فادخر - أيها المحب - عند الله سبحانه محبته، ومتع نظرك ذاكراً أسماءه وصفتَه، وتأدب عند ذكر أسماء حبيب الله بما أدّب الله تعالى به العباد، وكن مستغرق القلب سائحاً في بحار ما دل عليه كل اسمٍ من كمال فضله عند ربه فليس لكرمه عند الله تعالى نفاد، وصلْ كل اسم بالصلاة عليه سائلا له من الله الشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة؛ تنل شفاعته يوم المعاد". اهـ.

وقد سئل الإمام أبو عبد الله سيدي محمد بن مرزوق العياشي - رحمه الله - عن الصلاة عليه ﷺ في الأزقة والطرقات، فأجاب بأن ذلك: خلاف

الأولى. قيل له: "فما بال ذكر الله تعالى مندوبٌ إليه هنالك في غير ما حديث؟". فعلل ذلك بأن: "الصلاة على رسول الله ﷺ تعرَض عليه على هيئتها، حتى من الزمان والمكان، فيطلَب من المصلي حينئذٍ أن يتحرى لها المكان الطيب الطاهر النظيف". اهـ. قلت: ولذا تكره في مواضعَ ورد الأمر بذكر الله تعالى فيها كما سيأتي.

ومن الأدب: أن يأتي مما يدل على تعظيمه ﷺ؛ كالسيادة ونحوها، بأن يقول: "سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم"، إلى آخر العدد، فيجمع بين التوجه باسمه والصلاة عليه، فذلك أنجح.

وتقدم قول الرصاع: "وتأدب عند ذكر أسماء حبيب الله بما أدب الله تعالى به العباد". ولعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾..الآية، فهو موافق للحطاب في هذا، وإنما أنكرنا إنكاره أصل مشروعية الذكر بالأسماء النبوية رأساً، وزعمه أن ذلك بدعة لا يؤجرون عليه.

فقوله: "لم يرد في ذلك آية ولا خبر"، يرده ما مر. وقوله: "ولا أثر عن الصحابة". يرده ما نقله في "الشفا" وغيره عن عبد الله بن عمر أنه: "خدرت رجله يوماً، فقيل له: اذكر أحب الخلق إليك يزل عنك. فنادى: وا محمداه. فانتشرت"، وإذا جاز نداؤه لمن خدرت رجله مع خفة ذلك؛ فأحرى جوازه لمن خدر قلبه وثقل عن الطاعات، فلا عليه أن يناديه، ويستغيث به في كشف ذلك. وإذا جاز ذكره مرةً؛ فيجوز تكراره لذلك، خلافاً للحطاب في التفرقة بينهما، وهي مما لا معنى له.

وأما قولهم: "محمدٌ. ممجدٌ. مكرمٌ. معظمٌ"؛ فهو نظير قول الحبشة وهم يرقصون في المسجد: "محمد عبدٌ صالحٌ"، وأقرهم ﷺ على ذلك كما في "الصحيح". فقوله: "والقياس على ما نهى الله عنه...إلى قوله: يقتضي النهي عن ذلك"، يقال عليه: محل النهي عن ندائه باسمه ﷺ في الآية: إذا لم يقترن بما يدل على التعظيم، أما إذا اقترن بما يدل على التعظيم؛ فلا نهي. كذا قال بعضهم.

وجزم ابن حجر الهيثمي - من الشافعية - في كتابه "الجوهر المنظّم"

بحرمة ذلك مطلقاً، تقدمه تعظيم أم لا. قائلاً: "وهو ظاهرٌ؛ إذ مثله يقع من بعضنا لبعض".

وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾..إلخ، أخرج أبو نعيم في "الدلائل" من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: "كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم. فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، فقالوا: يا نبي [الله]، يا رسول الله". ونحوه عن سعيد بن جبير، ومجاهد. وقال مقاتل: "لا تسمّوا إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله. ولكن شرِّفوه وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله".

وفي المواّق عن ابن العربي: "كل أحد يدعَى باسمه، إلا رسول الله ﷺ؛ فإنه يدعى بخطته؛ وهي: الرسالة". فظاهره يوافق ما لابن حجر. وتردد في ذلك الزرقاني في شرح "المختصر"، لكن في الشفاعة، وأما في الصلاة عليه؛ فجزم بالجواز. ونصه عند قول المتن في باب: الخصائص: "وحرم رفع الصوت عليه، ونداؤه من وراء الحجرات": "وباسمه في حياته، وكذا بعد موته كما استظهره السيوطي. انظره - أي: عند قبره أم لا - حيث لم يقترن بالصلاة عليه، وإلا جاز؛ ففي خبر ابن فديك عن بعض من أدرك قال: بلغنا أن من وقف عند قبره ﷺ، فقال: صلى الله عليك وسلم يا محمد. سبعين مرةً. ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان؛ لم تسقط لك اليوم حاجةً. اهـ. وانظر هل مثل ذلك الشفاعة أم لا؟". اهـ منه بلفظه، وسلمه محشّوه بسكوتهم عنه.

قلت: وخبر ابن فديك هذا: أخرجه البيهقي بلفظ: "سمعت بعض من أدركته من الفضلاء يقول: بلغنا أن من وقف عند قبره ﷺ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: 56]، صلى الله عليك يا محمد. وفي لفظ: صلى الله على محمد. سبعين مرة؛ ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان؛ لم تسقط لك اليوم حاجةً".

وما جُزم من جواز ندائه في الصلاة عليه؛ نحوه للسمهودي، والشيخ الأجهوري..وغيرهما. ومثل ذلك مقام مدحه في النظم ونحوه، كما جرى على ذلك الأيمة من الأدباء والشعراء قديماً وحديثاً، بل ألَّف بعض الأيمة من

الأدباء المتأخرين تأليفاً مستقلاً وافقه عليه علماء عصره.

فائدة: [سر ترتيب حروف اسم النبي ﷺ]

سئل الإمام النيسابوري - شيخ البغداديين في وقته، الذي ذكره الحافظ السيوطي في "الإتقان"، وأثنى عليه، وشهد بفضله -: "ما الحكمة في كون اسم محمدٍ ﷺ أربعة أحرف، وما السر في كون اسمه على هذا الترتيب والشكل الخاص: (م. ح. م. د)؟".

فأجاب: "أما كونه أربعة أحرفٍ: ليوافق اسم الله تعالى، وقد قرن اسمه باسمه في الشهادتين، وأثنى عليه بذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، أي: لا أذكر إلا وتذكر معي. قال حسّان رضي الله عنه:

أغرّ عليه للنبوة خاتم ... يلوح من الله الكريم ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

"وجعل ذكره في كلمة الشهادة: اثني عشر حرفاً؛ ليوافق كلمة: لا إله إلا الله. وهي: اثني عشر حرفاً. وهو علم المناسبة وسرها؛ كقولنا: أبو بكرٍ الصديق اثني عشر حرفاً، وكذا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ذكر كل واحدٍ بنسبة اثنا عشر حرفاً؛ لكمال مناسبتهم في أخلاقهم لتلك الحضرة الأحمدية. كذلك لهم مناسبة نسبية: يلتقي نسب كل واحدٍ منهم بنسبه ﷺ، وأقربهم نسباً: علي بن أبي طالب؛ يلتقي نسبه في الأب الثاني. وأبو بكر؛ في الأب السابع. وعمر؛ في التاسع. وعثمان؛ في الأب الخامس كما ذكره أهل السير، وذلك لشدة مناسبتهم لتلك الحضرة المحمدية ظاهراً وباطناً، كما أشار لذلك ﷺ بقوله: علي مني وأنا منه". اهـ.

وهو ﷺ باب الله الأعظم، وحصنه المنيع الأفخم، الذي لا يعرَف الحق سبحانه وتعالى إلا به، ولا يوحَّد ويعبَد ذو الكبرياء جل جلاله إلا من طريقه وبسببه، وعلى حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية من جعله ﷺ واسطةً بين الحق والخلق، وإلا؛ فالله سبحانه غني عن العالمين.

فلأجله كان الوجود بأسره ... وبسره عرف الإله موحد

بجماله الأكوان من أكنافها ... برزت وجنات النعيم تخلّد

وأنشد بعض العارفين على لسانه ﷺ:

أنا العقل بي يدرى الوجود ويعرفُ ويعبَد ذو العرش الكريم ويوصف
وبي يمنع المولى ويعطي، وبي أتى ثواب، وبي يشقى الذي هو مسرف
وفضلني المولى على الخلق جملة فذكري لأسماع الأنام مشنِّف
وأودع في سري التصرف في الورى فها أنا في كل العباد مصرَّف
وخاطبني في حضرةٍ أزلية فحزت بذاك السبق، هل لي منصف؟
ووزعني في كل فردٍ في الورى فمن كنت فيه غالباً فهو أشرف
ومن كنت فيه والشقاء حجابه فما حيلتي فيه إذا هو مخلف؟

وتقدم عن بعض العارفين رضي الله عنهم أن: اسمه ﷺ هو الاسم الذي وضع على الليل فأظلم، وعلى النهار فاستنار، وعلى السماوات فاستقلت، وعلى الأرض فاستقرت، وعلى الجبال فرست، وعلى البحار فجَرَت، وعلى العيون فنَبعت، وعلى السحاب فأمطرت. وأن ببركته ﷺ وبركة ذكر اسمه الشريف تكونت الكائنات، وأن به لانت مفاصل ذوات بني آدم بإذن الله تعالى، وبه انفتحت الأعين بالأنوار التي فيها.

الوجه السادس

[من مقتضى ذكر أسمائه ﷺ: استحضار معانيها]

لا شك أن الذاكر مطالبٌ باستحضار معنى الذكر في حالة الذكر، فالذاكر لهذه الكلمة المشرفة والمكرر لها مطالبٌ باستحضار معناها وما اشتملت عليه من الأسرار، وانطوت عليه من المعارف التي تحير العقول والأفكار. فيستحضر معنى هذا الاسم الشريف "محمد" وما تضمنه من لطائف المعاني والإشارات، واشتمل عليه من بدائع الكمالات؛ فإن مجرد قولنا: "محمد"، فيه مدحٌ عظيمٌ للجناب النبوي، وثناءٌ كبيرٌ عليه؛ لأن الله تعالى ضمّن أسماءه الشريفة ذكر أوصافه المحمودة، ونعوته وكمالاته الزكية المنيفة.

قال في "الشفا": "ومن خصائصه تعالى لهذا النبي الكريم: أن ضمن أسماءه ثناءه، وطوى أثناء ذكره عظيم شكره". اهـ.

وفي "الهدي النبوي" لابن القيم ما نصه: "فصل في أسمائه ﷺ، وكلها أسماء نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف، بل أسماءٌ مشتقة من صفاتٍ قائمةٍ به، توجب له المدح والكمال. فمنها: محمدٌ، وهو أشهرها، وبه سمي في التوراة صريحاً". اهـ بلفظه.

وقال - أيضا - ما نصه: "فإن هذين الاسمين - يعني: أحمد ومحمداً - إنما اشتقا من أخلاقه وخصائصه المحمودة، التي لأجلها استحق أن يسمى: محمداً وأحمد ﷺ، وهو الذي يحمده أهل السماء وأهل الأرض، وأهل الدنيا والآخرة؛ لكثرة خصائله المحمودة التي تفوق عد العادين وإحصاء المحصين"..إلخ. اهـ بلفظه.

وفي "مفتاح الشفا" ما نصه: "ومن علامات محبته ﷺ: التردد بسماع اسمه، والطرب عند ذكره؛ لأن اسمه دليل مسماه، ولاسيما اسم الذات الذي هو علم على الذات الكريمة، وقائمٌ مقام الإشارة إليها، ومميزٌ لمسماه عما يشاركه في نوعه أو جنسه، ومراد المحب ذلك المعين من جنسه ونوعه. فذكره استحضاراً لصورته الكريمة، وصلة بين السامع والمسموع الذي يود صلته بجميع ما يملك، بل بجميع المخلوقات من المستلذات، بل لا لذة له إلا في رؤيته، ثم في ذكره، ثم في سماع ذكره".

"وللأرواح حنينٌ إلى يعسوبها، والأرواح جنودٌ مجندةٌ، فكأن في اسمه مرآةً لصورته الكريمة ﷺ. وأعظمْ بذكر من رفع الله ذكره، وأجدر به أن يطرب له ويتلذذ بسماعه، فقد اشتمل على الفكر والذكر الذين هما من أعظم العبادات، مع التلذذ بهما، فهي ثلاث عبادات يثاب عليها: سماع الذكر؛ وهو بمنزلة النطق به، فإن كان من نفسه؛ فذكر وسماع ذكر، فإن كان من باطنه أيضاً؛ فذكرٌ من العوالم اللطيفة والكثيفة وفكر، وهو من العوالم كلها؛ لشغلها به. فإن اختص بالقلب؛ فبحسبه، وتلذذ وطرب، وهو من الوجدانيات، وقد تظهر آثاره على الظواهر". اهـ المراد منه بلفظه.

وقال العلامة ابن زكري في "شرح الصلاة المشيشية"، أثناء كلامٍ له ما نصه: "فإن المعرفة تحضر عند سماع اسمه من التلذذ والطرب بحسبها، إذ

العارف يستحضر عند سماع الاسم من المشخَّصات والصفات وعظمة المسمّى ما لا يستحضره غيره". اهـ المراد منه بلفظه.

وقال الإمام أبو عبد الله الرصّاع: "كان بعض المحبين جعل ورده: ذكر غوث العالم، والصلاة على النبي الفاتح الخاتم، حتى إن قلبه لا يرى إلا وهو يحقق صورته الكريمة في قلبه في يقظته كما يحققه إذا رآها في نومه، ثم انخرقت له العادة، وظهرت له الكرامة، بأن يرى ببصره اسم محمدٍ مكتوباً في الأشجار، والأنهار والأحجار، فلا يرى شيئاً إلا وهو راء نقش صورة الاسم الكريم مرسومةٌ كما نقشت صورته في قلبه، تحقيقاً لكمال محبته، تنبيهاً للزوم خدمته. وهذا شأن المحبين، والعلماء الراسخين، الذين علموا مقامه عند رب العالمين". اهـ.

وقال في "مطالع المسرات"، عند ذكر صاحب "الدليل" للروضة الشريفة، والقبور المقدسة المباركة، وتوجيهه ذلك، أثناء كلام ما نصه: "وقد ذكر بعض من تكلم على الأذكار وكيفية التربية بها؛ أنه: إذا كمل لا إله إلا الله بمحمدٍ رسول الله ﷺ؛ فليشخص بين عينيه ذاته الكريمة، بشرية من نورٍ في ثيابٍ من نور، مراعاةً لحقيقة بشريته، وتبعية ثيابه، لكمال معجزته. يعني: لتنطبع صورته ﷺ في روحانيته، ويتألف معها تألفاً يتمكن به من الاستفادة من أسراره، والاقتباس من أنواره ﷺ".

قال: "فإن لم يرزق تشخُّص صورته؛ فيرى كأنه جالسٌ عند قبره المبارك، يشير إليه متى ما ذكره، فإن القلب متى ما شغله شيء؛ امتنع من قبول غيره في الوقت". اهـ بلفظه.

وقال ابن القيم: "هذا الاسم الكريم "محمد" أشهر أسمائه ﷺ، وهو في الأصل منقولٌ من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحبوب، ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هذا هو حقيقة الحمد، وبناؤه على زنة مُفَعَّل، مثل: مُعَظَّم، ومحبَّب، وموَدَّد، ومبجَّل...ونظائرها. لأن هذا البناء موضوعٌ للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل؛ فمعناه: مَن كثر صدورُ الفعل منه مرةً [بعد مرة]؛ كمعلِّم، ومفهِّم، ومخلِّص، ومبيِّن، ومفرِّح...ونحوه. وإن اشتق منه اسم

مفعول؛ فمعناه: من تكرر وقوع الفعل عليه مرةً بعد مرة، أو الذي استحق أن يحمَد مرةً بعد أخرى، يقال: حمد فهو محمد، كمال يقال: علم فهو معلم. وهذا علمٌ وصفةٌ اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ، وإن كان علماً محضاً في حق كثيرٍ ممن تسمى به غيره".

"وهذا شأن أسماء الرب تعالى، وأسماء كتابه، وأسماء نبيه؛ هي: أعلام دالة على معانٍ هي بها أوصافٌ، ولا تضاد فيها العلميةُ الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقات. فهو: الله الخالق الباريء، المصور الغفار. فهذه أسماءٌ دالةٌ على معانٍ هي صفاته تعالى. وكذلك القرآن والفرقان، والكتاب المبين..وغير ذلك من أسمائه. وكذلك أسماء النبي ﷺ: محمد وأحمد والماحي، كما في حديث جُبير بن مطعم: لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر. فذكر ﷺ هذه الأسماء مبيناً ما خصه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها، وإلا؛ لو كانت أعلاماً محضة لا معنى لها؛ لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان رضي الله عنه:

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمودٌ وهذا محمد. اهـ

قال بعضهم: "ومن هاهنا كثرت أسماؤه المحمدية؛ لأن من قام به وصفٌ؛ يجوز أن يشتق له منه اسم. فله ﷺ من كل وصفٍ اسم. ألا ترى أنه: الماحي؛ لأن الله تعالى محا سورة الكفر والضلال من الأرض إلى أن تنمحي بالكلية عند ظهور الإمام المهدي، فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلما كما في الحديث. والحاشر؛ لأنه يحشر الناس على قدمه، أي: أثره. والعاقب؛ أي: الآتي عقب الأنبياء، فلا نبي بعده..وهكذا؛ فجميع أسمائه ﷺ مشتقةٌ من صفاتٍ قامت به توجب له المدح والكمال". اهـ

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامي في "درة الفنون": "اعلم أن هذا الاسم الأقدس لم يتسمَّ به أحدٌ على الحقيقة قبل نبينا ﷺ ولا بعده، وإنما وقع للناس مشاركات في جهاتٍ من جهة لفظه لا من جهة معناه، إذ ما من مخلوقٍ سواه إلا ويلحقه نقصٌ ما، ولو عدم التناهي في الكمال إلى مرتبته ﷺ فلا يكون محمداً على الإطلاق، فإن الوصف بعدم البلوغ الغاية في الكمال نوعٌ

من الذم، ومن يلحقه الذم بوجهٍ ما؛ فليس محمداً على الحقيقة. فلا محمدٌ إلا محمد ﷺ".

"ولهذا المعنى؛ لما أراد المشركون هجوه بالكلام الموزون؛ صرف الله تعالى عنه ذلك؛ لأن حقيقته ﷺ لا تقتضيه بوجهٍ من الوجوه، فكانوا يهجون مذمماً؛ وهو: الشيطان، فإن هذا الاسم أجمع أسماء الشيطان؛ لاشتماله على ما يتضمن نقصاً من بلوغ الغاية، وللمباينة الواقعة بين هذين الاسمين، وعدم الاشتراك بينهما في وصفٍ من الأوصاف؛ لم يمكن للشيطان أن يتمثل في صورته الكريمة ﷺ". اهـ.

قلت: وقد أرشدنا ﷺ إلى هذا المعنى؛ حيث قال: "ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريشٍ ولعنهم؛ يشتمون مذمماً ويلعنون مذمما، وأنا محمد؟!!". أخرجه البخاري في صحيحه من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فدل هذا الحديث الشريف على أن هذا الاسم الكريم مطابقٌ لمسماه، ولفظه موافقٌ لمعناه. إذ ذاته ﷺ محمودةٌ على ألسنة العوالم كلها؛ من كل الوجوه، حقيقة ووصفاً، وخُلقاً وخلقاً، وأعمالاً وأحوالاً، وعلوماً وأحكاماً...وجميع عوالمه المتنزل لها والظاهر بها. فهو ﷺ محمودٌ في الأرض وفي السماء، وفي الدنيا وفي الآخرة؛ لجمعه الأوصاف المحمودة بأسرها. ففي الدنيا: ما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وفي الآخرة: بالشفاعة، وهو صاحب المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وبيده لواء الحمد، تحته آدم فمن سواه، وكل هذا مفهومٌ من الاسم الشريف: "محمد"، إذ هو من صيغ المبالغة، وهي لا تكون إلا لمن تكرّر منه مقتضى الوصف مرةً بعد أخرى، ومع ذلك فهو ﷺ الحامد الحقيقي، إذ ما حمده أحدٌ إلا بما علّمه إياه، إذ هو نبي الكل ورسول الجميع.

فهو ﷺ الحامد والمحمود، وهو صلى الله عليه وسلم الحامد لله تعالى على الإطلاق، وبحمده لله حمده الله على ألسنة عباده، فلم يحمُد ولم يُحمد إلا هو ﷺ.

وحينئذٍ؛ فمن ذكره ﷺ بهذا الاسم الشريف؛ فكأنه مدحه وأثنى عليه بجميع هذه الأوصاف والمعاني التي ذكرنا فيها، اختصاراً واقتصاراً، وإلا؛ فمعاني هذا الاسم الكريم، والأسرار والعجائب المنطوية تحت أصداف جواهر حروفه؛ لا تفي بها عبارةٌ، ولا تنال إلا بفتحٍ إلهي ومدد أحمدي:

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحدِ

فكأن هذا الذاكر باسمه ﷺ، المكرر له واللاهج به، لما رأى أن العبارة قد ضاقت عن تعداد محاسنه وصفاته الباهرة، وذكر نعوته وكمالاته الفاخرة؛ اكتفى بذكر اسمه الشريف، مستحضراً لمعانيه، مستغرقاً فكره وحواسه في مشاهدة مدلوله الذي هو ذات مولانا رسول الله ﷺ، بكمالاته الباطنة والظاهرة، وعظيم مفاخره الزاهرة، فيكل لسانه عن المدح والثناء، ويرى أن كل مدحٍ في هذا الجناب العظيم تقصيرٌ. على حد قول بعضهم:

أرى كل مدحٍ في النبي مقصِّرا ... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه، فما مقدار ما يمدح الورى؟

وقول الآخر:

مدحناك والأمداحُ فيك كثيرةٌ ... ولكن كثيرُ المدح فيك يسير
عبارتنا شتى وحسنُك واحد ... وكلٌ إلى ذاك الجمال يشير

وقول ابن الخطيب السلماني وغُفر له بسببهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تُفتح له الأغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على أخلاقك الخلاق؟

ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء مدحه ﷺ إلا قليلاً، ورأوا أن ذلك من أصعب ما يحاولونه، حتى قال قائلهم:

أروم امتداح المصطفى فيصدني ... قصوريَ عن إدراك تلك المواهب
ومن لي بحصر البحر والبحرُ زاخر ... ومن لي بإحصاء الحصا والكواكب؟
ولو أن كل العالمين تألفوا ... على مدحه؛ لم يبلغوا بعض واجب

فأمسكتُ عنه هيبةً وتأدبا وخوفاً وإعظاماً لأرفع جانب
ورُب سكوتٍ كان فيه بلاغةٌ ورُب كلامٍ فيه عتْبٌ لعاتب

ولقد صدق من قال: "إن بين الاسم والمسمّى ارتباطاً وتناسباً؛ فإن الأسماء لما كانت قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها؛ اقتضت الحكمة: أن لا تكون معها بمنزلة الأجنبي المحض، فللأسماء تأثيرٌ في المسميات، كما أن للمسميات تأثيرا في الأسماء، في الحسن والقبح، والثقل واللطافة والكثافة. كما قيل:

وقلَّ ما أبصرتْ عيناك من رجل إلا ومعناه إن فتَّشْت في لقبه

تنبيه: [أسماء النبي ﷺ غير منحصرة]

لا يدل هذا - مع ما تقدم - على انحصار صفاته ﷺ وكمالاته بانحصار أساميه الشريفة، فإن العقول من وراء إدراكها، وأما أسماؤه النبوية؛ فقال ابن العربي في "عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي": "ذكر بعض الصوفية أن لله تعالى ألف اسم، ولرسوله ﷺ ألف اسم"، وذكر ابن فارس أن أسماءه ﷺ تنتهي إلى ألفي اسم وعشرين اسما.

وللحافظ السيوطي تأليف سماه: "الرياض الأنيقة في أسماء خير الخليقة"؛ جمع فيه نحو ثلاثمائة وأربعين اسما، وجمع الزناتي منها: مائتين وواحدا، وتبعه الإمام الجزولي في "دلائل الخيرات". وقال العراقي صدر ألفية السيَر:

وقد وعى ابن العربي بسبعة من بعد ستين، وقيل: تسعة
من بعد تسعين، ولابن دحية الفحص يوفيها ثلاثمائة
وكونها ألفا؛ ففي "العارضة" ذكره عن بعض ذي الصوفية

وأنهاها بعضهم إلى أربعمائة، وجمع الحافظ السخاوي في "القول البديع" ما وقف عليه منها في كلام عياض وابن العربي، وابن سيد الناس وابن سبع، ومغلطاي والشريف البارزي، والبرهان الحلبي والحافظ ابن حجر...وغيرهم،

ورتبه على حروف المعجم؛ فبلغت أربعمائة وثلاثين[1].

[أسماء النبي ﷺ توقيفية]

ومن هذا يُعلم أن أسماءه ﷺ توقيفية، وهو محل اتفاق. واختلف في أسمائه تعالى؛ والراجح أنها: توقيفية أيضا. والفرق بينهما: أن النبي ﷺ بشر، فربما تُسُوهل فيه؛ فسدّت الباب حسما للمادة، وسدا للذريعة. بخلاف جانب الألوهية جل جلاله، وعم كبرياؤه، وتقدست صفاته وأسماؤه؛ فإنه أعز وأجل.

ونظير هذا: قول المالكية: "يُقتل ساب النبي ﷺ ولو تاب، بخلاف ساب الله تعالى؛ فإن الحد يسقط عنه بالتوبة".

وقد نقل الحافظ السيوطي عن المازري أن: من خصائصه ﷺ: أن أسماءه توقيفية كأسمائه تعالى. قال بعضهم: "وما أنسبه بالحقائق؛ فإن المراد من وضع الاسم: الدلالة على المسمى، ولا يمكن هذا إلا لمن يعلم ما اشتملت عليه تلك الحقيقة المسماة، أو تشتمل عليه، وليس هذا إلا لله سبحانه وتعالى. ولهذا نقل الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" عن الغزالي وأقره؛ أنه: لا يجوز لنا أن نسميه ﷺ باسم لم يسمه به أبوه، ولا سمى به نفسه". اهـ.

(1) ذكر عمنا الإمام أبو المزايا محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني - رحمه الله - كما في بحث قدمه لمولانا الجد الإمام محدث الحرمين الشريفين محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني، حول مؤلفات والده الإمام أبي العباس أحمد بن جعفر الكتاني المتوفى عام 1340، أن لوالده المذكور كتابا في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وصفه بقوله: ""البحر الزاخر في أسماء سيد الأوائل والأواخر". في خمسة كراريس، تكلم فيه على من جمع أسماءه صلى الله عليه وسلم؛ كالفيروزبادي في "بصائر ذوي التمييز"، وابن دحية في "المستوفي"، والسيوطي في اختصار كتاب ابن دحية؛ وسماه: "البهجة البهية"، والبدر البلقيني في مجلده الحافل، وابن فارس، والقرطبي، والرصاع في "تحفة المحبين"، والزناتي، والجزولي في "الدلائل"، وابن الفاكهاني في "البدر المنير"، والسخاوي في "القول البديع"، والقسطلاني في "المواهب"...

ثم تكلم على أشهر أسمائه صلى الله عليه وسلم وأدلتها من القرآن والسنة؛ فذكر منها نحو: (4201) اسم، ثم ذكر في ثلاثة كراريس بقية أسماء مرتبة على حروف المعجم، وأظنه أبلغها إلى أكثر من (5000) اسم".

وحينئذ؛ فذكره ﷺ، وترديد اسمه الكريم مع استحضار هذا المعنى الذي أسلفناه فيه؛ هو: أرفع وجوه الذكر وأعلاها، وأكملها نفعا وأبلغها تأثيرا وأوفاها؛ إذا اجتمع فيه الذكر والفكر مع الاستغراق التام في المذكور حتى ترتسم ذاته الشريفة في الذهن، ويحصل الاجتماع الروحاني ثم الشهود العياني الذي هو غاية رغبة الراغبين، ونهاية آمال الطالبين، وهي المنزلة الرفيعة التي فيها يتنافس المتنافسون، والذروة العليا التي إليها يتسارع المتسابقون، ولتحصيلها شمّر العارفون. جعلنا الله من أهلها، وحشرنا في زمرة حزبها، بفضله وكرمه. . .آمين.

الوجه السابع

[النبي ﷺ جليس من ذكره]

من المعلوم ضرورة: أنه ﷺ متخلق بأخلاق ربه سبحانه وتعالى، ومن أخلاقه تعالى التي أخبر بها عن نفسه تفضلا وكرما: مجالسة من ذكره على ما يليق به جل جلاله، كما قال في الحديث القدسي: "أنا جليس من ذكرني". أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بلا سند عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا، ومعناه في المرفوع من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: "أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركتْ بي شفتاه". أخرجه ابن حبان في صحيحه بسند ضعيف.

وفي الصحيحين وغيرهما عن سيدنا أبي هريرة أيضا رضي الله عنه مرفوعا: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني". ولمسلم: "حين يذكرني" . . .الحديث.

فكذلك هو ﷺ جليس من ذكره؛ فأهل الذكر مجردا جليسون للحق تعالى، والذاكرون له ﷺ والمصلون عليه جليسون للحق تعالى على قدر الحبيب؛ إذ هو المرآة، وفيه يقع التجلي، لا على قدرهم. وشتان بين المرتبتين. فثوابهم أعم وأكمل، وجزاؤهم أعظم وأجمل؛ لأنهم تعرضوا لذكر الله تعالى لهم بذكرهم له سبحانه، بمقتضى الوعد الصادق في قوله جل ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]. ولذكره ﷺ لهم أيضا بذكرهم له؛ لأنه ﷺ متخلق بأخلاق ربه سبحانه كما مر، ولمجالسته تعالى على ما يليق بجلاله، ومجالسة

نبيهم ﷺ أيضا، ولصلاته تعالى وصلاة ملائكته عليهم عشر مرات، أو سبعين، بصلاتهم على حبيبه ﷺ مرة واحدة في صيغة واحدة. فافهم.!

وإذا ورد في جليس الذاكرين: ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"، بعد قول الملائكة - عليهم السلام -: "إن فيهم فلانا خطاء، لم يُردهم، إنما جاء لحاجة". فما بالك بمجالسة الله تعالى ورسوله ﷺ؟. وفي صحيح مسلم: "لو تدومون كما تكونون عندي؛ لصافحتكم الملائكة في الطرق". وأنشد بعضهم في ذلك:

لذاكر الله والرسول أيُّ غنى ... يغني، وللغافلين أيُّ إفلاس
الله جل علا جليس ذاكره ... كما أتى في الحديث الثابت الراسي
وحاجب له من شر القرين كما ... بسورة الناس فاح فوحة الآس
ومن يكن ربه هو الجليسَ له ... أنى لإبليس سَومه بوسواس
كذلك المصطفى جليسُ ذاكره ... وحاجبٌ له منه دون إلباس
أليس ذاكره مستحضرا له في ... ذكر يراه جليسا بين جلاس؟
ولو تدومون؛ صافحت ملائكة ... إيناس حجب له، وأي إيناس
بل ذكره عين ذكر الله لأنك في ... ذكر له وله بالغافل الناسي

فذكره تعالى ممزوجا بذكر حبيبه ﷺ أعظم أجرا، وأكثر ثوابا وأرفع قدرا، وأعم فائدة، وأتم جدوى وعائدة، وأسلم حالا، وأكمل مقاما وارتحالا، وأسرع تأثيرا وفتحا، وأبلغ تنويرا ونجحا، وأكبر مقاما، وأحسن نظاما؛ لما فيه من إتيان البيت من بابه، وشكر وساطته ﷺ، والتعلق بعلي جنابه، والتطفل على كريم عتباته، والتعرض لمدده ونفحاته.

وقد قال شيخنا الإمام في تأليفه المسمى "خبيئة الكون" ما نصه: "ويؤخذ من الآية الكريمة - يعني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية - أن الصلاة عليه ﷺ أعظم الشغل بالله عز وجل، وأتم الإقبال عليه، فليس المشتغلون بمجرد الذكر أقرب من أهل الصلاة على النبي ﷺ إلى الله جل جلاله:

"أما أولا؛ فلأن الله تعالى أفرد الصلاة على الحبيب عن سائر الأعمال، بأن عملها هو وملائكته أولا، وبعد ذلك أمر عباده بها، ولم يشاركها في ذلك فرض ولا نفل. فأمرنا أولا أمرا ضمنيا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾، إذ رغّبنا بفعله وفعل ملائكته في تعظيم من عظمه هو وملائكته، ثم بعد ذلك أمرنا أمرا صريحا ليتحقق التكليف، ونقوم بالمأمور على وجه التعظيم والمحبة، من غير مشقة ولا تعمُّل؛ لأن ذلك خدمة لمن أحبه الله تعالى وعظمه".

"وأما ثانيا؛ فلأن أهل الصلاة ذاكرون الله جل ثناؤه، ومصلون على حبيبه الأعظم. فقولهم: اللهم صل. ذكر ودعاء وطلب، ومن هاهنا كانت الصلاة على الحبيب من أفضل الأعمال، فأهل الصلاة فقط أشمل من أهل مجرد الذكر، وثوابهم أكمل وأعم، وجزاؤهم أفضل وأجمل؛ لأنهم تعرّضوا لذكر الله تعالى لهم بذكرهم له سبحانه، ولصلاته تعالى عليهم عشر مرات بصلاتهم على نبيه صلاة واحدة في صيغة واحدة".

"وأما ثالثا؛ فالذاكرون فقط جليسون للحق جل أمره، والمصلون على الحبيب جليسون للحق على قدر الحبيب الأعظم، لا على قدرهم. وشتان بين المرتبتين. فافهم!". اهـ المراد منه بلفظه.

وفي "الفتوحات المكية"، في الباب الموفي أربعين وخمسمائة منها، بعد كلام ما نصه: "لما كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، والله جليس من يذكره؛ فلم يزل رسول الله ﷺ جليس الحق دائما، فمن جاء إليه ﷺ؛ فإنما يخرج إليه من عند ربه، إما مبشرا وإما موصيا ناصحا، ولهذا قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾ [الحجرات: 5]، أي: في قول الله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾، فلو كان خروجه مما يسوؤهم في آخرتهم؛ ما كان خيرا لهم، وقد شهد الله بالخيرية؛ فلا بد منها، وهي: ما ذكرناه من بشارة بخير، أو وصية ونصيحة وإبانة عن أمر مقرّب إلى سعادتهم...وغير ذلك لا يكون".

"ومن صبر نفسه على ما شرع الله له على لسان رسوله ﷺ؛ فإن الله لا بد أن

يُخرج إليه رسوله ﷺ في مبشرة يراها، أو في كشف بما يكون له عند الله من الخير، وإنما يُخرج الله إليه رسوله ﷺ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يتصور على صورته غيره، فمن رآه؛ رآه لا شك فيه. بخلاف رؤية الحق؛ فإن الحق له التجلي في صور الأشياء كلها، فإن الأشياء ما ظهرت إلا به سبحانه وتعالى، فالعارف يعلم أن كل شيء يراه ليس إلا الحق، وهو معطي السعادة والشقاوة، والرسول ليس كذلك، فيعتمد على رؤية الرسول ولا يغتر برؤية الحق".

"ولهذا الذي أشرنا إليه ادعى من ادعى من البشر والجن الألوهية، وقُبل منهم، وعُبدوا من دون الله، وما قدر أحد أن يدعي بأنه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ، وإن تنبأ؛ فما يقول: إنه محمد. وإنما يقول: إنه رسول الله؛ فيطالَب بالدليل على دعواه. فتنبه إلى عصمة هذا الاسم العلم أن يتصور عليه أحد من خلق الله في كشف ولا نوم كصورته في اليقظة سواء، فمن رآه؛ رآه. . .إلى أن قال: وصاحب هذا الهجير؛ كثير الصلاة على محمد ﷺ، وعلى هذا الذكر يحبس نفسه ويصبر حتى يخرج إليه ﷺ. فكل ما ينتج لصاحب هذا الذكر؛ فإنه علم حق معصوم، فإنه لا يأتيه شيء من ذلك إلا بواسطة الرسول ﷺ، هو المتجلي له والمخبر". اهـ منه.

وقال العلامة ابن زكري في همزيته:

في مبايعة جعلتُم مَجلَى، فلأهـ ـل الشهود منك اللقاء

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ قال في شرحها: "ولذا كانت رؤيته ﷺ وتشخُّصه واستحضاره، وسماع كلامه؛ مستلزمة لتذكره تعالى نوع استلزام، إذ هو رسول الله، والمبلغ لوحيه، والداعي لدينه. . .ثم قال: ومن هنا سمي ﷺ بكثير من أسماء الله تعالى؛ كالحق، والشهيد، والخبير، والعظيم، والكريم، والرؤوف، والرحيم. . .إلى غير ذلك؛ لأنه ﷺ متخلق بأخلاق الربوبية، وآية المبايعة متضمنة لهذا المعنى وشاهدة به؛ وهي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال الورتجبي في تفسيرها: جعل الله تعالى نبيه مرآة لظهور ذاته وصفاته". اهـ كلام ابن زكري. ونحوه للشيخ جسُّوس في "شرح الشمائل".

وقال الإمام أبو طالب المكي في "قوت القلوب" الذي يقال له: مدونة الصوفية، وذكر الشيخ بناني في فهرسته أنه: مدونة التصوف، وأنه: تلقاه كل الصوفية بالقبول وأثنوا عليه، وأن الإمام الشاذلي كان يقول: "كتاب "القوت" يورث النور"، وكان يقول: "عليكم بالقوت؛ فإنه قوتٌ"، كما نقله في "لطائف المنن"، ما نصه: "هذه أمدح آية في كتاب الله عز وجل، وأبلغ فضيلةٍ فيه لرسول الله ﷺ؛ لأنه جعله في اللفظ بدلاً منه، وأقامه في الحكم مقامه، ولم يُدخل بينه وبينه كاف تشبيه؛ فيقول: كأنما. ولا لام الملك؛ فيقول: لله. وليس هذا المقام من الربوبية للخلق سوى رسول الله ﷺ".

وقال في "روح البيان": "قال أهل الحقيقة: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ فالنبي عليه السلام قد فنى عن وجوده بالكلية، وتحقق بالله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فكل ما صدر عنه صدر عن الله، فمبايعته مبايعة الله، كما أن طاعته طاعة الله. ولهذا السر يقول يوم القيامة: أمتي أمتي. دون: نفسي نفسي؛ لأنه لم يبق فيه بقية الوجود أصلاً، وفيه أسوةٌ حسنةٌ للكمّل من أفراد أمته. فاعرف جيداً".

ثم قال: "والحاصل؛ إن الله تعالى جعل نبيه ﷺ مظهراً لكمالاته، ومرآةً لتجلياته، ولذا قال عليه السلام: من رآني فقد رأى الحق. ولما فنى عليه السلام عن ذاته وصفاته وأفعاله؛ كان نائباً عن الحق. وقال الواسطي: أخبر الله تعالى بهذه الآية أن البشرية في نبيه عاريةً، وإضافةً لا حقيقةً. يعني: فظاهره خلقٌ وباطنه حقٌ". اهـ. قلت: وهذا معنى قول غيره: هو بشري الظاهر، ملكوتي الباطن.

وقال العارف[1] في حواشي الجلالين: "قال القشيري: أي: عقده عليهم هو عقد الله. وفي هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]". ومثله للثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وقال ابن جزي: "هذا تشريفٌ للنبي ﷺ حيث كانت مبايعته بمنزلة مبايعة الله.

---

(1) يعني: عبد الرحمن بن محمد الفاسي الفهري، الإمام المشهور رضي الله عنه.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]. والمعنى: إن عقد ميثاق البيعة مع الرسول كعقدةٍ مع الله؛ كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾". اهـ.

وقال الشيخ جسُّوس في آخر شرحه على "الشمائل" عند قوله: "من رآني فقد رأى الحق". ما نصه: "يحتمل أن يكون مفعولاً به؛ أي: فقد رأى الحق سبحانه وتعالى؛ لأنه ﷺ المجلى الأعظم، والمرآة الكبرى لظهوره تعالى وظهور صفاته، إذ أقواله ﷺ وأفعاله وأحواله كلها دائرةٌ على الدلالة على الله تعالى، والتعريف به، فمن رآه؛ شهد جلال الله تعالى وجماله. أما أقواله؛ فظاهرٌ، وأما أفعاله؛ فلأن إرادته تابعةٌ لإرادة الله تعالى، بمقتضى الخلافة والتمكين في العوالم، فتعرف من مشاهدة أفعاله ﷺ أفعاله تعالى. وأما أحواله وأخلاقه؛ فلأنه ﷺ متخلقٌ بأخلاق الرحمن".

"وقال الورتجبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]: جعل الله نبيه مرآةً لظهور ذاته وصفاته. وقال في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: 9]؛ أي: ليشاهدوا بأسرارهم الله تعالى، ويدركوه في محل الجلال والجمال، ويعرفوا قدرك في قدري، وقدري في قدرك، حيث صرتَ مرآتي أتجلى منك لهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: من رآني فقد رأى الحق. وهذا معنى قولهم: إن النبي ﷺ هو: الإنسان الكامل. وفي الآية تصريحٌ بمقام الخلافة العظمى، وإشارةٌ إلى أن المطلوب: التمسك بسنته، والتعلق بشريعته، وعدم الانحراف عن طريقته، وأنه باب الله الأعظم". اهـ كلام الشيخ جسوس بحذف ما ناسب حذفه من الكلام المتشابه، وأصله للعلامة ابن زكري في شرح همزيته.

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره الذي قل من نسج على منواله، فيه لدى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 27]، ما لفظه: "أنشد بعض المفسرين عند هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سكن الغدير على صفاء وجنّب أن يحرّكه النسيم

ترى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمسُ تبدو والنجوم

كـذاك قـلـوب أربـاب الـتـجـلـي يـرى فـي صـفـوهـا الـلـه الـعـظـيـم

اهـ بحروفه. وقد أخرج الإمامان: أحمد في مسنده، ومسلمٌ في صحيحه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والدارمي، وابن المنذر والحاكم وابن مردوية، والبيهقي في "الدلائل" وغيرهم عن سعيد بن هشام قال: "قلت لعائشة: يا أم المؤمنين؛ أنبئيني عن خُلق رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟.! قال: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله كان القرآن!"

وقال العلامة الألوسي في الجزء الثاني من تفسيره "روح المعاني"، لدى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾..الآية. [النساء: 65]: "قال بعضهم: أظهر الله تعالى في هذه الآية على حبيبه خلعة من خلع الربوبية؛ فجعل الرضى بحكمه سبباً لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضى بقضائه سبباً لإيقان الموقنين، فأسقط عنهم اسم الواسطة؛ لأنه ﷺ متصفٌ بأوصاف الحق، متخلقٌ بأخلاقه. ألا ترى كيف قال حسان رضي الله عنه:

وشـق لـه مـن اسـمـه لـيـجـلـه فذو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ؟!

"وقال آخرون: سد - سبحانه - الطريق إلى نفسه على الكافة إلا بعد الإيمان بحبيبه ﷺ، فمن لم يمش تحت قبابه؛ فليس من الله تعالى في شيء. اهـ".

"وهذا هو معنى قولهم: كل من كان اللهُ ربَّه؛ فمحمدٌ ﷺ رسوله. ولم تطرأ عليه ﷺ عموم الرحمة للعالمين إلا من هذه المظهرية، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107]".

"وقد سماه الله تعالى بكثيرٍ من أسمائه الحسنى؛ أنهاها بعضهم إلى سبعين اسما، وذكر القاضي عياض في "الشفا" منها ثلاثين، وحلاه بمعاني جميعها؛ وهو: معنى كونه متخلقاً بها؛ فانكشف من هذا أنه ﷺ: مظهر الحق تعالى، ومظهر صفاته وكمالاته السنية. وإنما لم يتكلم العلماء على التخلق بأسماء سيدنا محمدٍ ﷺ وكيفية التخلق بها والتعلق؛ لعدم اتفاق ذلك لهم، أو لأنهم علموا أنه أحروي من التعلق والتخلق بأسماء الله تعالى". اهـ.

قلت: إنما كان أحروياً؛ لوجود الرابطة الجنسية بيننا وبينه ﷺ، ولأنه مظهر الرحمة الإلهية كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، بخلاف ذي الجلال والعزة والكبرياء والعظمة جل جلاله؛ فإنه لا مناسبة بين الحدوث والقدم، ولهذا يحصل بالصلاة عليه ﷺ مالا يحصل بالذكر؛ لما فيها من الاعتدال كما مر.

وتقرير ذلك أن تقول: من أين للعبد الحقير الذليل، المتلطخ بقاذورات الذنوب، ومعدن النقائص والعيوب؛ أن يذكر اسم سيده الكبير الأكبر، العظيم الأعظم، الجليل الأجل، أو يجريه على لسانه؟. حتى كان بعض السلف يقول: "لولا أن ذكره تعالى فرضٌ علي؛ لما ذكرته إجلالاً له، مثلي يذكره ولم يغتسل لله بألف توبةٍ متقبلةٍ عن ذكره؟!". نقله القشيري في رسالته.

لكن؛ لما لم يكن للعبد بد من ذكر سيده والتضرع إليه سبحانه، والابتهال وقرع أبوابه، وسؤال نواله وإفضاله، لما أنه فقيرٌ محتاجٌ إليه تعالى مدا الأنفاس واللحظات؛ فتح سبحانه باب الذكر لعباده في جميع الأوقات والساعات، ولم يشترط فيه ما اشترط في غيره من العبادات، بل ندب إليه في سائر الهيئات والحالات؛ فقال: عز من قائل: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: 103].

ولما كان الذكر وحده محرقة أنوار،ه مفزعة نفحاته وأسراره؛ أقام سبحانه لنا من عظيم فضله وكبير امتنانه، عبداً من عبدانه، حلاه بأسمائه، وألبسه أردية مجده وسنائه، وقرن ذكره بذكره، وجعل طاعته طاعته، وبيعته بيعته، وجعله برزخاً بيننا وبينه فيما يصل منه إلينا، وأمرنا بالتمسك بأذياله، والاعتصام بواثق حباله، والتعلق بعلي جنابه، والتملق بشريف عتباته وأبوابه، والأخذ بمنيع ركابه، والمشي تحت قبابه، ولولا ذلك؛ لانصدعنا من قوة صدمات التجلي الإلهي..فافهم ذلك، وأقدر نبيك ﷺ بما آتاه ربه سبحانه من خصائص التشريف والتكريم، هنالك تنفعل لك الأشياء، وتسخّر لك المكونات بإذن الله تعالى، فاعل ما يشاء.

فأعظم بهذا النبي الكريم قدرا، وته على الأكوان به فخراً، صلى الله عليه

وعلى آله وسلم، وشرف وعظم، ومجد وكرم، وبارك وأنعم، عدد كمالاته، وكما هو أهله، صلاة ترضيك وترضى عنا بها، يا رب العالمين، أبد الآباد، وسلم عليه تسليماً كذلك:

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا ... من العناية ركناً غير منهدمِ
لما دعا اللهُ داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم
دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم
ومن تكن برسول الله نصرته ... إن تلقه الأسد في آجامها تجم
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا ... الله حافظه من كل منتقم

ولله در القائل، ويا له من قائل، مخاطباً لهذا الجناب الشريف:

من فاته منك وصلٌ؛ حظُّه الندم ... ومن تكن همَّه تسموا به الهمم
وناظرٌ في سوى معناك حق له ... يغتص من جفنه بالدمع وهْو دم
والسمع إن جال فيه من يحدثه ... سوى حديثك؛ أمسى وقره صمم
فما المنازل لولا أن تحُل بها ... وما الديار وما الأطلال والخيم؟
لولاك ما شاقني رَبعٌ ولا طلل ... ولا سعت بي إلى نحو الحِما قدم
في كل جارحةٍ عينٌ أراك بها ... مني وفي كل عضوٍ للثناء فم
فإن تكلمتُ لم أنطق بغيركمُ ... وإن سكتُّ فشغلي عنكمُ بكمُ
أخذتمونيَ مني في ملاطفةٍ ... فلست أعرف غيراً مذ عرفتكم
نسيت كل طريقٍ كنت أعرفها ... إلا طريقاً تؤديني لرَبعكمُ

وبالجملة والتفصيل؛ فلا شيء أنفع للقلب، وأسرع للفتح، وأجمع لكل خيرٍ؛ من صدق التعلق به ﷺ، والتملق بين يديه، والتوجه بكنه الهمة ظاهراً وباطناً إليه. جعلنا الله ممن عَمَر به لياليه وأيامه، فنال بغيته منه ومرامه، ضاعف الله عليه صلاته وسلامه. . .آمين.

الوجه الثامن

[المستنكف عن ذكر النبي ﷺ يفوت على نفسه خيرا كثيرا]

قد بان من هذا التحقيق الذي حققناه، وبالبراهن الساطعة أيدناه وحررناه؛ أن ذكره ﷺ مقترناً بذكر الله أكمل الكمال، وأفضل الأعمال، وأسنى المقامات وأزكى الأحوال، وأرفع الدرجات، وأنجح المقاصد وأعم البركات، وأجمع الفضائل وأتم الخيرات، وأجمل المحاسن وأكمل الهبات، وأعظم القربات والطاعات، وأولى ما تعمر به نفائس الأوقات والساعات، وتصرف إليه الهمة من أهل البدء والنهايات؛ إذ لا شك أنا مأمورون بذكر الله تعالى على كل الأحيان، وأفضل الذكر: هذه الكلمة المشرفة التي هي قولنا: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله. إذ هي أفضل وجوه الذكر كما مر؛ لحديث: "أفضل الذكر: لا إله إلا الله". وحديث: "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله". والمراد: محمدٌ رسول الله. كما سبق، وتخصيصه بالأولى مما لا معنى له، وهي تفرقة لا دليلٌ عليها كما مر مستوفى.

على أنا نرى أن قولنا: محمدٌ رسول الله. تضمن معنى: لا إله إلا الله وزيادة؛ وذلك أنها: تضمنت الإقرار بالرسالة، ويلزم منها: الإقرار بالمرسِل ضرورة، سيما مع النطق باسم الجلالة، الاسم الجامع الدال بجمعيته على ذات الحق تبارك وتعالى، وكمالاتها السنية، وقد تضمن عقائد التوحيد كلها.

وعليه؛ فقولك: محمدٌ رسول الله. تضمن معنى: لا إله إلا الله وزيادةً، إذ فيه: الإقرار بالرسول والمرسِل دون العكس. ولذا قال بعض الحذاق: "إن الكافر إذا قال: لا يقول إلا إحدى الكلمتين، فيلغي الثانية لتضمنها معنى الأولى، ألا ترى أن كثيراً منهم يقر بمعنى الأولى ولا ينفعه ذلك حتى يقر بالثانية ويذعن لها؟، ولأنها محل النزاع غالباً؟. وأيضاً؛ إذا أقر برسالته؛ وجب إذعانه وامتثاله لما جاء به، ومما جاء به: توحيد الله تعالى وحده لا شريك له".

ونرى أن هذا المعرض عن ذكر نبيه ﷺ قد فوت نفسه خيراً كثيراً، وفضلاً كبيراً، من وجوهٍ عديدة:

أحدها: أن قوله: محمدٌ رسول الله. قرآنٌ يُتلى، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29]، فيثاب عليها ثواب قارئ القرآن إن قصد التلاوة بكل حرفٍ خمسين حسنة، لا أقول: "ألم" حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف. كما في الحديث الشريف.

ثانيها: أنها ذكرٌ يثاب عليه إجماعاً، وإذا كانت كذلك؛ فكل ما ورد في الذكر من الفضل العظيم الذي لا يكيّف؛ يصدُق عليها.

ثالثها: أنها أحد جزأي الإيمان، فذكرها يحرك مادة الإيمان في الباطن ويقويها، ويظهر أثر ذلك على الجوارح؛ فتنبعث للطاعات والسعي فيما يقرب إلى الله تعالى مما جاء به وحض عليه من أنواع العبادات، وذلك هو المقصود من خلقنا وإيجادنا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. ولعل معنى هذا هو: ما ورد من قول الحق تعالى له: "ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا"؛ إذ المقصود من التعرف به ﷺ: التعرف إلى ربه سبحانه من معرفته ﷺ معرفة ربه سبحانه؛ لأنه الدال عليه، والموصل إليه.

رابعها: أن في ذكره ﷺ تلذذاً وتنعماً بذكر حبيب القلوب وقرة العيون ﷺ، الذي يود المؤمن صلته بكل ما يملك، إذ لا لذة له إلا في رؤيته، ثم في ذكره، ومن أحب شيئاً؛ أكثر من ذكره.

خامسها: أن في ذكرها جمعاً بين الشريعة والحقيقة، وذلك هو الكمال.

سادسها: أن بذكرها تحفظ الرسوم الشرعية عند ورود الأحوال.

سابعها: أن بذكره ﷺ يحفظ نور التوحيد بإدخاله في منيع حرز الشريعة، ويؤمن صاحبه من الحرمان والقطيعة.

ثامنها: أن بذكره ﷺ يدخل السالك موارد التخصيص؛ فينال المنى وينجو من الزيغ والتلبيس.

تاسعها: أن ذكر الرسالة يفيد الشريعة، والتسديد. والهيللة حقيقةٌ وتوحيد، فجميعها عين الكمال، ولاسيما مع زيادة الصلاة؛ فذلك من أفضل الأعمال.

عاشرها: أن المواظب على الأذكار - لضعف مزاجه - يحصل له

الانحراف، فإذا جمع بين الذكرين؛ أكسبه ذلك نورانية تحرق الأوصاف.

حادي عشرها: أن بذكره تنخفض الرسوم عند ورود الاستغراق في أسرار التحقيق، ويؤمن من اللبس في مدارج التضييق؛ لأنه ﷺ دليل الحائرين، وملجأ القاصدين والسائرين، وحصن الخائفين، وعمدة التائهين.

ثاني عشرها: أن بذكره ﷺ يتيسر الفتح، ويسهل الارتقاء، وإنما تُدرك الآمال وتقضى الحاجات بالشفعاء.

ثالث عشرها: أن ذكره ﷺ نورٌ يُهتدى به، وسلمٌ يرتقى بسببه؛ فيزيد في مادة العثور على أسرار الذكر، ويقوي وضوحها للروح والفكر.

رابع عشرها: أن ذكره ﷺ دليلٌ في مفاوز الحقائق العرفانية، وجنةٌ واقيةٌ لمن تمسك بها قطوفها دانية.

خامس عشرها: أنه ﷺ بابٌ عظيمٌ إلى معرفة الله عز وجل؛ فمن قصد معرفة الله من بابها؛ نالها ووصل، ومن قصدها من غير بابها؛ حرمها؛ فانقطع عنها وانفصل.

سادس عشرها: من تأملٍ بتحقيق النظر سر الرسالة؛ وجده من التوحيد؛ لأنه ﷺ لم يكن نبياً ولا رسولاً بنفسه، بل بسرٍ من الغيب الذي خصه به وأهّله له الرقيب الشهيد.

سابع عشرها: أن بالمحافظة على ذكره ﷺ يبلغ العبد مراتب التمكين، ويدرك ما غاب عنه من أسرار التوحيد بيقين.

ثامن عشرها: أن بمداومة ذكره ﷺ، وتشخُّص ذاته الشريفة؛ تنطبع صورته الكريمة في روحانيته، ويتألف معها تألفاً يتمكن به من مسايلته ومحادثته، وتلك السيادة القعساء.

تاسع عشرها: أن من لم يعرف حقه ﷺ بأتم توفية، ولم يعط حرمته العظيمة حقها وما تقتضيه من الفضل والمكانة العلية؛ فهو بعيدٌ من حيث يظن القرب، ومقطوعٌ من حيث ينتظر الوصل.

العشرون: أن القيام بواجب حقه ﷺ بمداومة ذكره، وشغف العبد به في

سره وجهره؛ يثير وهجاً وحرارةً في الطباع، وتقوى به النفوس وترتاح له الأفئدة والأسماع.

الحادي والعشرون: أن ذكره ﷺ فيه تشبث وتعلق بعلي جنابه، وتطفلٌ على كريم عتباته وأبوابه، وجديرٌ بأن تُفتح للسائلين، والمتعطشين الواردين.

الثاني والعشرون: أن بمداومة ذكره ﷺ يحفظ نور الإيمان؛ لتحريكه دواعي المحبة التي بها يحصل كمال الإيقان.

الثالث والعشرون: أن في ذكره ﷺ تعرضاً لنفحات الرحمة الإلهية، واستجلاباً لمواهب عرفانيةٍ، وخصائص امتنانية؛ لما في ذلك من معنى التوسل به ﷺ، والدخول في حرزه المنيع الذي لا يخيّب قاصده، ولا يخاف من لاذ به والتجأ إليه.

الرابع والعشرون: أن في ذكره ﷺ مع ربه جل علاه: شكر وساطته ﷺ فيما مَنّ ربنا سبحانه به علينا من النعم التي من جملتها: طلاقة لساننا بذكره تعالى والثناء عليه بما هو أهله سبحانه.

الخامس والعشرون: أن ذكره ﷺ يقتضي حبه وازدياده، وحبه يقتضي اتباعه الذي فيه جماع كل خير، كما أن الإعراض عن ذكره؛ يقتضي عدم محبته أو ضعفها.

السادس والعشرون: حيث كان ذكره ﷺ من ذكر الله تعالى كما مر؛ فنقرأ على المعرض عن ذكره ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الآية [طه: 124].

السابع والعشرون: أن في ذكره ﷺ مع ربه: التأسي به تعالى، والتخلق بأخلاقه سبحانه، والاقتداء بأفعاله، حيث إنه تعالى لا يذكر اسمه الأكرم في حضرةٍ من الحضرات العُلوية والسفلية إلا قرنه بذكر اسم حبيبه الأعظم ﷺ.

الثامن والعشرون: أن في ذكره امتثال أمره ﷺ، واتباع هديه، واجتناب نهيه، حسبما دلت عليه الأحاديث الشريفة كما تقدم.

التاسع والعشرون: الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم، حسبما يُعلم من أحوالهم المنيفة، الدالة على ذلك كما تقدم.

الثلاثون: امتثال أمر العلماء العاملين، وجمهور الصوفية والأولياء الكاملين، والعارفين الراسخين الواصلين، الذين درجوا على ذلك، وندبوا إليه، وحضوا عليه في كتبهم وكلامهم، قديماً وحديثاً، حسبما مر بسط كلامهم.

فليت علمي بعد هذا كله؛ هل بقي لمعاندٍ ما يقول؟، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟؟؟.!!! اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

الوجه التاسع

[النبي ﷺ هو الواسطة بين الحق والخلق، فيجب أداء حقه]

من المعلوم ضرورة: أنه ﷺ هو الواسطة العظمى بيننا وبين ربنا تعالى في جميع ما وصل إلينا أو يصل من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، حتى أصل الإيمان ودوامه، وثباتنا عليه، إلى ما يتبعه من النعيم المقيم إن شاء الله تعالى، المشار إليه بقوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]، وقوله في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"...وغير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، حتى رؤية مولانا العظيم، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.

فالسبب في نيل جميع ذلك؛ هو: نبينا سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وبواسطته وعلى يديه، وإذا كان كذلك؛ فذكره ﷺ ممزوجاً بذكر ربه تعالى فيه شكر وساطته ﷺ، وأداءٌ لبعض ما يجب علينا من حقه العظيم، الذي هو أعظم الحقوق.

وقد نقل في "الشفا" وغيرها عن سهلٍ رضي الله عنه قال: "من لم ير ولاية رسول الله ﷺ في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه عليه السلام؛ لا يذوق حلاوة السنة؛ لأن النبي ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه". اهـ.

وفي رسالة القشيري عن الجنيد رضي الله عنه قال: "الطرق كلها مسدودةٌ

على الخلق؛ إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ".

وفيها - أيضاً - عن أبي حمزة البغدادي البزاز - من أقران الجنيد - أنه كان يقول: "من علم طريق الحق تعالى؛ سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله".

ولذا قال القطب مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه: "ولا شيء إلا وهو به منوط؛ إذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط".

وذلك أن حقيقته ﷺ من يوم برزت وهي لها وجهتان عظيمتان: وجهةٌ إلى الحق سبحانه للاستمداد والاستفاضة، ووجهةٌ إلى الخلق للإمداد والإفاضة. فيفيض على عوالم الإمكان على اختلاف مراتبها ما تستقيم به شئونها على أتم وجه وأكمله، ويربي الكون من مبدأ طفوليته، ويجدد عليه السقي على الآنات إلى أن تم فطامه، وصار كما ترى، ولا يزال كذلك في كل عالم تقدم أو تأخر ما دام ملك الله العظيم.

ووجهته الأولى: عاكفةٌ في محراب مصلى مشاهدة الجمال الأقدس، قائمةٌ بمسامرة الجناب العظموتي في حضرة الكمال، سابحة في بحار عظمة نور الذات، لا تلتفت لغير هذا المغنى، ولا شغل لها سوى هذا المعنى. وبهذا الاعتبار كان ﷺ وجهاً بلا قفا.

فهو ﷺ القائم بسر الخلافة عن الله سبحانه في العوالم الكونية، وهو ﷺ باب الله الأعظم، وما من ذرةٍ خير من خيرات الدنيا والآخرة في الباطن والظاهر والحس والمعنى؛ إلا وهي من بابه ﷺ، وبواسطته، وعلى يديه، كما قال: "الله المعطي وأنا القاسم". أخرجه البخاري في صحيحه من حديث معاوية. وفي رواية له عن أبي هريرة: "لا أعطيكم ولا أمنعكم؛ أنا قاسم أضع حيث أُمرت". وفي رواية أخرى له أيضاً عن جابر بن عبد الله: "فإنى إنما جُعلت قاسماً أقسم بينكم".

فهو ﷺ الذي يقسم أعطيات الحق سبحانه على الخليقة، ويقسم المدد الإلهي المستفاض من خزائن الجود على جميع دوائر الوجود، في ملك الله العظيم، على سعته واستبحار عمرانه، فكل مربوب فلسيدنا محمد ﷺ منةٌ عليه

في كل ما يقوم به أَوَدُهُ من حسٍ أو معنىً، كان روحياً أو جسمياً، أو نباتياً أو معدنيا، أو ملكاً أو غيره مما لا نعلم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 37].

وقد ألقيتْ إليه ﷺ مقاليد الخزائن الإلهية من يوم برزت حقيقته العظمى من طي الغيب، واستخلف عن الله سبحانه في ملكه العظيم يعطي ويمنع، ويرفع ويضع، ويولي ويعزل، ويعز ويذل. . .كل ذاك بقسمة الله تعالى، وعلى حسب مراده. إذ هو ﷺ الرسول المطلق، المختص بالرسالة الجامعة الكاملة، المحيطة السارية في تضعيف الوجود بالإمداد من عين الوجود، المستولية على أطوار العوالم وحركات أدوارها، وأدراج جزئياتها، في أسوار كلياتها، على الإحاطة والشمول، بمقتضى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: 79]؛ أي: مطلقاً لم تتقيد بقيدٍ، ولم تخصص رسالته بمخصص.

فهو رسول الله للكافة بالكافة من الإمداد بمنافعهم، من وجود ونمو، ورزق وهداية، ودلالة على طرق رشادهم، وما هو الأصلح بهم في معاشهم ومعادهم، وما يلتحق بذلك من الرحمة المرسل بها، بمقتضى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

فكل مَن اللهُ ربُّه؛ فسيدنا محمدٌ ﷺ رسوله، ولا يصل إليه مددٌ إلا بواسطته، وكل شيء يشهد لله سبحانه بالوحدانية بمقتضى قوله جل ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]؛ فإنه يشهد لنبيه ﷺ بالرسالة، إلا المعاند؛ فحيثما تعينت الربوبية؛ استتبعت الرسالة، والربوبية مستولية على الجميع، فالرسالة تابعةٌ لها بالتوجُّه إلى الجميع. قال ابن وفا رضي الله عنه:

روح الوجود حياة من هو واجد   لولاه ما تم الوجود لمن وجد

ومن قصيدةٍ للإمام البكري رضي الله عنه، قال في "حل العقال": "وهي مما جرب لدفع النقم":

ما أرسل الرحمن أو يرسل   من رحمةٍ تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه   من كل ما يختص أو يشمل
إلا (وطه المصطفى) عبده   نبيه المختار والمرسَل
واسطةٌ فيها وأصلٌ لها   يعلم هذا كل من يعقل

فــلــذ بــه فــي كــل مــا تــرتــجــي فــإنــه الــمــقــصــد والــمــأمــل
وعــذ بــه فــي كــل مــا تــخــتــشــي فــإنــه الــمــلــجــأ والــمــعــقــل
وحــط أحــمــال الــرجــا عــنــده فــهْــو شــفــيــعٌ دائــمــاً يــقــبــل
ونــاده إن أزمــةٌ أنــشــبــت أظفارها واستحكم المعضل:
يــا أكــرم الــخــلــق عــلــى ربــه يــا خــيــر مــن فــيــهــم بــه يُــســأل
قــد مــســنــي الــكــرب وكــم مــرةً فــرّجــت كــربــاً بــعــضــه يــذهــل
ولــن تــرى أعــجــز مــنــي فــمــا لــشــدةٍ أقــوى ولا أحــمــل
فحيلتي ضاقت وصبريَ انقضى ولــســت أدري مــا الــذي أفــعــل
فــبــالــذي خــصّــك بــيــن الــورى بــرتــبــةٍ عــنــهــا الــعُــلا تــنــزل
عــجــل بــإذهــاب الــذي أشــتــكــي فــقــد تــوقــفــتُ لــك أســأل
وأنــت بــاب الــلــه أي امــرئٍ أتــاه مــن غــيــرك لا يــدخــل
صلى عليك الله ما صافحت زهــر الــروابــي نــســمــةٌ شــمــأل
مــســلّــمــاً مــا فــاح نــشــر الــصَّــبــا فــضــاع مــنــه الــنــدُّ والَــمــنــدَل
والآل والأصــحــاب مــا غــرّدتْ ســاجــعــة أُمْــلــودُهــا مــخــضَــل

فائدة: وُجد بخط بعضهم ما نصه: "من قرأ هذه القصيدة وقال عقبها: يا رسول الله؛ الإجابة. ثلاثاً، مادا بها صوته؛ فإن الله تعالى يقضي حاجته، وأنه: ما ذكرها أحدٌ في شدةٍ إلا فرج الله تعالى عنه، ولا في حاجةٍ إلا قضاها له".

وذكر المقرى في "أزهار الرياض" روايته فيها عن ناظمها بواسطةٍ واحدةٍ، وذكر أن سبب إنشائها: أنه كان به رمد، فقالها ومسح موضعه، فأذهبه الله تعالى. وأنها: مجربة لدفع الضرر. قال: "فمن كان به ضررٌ؛ فليقرأها وليمسح موضع الضرر بعد قوله فيها: فبالذي خصك...البيتين، يكررهما كما فعل الشيخ". اهـ.

وللشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي رضي الله عنه من قصيدةٍ:

عند طه خزائن التوحيد منـ ـه تبدوا عرائس التمجيد
هو بابٌ للواصلين، فمن لم يغْش باب الحبيب غير رشيد
وقف الكل عند باب حماه يغـ ـرفون من باب طه المديد
كلما غرق العفاة ينادى جو ده الأحمديّ: هل من مريد؟
كلما منح النبيين طراً؛ قا لت الأنبياء: هل من مزيد؟
كلما قد أدير كأس شهود من حبيب؛ دعوه: هل من جديد؟
هو كنزُ الوجود مطلع سر الـ ـغيب، عين الهدى، طراز الوجود
وبباطنه اختفى المتعالي وبظاهره ظهور الودود
أظهر الحق بالحبيب وأخفى كل أمر موجّه للعبيد
فيه يظهر كل أمر خفي أو قريب، أو غامض، أو بعيد
فالحبيب الوسيط في كل شي ء من وصالٍ ورؤيةٍ وشهود
هو فردٌ؛ أفرادُه ليس تُحصى كل ما في الوجود من ذا الفريد
الق بالك واعتقد أن طه لم يشاركه في الورى من حميد
هو عين عيون جود، ولولا مددٌ منه غار بحر الجود
وسفينتنا النجاة بنا قد ثبتت بفناء طه الجودي
كلما شِمت من ضياءٍ ونور فهْو من نور أحمد المحمود
هو نور مجرّد فرد الحسـ ـن على القوم، فانثنوا للركود
كل من في نعمان قد مد كفا لشعاع ضيائه الممدود
ورد المؤمنون والأنبيا من عذب حوض كماله المورود

فهو والله الذي أوتي مفاتيح الخزائن الإلهية، وهو الآخذ بأيدينا في كل موطنٍ؛ ولولاه ﷺ لم يكن لنا نورٌ ولا إيمان، ولا عقل ولا علم ولا فهم، ولا خيرٍ من الخيرات بالكلية؛ كما نطق بذلك الكتاب العزيز: قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]، وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157] الآية، وقال عز من قائل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، وقال جل ذكره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]. . .إلى غير ذلك من الآيات البينات، الدالة على عظيم فضله ﷺ علينا، وكبير إحسانه إلينا، مما لا يحصيه إلا ربه تبارك وتعالى، الذي من علينا به، وأخرجنا من الظلمات إلى النور بسببه.

فهو ﷺ الواسطة لنا في كل خير، وهو الذي أفاض الحقُّ تعالى علينا به جميع النعم دنيا وأخرى، وأظهرها على يديه، وهو الدليل لنا على الله تعالى، والمعرِّف به، والداعي إليه بالبصيرة الواضحة، والبينة اللائحة، فقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى، وما ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدبا يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا حث عليه، ولا شيئا يشغل عن الله إلا حذر منه، ولا عملا يقطعهم عن الحق سبحانه إلا أخرجهم عنه، لم يأل جهداً في تخليص العباد من أوحال القطيعة ومواطن الهلكة، إلى أن ترحّل ليل الشرك وانقضت أغياره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، ورفع لواء الدين وتمم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه.

وكما بيَّن للعباد الأحكام؛ فتح لهم باب الإفهام، حتى قال بعض الصحابة: "لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علماً". قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فأي إحسان أعظم قدراً وأجل خطْراً من إحسانه ﷺ إلى جميع المؤمنين؟، وأي إفضال أعم منفعةً وأكثر فائدةً من إنعامه على كافة المسلمين؟؛ إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم، والنعيم السرمدي.

فيجب على الخلق أن يراعوا حرمة هذا التشريف الإلهي، ويعلموا قدر هذا النبي الكريم وحقه علينا، وأن من الإيمان: أن نحبه أكثر من أنفسنا ووالدينا، وأولادنا والناس أجمعين؛ فيحق لنا إذاً أن نبتديء بذكره وتعظيمه في مهماتنا، بل وجميع أمورنا ومقاصدنا، بعد ذكر الله تعالى، وأن لا نغفل عنه وعن شهود وساطته طرفة عين، شكراً له على عظيم ما أسدى.

ويتأكد علينا كلما تجددت علينا نعمةٌ في ديننا أو دنيانا، من هدايةٍ - ولو لكلمة خيرٍ - وتيسير طعامٍ أو شرابٍ، أو لباسٍ أو شفاءٍ من مرضٍ، أو نجاةٍ من مصيبة. . .وغير ذلك من النعم المتجددة مدى الأنفاس واللحظات؛ أن نستحضر أن ذلك ببركته ﷺ، وبواسطته، وعلى يديه، ونبادر إلى مدحه والثناء عليه، والشغل بالصلاة والسلام عليه، ونخجل حياءً من تقصيرنا في ذلك؛ فإنه لو كان في كل منبتٍ شعرة منا لسان يصلي عليه ﷺ ويثني عليه ويشكره؛ لما وفى بعشر قطرة من بحره الدافق التيار، المتلاطم الأمواج.

[السر في طلبنا الله أن يصلي على النبي ﷺ]

ولأجل هذا؛ أُمرنا أن نسأل الله تعالى أن يصلي ويسلم عليه نيابةً عنا، بفضله في مكافاته، إذ لا يقدر على مكافاته ومجازاته إلا ربه تبارك وتعالى. ولهذا ورد عنه ﷺ أنه قال: "من قال: جزى الله عنا محمداً ﷺ ما هو أهله. أتعب سبعين كاتباً ألف صباح"، وفي رواية: "ألفي صباح". أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، وقال: غريب. والطبراني في "الكبير"، و"الأوسط" بسندٍ ضعيفٍ، وابن النجار، والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي الحديث: "من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا؛ فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافيتموه". أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي،

وابن حبان، والحاكم عن ابن عمرٍ رضي الله عنهما. ولا معروف يوازي معروفه ﷺ إلينا، ولا إحسان يماثل إحسانه العظيم وفضله الكبير علينا، إلا إحسان خالقه وبارئه سبحانه وتعالى.

فصلِ اللهم عليه وعلى آله صلاةً تؤدي بها عنا حقه العظيم، وسلم عليه تسليماً كذلك، عدد ما في علمك، وعدد كلمات ربنا التامات، وكما هو أهله، صلاةً ترضيك وترضيه وترضى عنا بها يا رب العالمين.

تنبيهات

الأول: [الناس في شهود واسطته ﷺ أربع مقامات]

نقل العلامة ابن زكري في "شرح المشيشية" عن الشيخ عبد الرزاق العثماني أن: الناس في شهود واسطته ﷺ على أربع مقامات:

"الأول: موقفٌ أهلُه شُهودُ شريعته ﷺ. وهو لعامة المؤمنين".

"الثاني: موقف أهله شهود ذاته ﷺ. وهو للأولياء والصالحين".

"الثالث: موقف أهله شهود روحه ﷺ. وهو للشهداء والصديقين".

"الرابع: موقف أهله شهود سره ﷺ. وهو للأنبياء والمرسلين".

"وكل صاحب مقام واقف فيه عند حده، متحقق بقصوره عن إدراك ما خُص به من مواهب ربه".

"فمن كان مشهده: شريعته ﷺ؛ فهو واقفٌ مع شهود التكليف، وعلى القطع أنه لم يطق الاحتواء على جميع لوازمها، ولا القيام بجميع شروط قاعدةٍ من قواعدها، كما قال ﷺ: إن هذا الدين متين؛ خذوا منه ما استطعتم، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه. ولم يقم بجميع حقوق ربه إلا هو ﷺ، فهو كنخلةٍ اجتمعت فيها أقوات الخلق، أصلها في الأرض وفرعها في السماء، وهي مثمرةٌ من أصلها إلى منتهى فرعها، وكل واحدٍ من الخلق في أخذ قُوتهم منها على حسب قوته ونهاية طاقته، ورأسها متمنع من الجميع؛ لامتناع وصول البشر إلى السماء. فافهم".

"فاستغراق همة صاحب هذا المقام في متابعة أقواله ﷺ وأفعاله، وفي

ذلك لذة مشربه، وهذا المقام أصلٌ وما بعده نتائج وأحوالٌ ناشئةٌ في طريق السالكين، وإليه مرجع المجذوبين".

"ووجه شهود شريعته ﷺ: أنها حجابٌ بين العبد وسخط ربه؛ لكونها تورث العامل بها ظهور وصف جمال الله تعالى الذي هو بساط رحمته، وتستره عن وصف جلاله الذي هو بساط نقمته، وفناؤه في الله هو: تركه لحظ نفسه عند مطالبته بحقٍ من حقوق ربه، وأداء ما افترضه عليه. ففناء هذا غيبةٌ لا سكر".

"ومن كان مشهده: ذاته ﷺ؛ فهو واقفٌ في مقام هيبة الجمال، ولا سبيل له إلى إدراك حقيقتها برؤية البصر، فأحرى بالبصيرة؛ لمانع قوة نوره ﷺ، كما امتنعت الأبصار من إدراك حقيقة الشمس. كما قال سيدنا حسان رضي الله عنه في وصفه عليه الصلاة والسلام:

لما نظرتُ إلى أنواره سطعت وضعت من خيفتي كفيْ على بصري

خوفاً على بصري من حسن صورته فلست أنظره إلا على قدر

الأنوار من نوره في نوره غرقت والوجه منه طلوع الشمس والقمر

روحٌ من النور في جسمٍ من القمر كحلة نسجت بالأنجم الزهر

"فصاحب هذا المشهد بين محوٍ وإثباتٍ؛ لأنه إذا نظر إلى صورة بشريته جملة؛ شاهد بشرا سويا، وإذا رام حصر أوصاف بشريته؛ تمنّع عليه حصرها، فلا يمكنه عند ذلك أن يقول إلا أنه بشرٌ وليس كالبشر، كما يقال في حجر الياقوت: حجر، وليس كالحجر. واستغراق همة صاحب هذا المقام في وصف الأول، ويزيد عليه بأن: مكارم أخلاقه جِبِلّة لا تعمل. وإلا؛ فالأول لا يخلو من وصف تعملها، وفي هذا الوصف غرقت الهمم العلية، وغرقت دونه الهمم الدنية".

"ووجه شهود ذاته ﷺ أنه: حجاب رحمة بين العبد وهيبة ربه؛ لأنه بوجود ذاته الكريمة ظهر الإسلام، وذهبت عبادة الأصنام، ومن حكمه شرعت الأحكام، ومن لسانه عرف الحلال والحرام. فلولا وساطة بشريته ﷺ لم يستطع أحدٌ تلقي أمر الله ونهيه من واسطة الملك، فأحرى من خطاب الملك.

قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]".

"وانظر عظيم مقاساته ﷺ في تلقي القرآن من جبريل عليه السلام، مع ما أودع الله فيه من القوة والاستعداد لذلك، مما هو خارجٌ عن طوق البشر، ومع ذلك يقول: زملوني. وتارةً يقول: دثروني. وتارة يبقى له غطيط وعرق. والجاري من أحواله: أنه يغيب عن حسه حين تلقي الوحي. والصحابة لما تلقوه من بشريته ﷺ؛ لم يصعب عليهم ذلك، ومن بعدهم كذلك".

"ووجه فنائه في الله: تركه لدواعي الهوى، واستقامته ظاهراً وباطناً على بساط التقوى، فهو وإن كان عاملاً على أمر الله؛ لكن بواسطة المبلغ عن الله. وفناء هذا غيبةٌ لا سُكر".

"ومن كان مشهده روحه ﷺ: فهو واقفٌ في مقام هيبة الجلال، وفناؤه حقيقي؛ لأن سره فارق عالم الخلق، واستوطن عالم الأمر، تبعاً لمشهوده، وهو روحه ﷺ. فهو ليس له مع غير الله قرارٌ، ولا عما سواه إخبارٌ، واستغراق همة صاحب هذا المقام المعبّر عنه بـ: "مركز البصيرة" في وصف المقامين السابقين، ويزيد عليهما بالخروج في جميع تلقياته عن العادة إلى صون الحكمة، وبث الإفادة تبعاً لمشهوده؛ لأن الروح لا حكم للعادة عليها، والنفس لا خروج لها عن ذلك. فهو يقوم بالمحجتين، ويشتمل على الطرفين، كلٌ على حسب مطلبه، فيكون عند ذلك بشراً سوياً".

"وبالجملة؛ ففي كل واحدٍ من هذه المقامات بداية وواسطة ونهاية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60]، وذلك لقوة الوارد وضعفه، وهما يظهران في طرق مكاسبه؛ وهي: كثرة العمل، وقلته. فعلاً كان، أو ذِكراً، أو فكراً؛ لأنه قيل: بمقدار ما يدخل القلب من التعظيم والحرمة؛ تنبعث الجوارح بالمسارعة في الخدمة، وبقدر المتابعة؛ تكون المواجهة، وبقدر المواجهة؛ تكون المشاهدة، وبقدرها يكون الكشف، وبقدره تكون غيبة المشاهدة في المشهود، وبقدرها يكون الفنا، وبقدره يبلغ العبد غاية المنى".

"فمشاهدة جمال الحق تعالى وجلاله إنما تظهر في مرآة ذاته ﷺ، وحقيقة

ذلك لم يدركها أحدٌ بفهمه، ولا يعلم ذلك إلا الذي خصه به. ومن كان مشهد سره ﷺ؛ فغاية إدراكنا من العلم فيما بيننا وبينهم كما قال البوصيري رحمه الله تعالى:

فمبلغ العلم فيه أنه: بشرٌ   وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آيٍ أتى الرسل الكرام بها   فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضلٍ هم كواكبها   يُظهِرْنَ أنوارها للناس في الظُلَمِ

"أي: يظهرهم الله لخلقه بأنوار توحيده في ظلمة الشرك؛ ليهدي الله بنورهم من شاء من خلقه، وتحق كلمة العذاب على الكافرين. وذلك على وجه النيابة عن نوره الأعظم قبل ظهور ذاته الكريمة ﷺ، وكذا ورثته من أمته بعد غيبة ذاته: يدعون إلى الله تبعاً لدعوته، وتثبيتاً لشريعته، كما أشار لذلك بقوله: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل. أي: في النيابة عنه في دعوى الخلق إلى الله تعالى. وأما وجه المناسبة في المادة منه وإن وقع مطلق الاشتراك فيها؛ فلا قائل بالاشتراك في القدر بين حظ الأنبياء وحظ الأولياء، وقد كشف عن ذلك أبو يزيد في قوله: حظ النبي زقٌ من عسل، وما رشح هو حظ الولي".

"وحاصل الأمر: إن أسرار الأنبياء والأولياء مطويةٌ في حشو لمحةٍ من مواهب سره، ونقطةٍ من فيض بحره كما قال البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهمُ   من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

"وقد استبان من هذا أنه: لا غنى لأحدٍ عن واسطته ﷺ، وإلا؛ فلا طاقة لسائر الخلق عن شهود وصف الحق".

"ووجه ذلك: أنه يكون مشهود العبد أولاً: واسطة النبي ﷺ، فإذا تجلت لسره شمس الأحدية؛ استغرق قدرها قمر المحمدية، فغاب نور قمر المحمدية في غلبة نور شمس الأحدية؛ لقرب البعض من البعض كما يغيب ضوء القمر الحسي في ضوء الشمس عادةً عند تقارب منازلهما، ودليل التقارب على معنى ما يليق ببساط التوحيد: ما أومأت إليه آية النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: 8، 9]، فهذه المنزلة ثابتةٌ للنبي ﷺ، وهي له ذاتية ليلة الإسراء، وفيما بعدها روحيةٌ سرية؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني. مع أنه لا قائل بإسرائه في غير ما أخبر الله به".

"وهذه المنزلة - وإن قالها ﷺ في عالم العزة في مقامٍ لم يصل إليه غيره من سائر البشر؛ فلم يزل قربه من ربه على نحو ذلك في عالم الملك؛ للاستواء في عدم حلول الحق تعالى في المكان، وثبوت إحاطة علمه سبحانه بعلوي الموجودات وسفليها".

"ومحل الدنو على معنى ما يليق بمقام الألوهية في عالم الملك: قلب المؤمن، حيث خلق برزخاً جامعاً وسع الكون والمكون. وسع الكون في إتقان كل حكمةٍ، وقبول كل نعمةٍ. ووسع المكوّن علماً ومعرفةً، ووقف عند ما حُد له. ودليل الوُسع: حديث: لا يسعني أرضي ولا سمائي، ويسعني قلب عبدي المؤمن. ولما ثبت لقلب المؤمن أنه محل تجلي الحق تعالى، وأن العبد لا يطيق شهود الحق سبحانه، لضعفه؛ جعل للرسل عليهم الصلاة والسلام الاستعداد لذلك، وأعظمهم في ذلك: نبينا سيدنا محمدٍ ﷺ؛ إذ هو واسطة الجميع".

"وبيان ذلك: أن أرباب الفناء إذا غشيهم وارد المشاهدة؛ يكون إذ ذاك مركز نظر بصيرة العبد: قمر المحمدية؛ لأن ذلك غاية ما تطيق بصيرته النظر فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9]، أي: في صورة رجل للاستيناس بالجنس والرجوع إلى عالم الحس. ولما كانت البشرية لا تطيق مباشرة الملك؛ بعث الله لنا رسلاً من أنفسنا رحمةً منه بنا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران: 164]، فالمشهود يشهد المشهود في مرآة سر الوجود، ولولا واسطته ﷺ؛ لم يطق العبد وصف المشاهدة، لقوله ﷺ: حجابه: النور، ولو بدت سُبُحات وجهه؛ لاحترق ما أدركه بصره من خلقه. فهو ﷺ حجاب النور، الحاجز بينه وبين خلقه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]. اهـ".

"وفي حاشية الحزب الكبير لسيدي عبد الرحمن الفاسي رحمه الله: وقد نبه الحاتمي رضي الله عنه على نكتةٍ ينبغي الاحتفاظ بها؛ حيث قال: اعلم

أن كل ولي لله تعالى فإنه يأخذ ما يأخذ بواسطة روحانية النبي ﷺ، منهم: من يعرف ذلك، ومنهم: من لا يعرفه، ويقول: قال لي الله. وليس غير تلك الروحانية.! اهـ".

"وهذا موافقٌ لما أشار إليه سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال: إن الولي إنما يكاشَف بالمثال. يعني: كما يرى مثال البدر في الماء وبواسطته. وكذلك الحقائق الغيبية، والأمور الإشهادية مجلوةٌ وظاهرةٌ في بصيرة النبي ﷺ، وليه عياناً لا مثالاً، والولي لقربه منه ولمناسبته له، لهديه بهديه، ومتابعته له؛ يكاشف بمثال ذلك فيه".

"فظهر الفرق، وثبتت مزية النبي ﷺ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية، وصح ما أطبق عليه الأولياء من المحادثة والمكالمة، وقولهم: قيل لي، ونوديت في سري. اهـ".

"وبه تفهم ما ذكرناه من أن الولي قد لا يستحضر وساطته ﷺ إذا استولى عليه الفناء واستغرقه الشهود". اهـ كلام العلامة ابن زكري.

قلت: ولا شك أن هذا الذي يستولي عليه الفناء ويستغرقه الشهود حتى لا يستحضر وساطته ﷺ؛ مقامه أدون، والكمال هو: أن لا يحجَب عن شهود واسطته ﷺ ولو ترقى في الشهود إلى ما عسى أن يبلغ، فلا يغفل عنه، إذ به وجودُه وقوامه، ومنه يستمد. فكيف يصح أن يذهل عنه؟!، ولو قطع عنه مدده لحظة لانمحق ودكت عوالمه. فتدبر ذلك. والله أعلم.

التنبيه الثاني: [وساطة النبي ﷺ لا يستغنى عنها]

نقل العارف الشعراني في "درر الغواص" عن شيخه سيدي علي الخواص أنه قال: "لا تجعل بينك وبين الله واسطةً أبداً؛ من نبيٍ أو غيره. فقلت له: كيف؟.! قال: لأن الرسول واسطة بين العبد وربه في الدعوة إلى الله تعالى، لا إلى نفسه، فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده؛ ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذذاك، وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله، ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع، كما في حال المناجاة في السجود سواء، فنفس الرسول تغار من

أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى، فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك، كما أشار إليه قوله ﷺ: من سن سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة. الحديث".

"وانظر - يا أخي - إلى غيرة الحق تعالى على عباده بقوله لمحمدٍ ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]. فأعلمنا الحق تعالى أنه أقرب إلينا من أنفسنا، ومن رسولنا الذي جعله لنا واسطةً في كل خيرٍ، مع أنه تعالى بالغ في مدحه ﷺ حتى كاد أن يصرح بأنه هو؛ لكثرة ما وصفه بالكمال، في نحو قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وبنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، ومع ذلك قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾...الآية .[آل عمران: 128]، فأخرجه عن حال الخلق، ونفاه عنهم". اهـ، نقله العلامة ابن زكرى في شرح "المشيشية"، وكتب عقبه ما نصه:

"قلت: لا يهولنّك أمر هذا الكلام مع ما حققناه من أن الاستغناء عن واسطته ﷺ لا سبيل لأحدٍ إليه وإن وصل إلى ما وصل، كما سبق تفصيله وبيانه في كلام الشيخ المحقق سيدي عبد الرزاق العثماني، وهذا سيدنا الشيخ أبو العباس المرسي - الذي لا شك في قطبانيته، كما شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي وغيره بذلك - قال: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عينٍ ما عددت نفسي من المسلمين. وقد تقدم غير مرةٍ عن غير واحدٍ ما معناه: إن كل من حصلت له رحمةً في الوجود، أو خرج له قسمٌ من رزق الدنيا والآخرة، والظاهر والباطن، والعلوم والمعارف والطاعات؛ فإنما خرج له ذلك على يديه وبواسطته ﷺ، وهو الذي يقسم الجنة بين أهلها، ولأجل هذا: عدوا من خصائصه ﷺ أنه: أعطي مفاتيح الخزائن. قال بعض العلماء: وهي خزائن أجناس العالم؛ فيخرج لهم بقدر ما يطلبون".

"فكل ما ظهر في هذا العالم فإنما يعطيه سيدنا محمدٍ ﷺ الذي بيده المفاتيح، فلا يخرج من الخزائن الإلهية شيء إلا على يديه ﷺ، وهو معنى اسمه: الخليفة، وخليفة الله. وقد سبق أنه لا طاقة لأحدٍ بالتلقي والشهود

بدون واسطته ﷺ، وأنه المرآة الكبرى، والمجلى الأعظم، وأن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرةٌ على الدلالة على الله تعالى، والتعريف به، والمعرفة لا نهاية لها؛ فما دام الإنسان يترقى فيها فهو يغترف من بحره، ويستمد منه، حتى الأنبياء والمرسلون:

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِيَمِ

"غاية الأمر: أن صاحب الفناء لا يشعر بذلك وقت فنائه في الله؛ لغيبته فيما فنى فيه، فالمنتفي إنما هو شعوره، وأما استمداده منه وتوجه الفتح له على يديه؛ فثابتٌ في نفس الأمر، فإن نُبِّه لذلك بعد إفاقته؛ اعترف به، بدليل: ما مر أنه لا يخرج شيء من الخزائن الإلهية إلا على يديه، وسبق من كلام غير واحدٍ من أيمة الطريق المقتدى بهم، أن الاشتغال بالصلاة عليه ﷺ طريق الفتح، وأنها من ذكر الله تعالى، وكون الله تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ﷺ مما لا إشكال فيه، ولا ينافي شيئاً مما ذكرناه، وبعد ثبوت الإيمان للعبد لا يستغني عن خلفائه ووسائطه من المشايخ المستمدين في التوصيل إلى المعرفة. نعم؛ بعد الوصول التام يستغني عنهم ولا يستغني عنه ﷺ".

ثم قال: "ولعل المقصود من هذا الكلام الذي قاله سيدي علي الخواص: التنبيه على الاحتراز من الغلط في شهوده ﷺ، بأن يجعل المشاهد الواسطة كالمقصد، فيقف عندها ولا ينفذ إلى المقصد، وهذا إنما يقع لبليدٍ قاصرٍ؛ إذ الدلالة لأقواله وأفعاله وأحواله ﷺ على الله ثابتةٌ والوقوف عند الدال مع فهم دلالته غايةٌ في القصور في الجهل بالدال، ولا يستغرب هذا؛ فإن مصائب الجهل لا تنحصر". اهـ. فشد يدك - يا أخي - على هذا التحرير، ولا تلتفت إلى غيره وربُّك العليم الخبير.

التنبيه الثالث: [تعلق سيدنا علي وارتباطه بالنبي ﷺ]

قد صح عن سيدنا عليٍ رضي الله عنه في هذا الباب من الاستهتار بحبيبه ﷺ، والتفاني فيه، ما هو شأن كل مقرّبٍ مثله؛ فكان من أول الناس إيماناً به وإذعاناً له، وتصديقاً لرسالته، وسعياً في مرضاته، وفي ذلك يقول

رضي الله عنه مبيناً لعظيم مفاخره، تحدثاً بالنعم:

محمدٌ النبي أخي وصهري وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفرٌ الذي يضحى ويمسي يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعِرْسي مشوبٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمدٍ ولداي منها فمن منكم له سهمٌ كسهمي؟
سبقتكموا إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصدّقت الرسول وكنت طفلاً فمن ذا يدعي يوماً كيومي؟

قال البيهقي: "هذا الشعر مما يجب على كل متوانٍ في عليٍ رضي الله عنه حفظه؛ ليعلم مفاخره في الإسلام".

ومن مفاخره: أن النبي ﷺ أخذه قبل البعثة من أبيه أبي طالب في مسغبةٍ كانت، فضمه إليه، فكان يطعمه ويقوم بأمره، ولم يزل عنده في كفالته كأحد أولاده، يتبعه في جميع أموره، إلى أن بعثه الله؛ فكان أول الناس إيماناً بعد خديجةٍ رضي الله عنها وهو صبي، وأولهم من الرجال: أبو بكرٍ رضي الله عنه.

وفي "خصائص العشرة" للزمخشري أن النبي ﷺ هو الذي سماه بعلي، وتولى تغذيته أياماً من ريقه المبارك، يمصه لسانه الشريف. فعن أمه فاطمة بنت أسدٍ رضي الله عنها قالت: "لما ولدته؛ سماه النبي ﷺ علياً، وبصق في فيه، ثم إنه ألقمه لسانه، فمازال يمصه حتى نام. قالت: فلما كان من الغد؛ طلبنا له مرضعةً، فلم يقبل ثدي أحدٍ، فدعونا له محمداً ﷺ، فألقمه لسانه، فنام. فكان كذلك ما شاء الله عز وجل". اهـ. نقله في "السيرة الحلبية".

وقيل له رضي الله عنه: "كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟". فقال: "كان والله أحب إلينا من آبائنا وأبنائنا، ومن الماء البارد على الظمأ". وقال رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وغيره: "من رآه بديهةً؛ هابه، ومن خالطه معرفةً؛ أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ". فهذا اعترافٌ منه رضي الله عنه بالعجز عن استقصاء محاسن هذا الجناب

المحمدي الأرفع، والقصور عن إدراك كمالات الشفيع المشفّع، إشارةً إلى أن هذا الجناب العظيم في غاية العلو ونهاية الارتفاع، وأن استقصاء كمالاته مما لا يمكن ولا يستطاع، ومن رام حصرها؛ عجز بدءاً ونهايةً، وكلَّ لسانه وضاق عن التعبير للغاية.

وصح أنه ﷺ أرسله إلى اليمن ليقضي بينهم، فقال: "لا أدري ما القضاء". فضرب صدره بيده وقال: "اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه". قال علي: "فوالذي فلق الحب؛ ما شككت في قضاءٍ بين اثنين!".

وقيل له: "مالك أكثر الصحابة حديثاً؟". فقال: "إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكتت ابتدأني". وقال رضي الله عنه: "لو كشف الغطاء؛ ما ازددت يقيناً". وعقده الإمام البوصيري في الهمزية حيث قال:

لم يزده كشف الغطاء يقينا بل هو الشمس ما عليه غطاء

والمعنى أنه: حصل له رضي الله عنه من البراهين القطعية على حقيقة التوحيد ومتعلقاته، ومغيبات الأمور، مما تلقاه منه ﷺ، وعلمه له، ما لو كشف له الغطاء عن تلك المغيبات؛ لم يزده ذلك يقيناً؛ لكمال رسوخه.

وقال رضي الله عنه: "من يوم لقنني ﷺ الورد وأنا على علم لم يحط به جبريل ولا مكائيل ولا إسرافيل". وقال أيضا: "بث إليَّ أبو القاسم ﷺ مائة ألف مسألة، في كل مسألةٍ مائة ألف فصل، في كل فصلٍ مائة ألف نوع، في كل نوعٍ مائة ألف جنسٍ؛ لو بثثت لكم واحدةً منها؛ لقلتم: اقتلوا علياً إنه من أكبر الفسقة". وقال: "لو أذن لي رسول الله ﷺ؛ لوضعت على الفاتحة زهاء سبعين بعيراً".

ونقل في "شعب الإيمان" عنه - رضي الله عنه وكرم وجهه - أنه ﷺ دعا الأرواح يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، إلى الإقرار حين كانوا كالذر، وهو صريحٌ في تحقيق وساطته ﷺ في معرفة الله عز وجل، والإقرار بربوبيته لجميع الأرواح الشاملة، لا روح الأنبياء والمرسلين، فأحرى غيرهم. وذلك في عالم الغيب، فأحرى بعد وجوده في عالم الشهادة، فهذا نقيض ما سبق من استغنائه عنه ﷺ في معرفة الله تعالى، ومؤكدٌ لبطلانه وعدم صحته عنه.

وقد نصوا على أنه ﷺ الواسطة في نيل النبوءة والرسالة للأنبياء والمرسلين، وفي نيل الولاية والقرب للأولياء والمقربين، ولذا قال الحاتمي رضي الله عنه في "الفتوحات": "مستمد الأنبياء والمرسلين من روح محمدٍ ﷺ؛ إذ هو قطب الأقطاب، فهو ممدٌ لجميع الناس أولاً وآخراً، وهو ممدٌ لكل نبيٍ ووليٍ سابق على ظهوره حال كونه في الغيب، وممد أيضاً لكل ولي لاحق؛ فيوصله بذلك إلى مرتبة كماله في حال كونه موجوداً في عالم الشهادة، وفي حال كونه منتقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ والدار الآخرة، فإن أنوار رسالته ﷺ غير منقطعة عن العالم من المتقدمين والمتأخرين، وكل نبيٍ تقدم على زمان ظهوره فهو نائبٌ عنه في بعثته بتلك الشريعة". اهـ.

ومن جوابٍ للشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه: "سائر العلماء والأولياء رضي الله عنهم صور تفصيله ﷺ، وخلفاؤه، ومظاهر تعيناته، فما منهم إلا وهو سابحٌ في نوره، وممتدٌ من بحره، على حسب مقامه. ..إلى أن قال: وعلى هذا؛ فلا زائر ولا مزور إلا له ومنه ﷺ، إذ هو أول موجود أخرج من العدم، ورابطةٌ بين الحدوث والقدم، وأس الخليقة على التمام". اهـ.

الوجه العاشر

[التعلق بالنبي ﷺ يوجب الفضل العظيم]

من الواضح المعلوم أن ذكره ﷺ وترديد اسمه الكريم فيه انتساب وانحياش لعليِّ جنابه، وتطفلٌ على كريم عتباته وأبوابه، ولا شك أن أدنى انتساب إليه ﷺ بأي وجهٍ يورث السعادة الأبدية، والسيادة السرمدية، وإذا كان ذلك في أفراد أمته؛ فكيف به ﷺ الذي هو سند الكل، وقدوة الجميع؟.!

حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم

من يعتصم بك يا خير الورى شرفا ... الله حافظه من كل منتقم

وطالما قال غير واحدٍ من أولياء هذه الأمة: "إن من عرف اسمه؛ دخل الجنة"، أو: "إن من رآه أو رأى من رآه، أو صافحه، أو صافح من صافحه إلى سبعةٍ دخل الجنة"...ونحو ذلك من العبارات المؤذنة بعظم قدرهم، واتساع جاههم عند رب الأرض والسماوات.

وتذكر قضية أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه، وأنه كان يوماً خارجاً من مسجدٍ وتحت يده ثوبٌ منعه من لبس نعله، فأخذه منه رجلٌ كان بإزائه حتى انتعل، فلما مات؛ ووضع في قبره؛ جاءته ملائكة العذاب، فقال لهم: "أنا صاحب أبي يزيد". فذهبوا إليه وقالوا له: "هذا يزعم أنه صاحبك". فقال: "لا أعرفه". فقال الرجل: "سبحان الله ما أسرع نسيان بني آدم!؛ أما تذكر اليوم الذي كنتَ خارجاً من المسجد وتحت يدك ثوبٌ منعك من لبس نعلك، فناولتنيه حتى انتعلت؟". فقال أبو يزيد: "صدق؛ قد كان ذلك". فتركوه وجاءته ملائكة الرحمة.

ونظير هذه الحكاية كثيرٌ في هذه الأمة، ومعلوم على القطع أنهم إنما نالوا ذلك منه ﷺ وبمدده الساري فيهم:

والكرامات منهمُ معجزات ... نالها من نوالك الأولياء

وقد قال العارف الشعراني في أول "العهود": "ما في الوجود من جعل الله تعالى له الحل والربط دنيا وأخرى مثل سيدنا ومولانا محمد ﷺ؛ فمن خدمه على الصدق والمحبة والصفا؛ دانت له رقاب الجبابرة، وأكرمه جميع المؤمنين، كما نرى ذلك فيمن كان مقرباً عند ملوك الدنيا. ومن خدم السيدَ خدَمَتْهُ العبيد، فمن لم يخدمه ﷺ الخدمة الخاصة به، وطلب دخول حضرة الله تعالى؛ فقد رام المحال، وكما أن غلام السلطان إذا سكر لا يتعرض له الوالي أبداً إكراماً للسلطان، فكذلك خدام النبي ﷺ لا تتعرض لهم الزبانية يوم القيامة إكراماً لرسول الله ﷺ، فقد نفعت الحماية مع التقصير ما لا تنفعه كثرة الأعمال الصالحة مع عدم الاستناد إلى رسول الله ﷺ الاستناد الخاص". اهـ.

وتقدمت حكاية الإسرائيلي الذي غفر الله تعالى له ذنوب مائتي سنة، وزوجه سبعين حوراء بسبب تقبيله اسم سيدنا محمدٍ ﷺ، وانتمائه إليه. وأعطيات هذه الأمة أكثر من أعطيات غيرها وأتم، فيضاعف لهم ذلك:

وإذا ما الجناب كان عظيما ... مُد منه لخادميه لواءُ

وإذا عظمت سيادة متبو ... ع؛ أجلّ أتباعَه الكبراء

وهمته ﷺ أجل وأعظم وأوفى من كل مخلوقٍ؛ لأنه ﷺ أكرم الخلق على الإطلاق بكل الوجوه والاعتبارات، فالانتساب إليه والتطفّل عليه يوجب لصاحبه نسبةً منه وذمةً ورعايةً وحرمةً، وحاشا أن تُخفر ذمته أو تُكسر حُرمته:

فإن لي ذمةً منه بتسميتي ... محمداً وهْو أوفى الخلق بالذممِ
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم

[تقبيل اسم النبي ﷺ وتعظيم ما هو من شأنه]

ومن وجوه الانتساب إليه ﷺ: ما ذكره بعض العارفين رضي الله عنهم أن من خصائص الاسم الشريف "محمد": أن من رآه حيثما كان فقبله؛ أمن الله تعالى فمه من العاهات ببركته ﷺ. وذكر الإمام الرصّاع في أول كتابه "تذكرة المحبين" أن: "من علامات محبته ﷺ وتعظيمه: المبادرة عند سماع اسمه أو رؤيته بتكريمه وتقبيل المكتوب الذي اشتمل على علي اسمه، وتوقيره وتعزيره، كما يوقر محل حلوله ورسمه". اهـ.

وقال الإمام المقّري في كتابه "فتح المتعال"، الذي ألفه في النعال الشريفة، ما نصه: "وقد صح عند جماعة من أيمتنا المقتدى بهم: تقبيل اسمه الشريف ﷺ فيما هو مكتوبٌ فيه، وتبجيله والتبرك به، ووضعه على العيون والرؤوس". اهـ.

قلت: ومما يجري هذا المجرى: مسح الوجه باليد عند ذكره ﷺ أو سماع اسمه الشريف مع الصلاة عليه، كما درج على ذلك جماعة من الأيمة العارفين، وذلك مما يدل على مزيد المحبة والشوق والتعظيم، بل ذلك أحق وأولى بمراحل مما يفعله بعض العامة عند سماع اسم بعض الصالحين من وضعهم أيديهم على رؤوسهم وتقبيلها، ولا فرق بين أن يكون ذلك في تلاوة القرآن أو غيرها، بل زاد بعضهم: "ولو في الصلاة". لكن الأقرب: أن من كان في الصلاة - ولو فريضة - يقتصر على الصلاة عليه ﷺ عند ذكره، لعموم الأمر بها حينئذٍ. كما نص على ذلك غير واحدٍ فإن زاد على ذلك مسح وجهه؛ فينبغي عدم بطلان صلاته؛ لخفته.

ومن هذا الباب أيضاً: ما ذكره غير واحدٍ من العلماء؛ أن من قبل ظفري

إبهاميه ومسح بهما على عينيه حين يقول المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله. ويقول مع ذلك: "مرحباً بحبيبي وقرة عيني سيدنا محمدٍ ﷺ"؛ أمنه الله تعالى من العمى والرمد، ولم يصبه وجع العين ما عاش. ونُقل ذلك عن سيدنا الخضر عليه السلام.

ونقل العارف البوني في "شمس المعارف" عن بعضهم أن: "من كتب: محمدٌ رسول الله، أحمدٌ رسول الله. بعد صلاة الجمعة خمساً وثلاثين مرة، وحمله معه؛ رزقه الله تعالى قوةً على الطاعة، ومعونةً على البركة، وكفاه من همزات الشياطين". اهـ.

ونقل في "عمدة التحقيق" عن العارف البكري رضي الله عنه أن: "من أفضل الدعاء أن تقول لما شئت: اللهم إني أسألك بألِف أحمدٍ، وحاء محمدٍ، وميم أحمدٍ، ودال محمدٍ، أن تصلي وتسلم على سيدنا ومولانا محمد، وأن تفعل لي كذا وكذا. قال: وهي مجربةٌ نافعةٌ، وإن تأخرت الإجابة؛ فإياك واليأس". اهـ.

وهذا الباب متسعٌ جداً، ولو بسطنا القول فيه؛ لخرجنا عن حد المقصود، ففي ما ذكرناه من ذلك كفاية، وعلى الله - سبحانه - الاعتماد في البدء والنهاية.

خاتمـــة

تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: [عالما المُلك والملكوت]

قال في "مطالع المسرات" ما نصه: "قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوي: عندنا عالَمان: عالم الأمر والإرادة؛ وهو المعبر عنه بالعالم العلوي، وعالم الملك والشهادة؛ وهو المعبر عنه بالعالم السفلي. فالعالم الملكوتي هو: الذي لا يقتضي الترتيب ولا الزمان ولا المكان، وإنما هو أمرٌ ربـانـي إرادي، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40]، إذ ليس في وجوده تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان، فهذه عبارةٌ عن العالم الملكوتي المستمر على حقيقةٍ واحدة، وهو: الأزل الذي لا كسب فيه، وإنما الكسب في عالم الملك والشهادة، المضاف إلى القدرة المصرفة للحكمة، وفيه الترتيب والكسب، والزمان والمكان، والأكوان والأحكام".

"فعبر عما ظهر في عالم العلم والإرادة، المسمى بـ: العالم الملكوتي، بالأزل، وعبَّر عما ظهر في اختراع القدرة المصرفة للحكمة، المسمى بـ: عالم الملك والشهادة، بالأبد، إذ في تباينهما ظهر الترتيب الحكمي، والارتباط الزماني، وظهر الكسب، وشرعت الشرائع، وخرجت لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله. على هذه النسبة من معنى العالمين، اللذين هما: عالم المُلك والشهادة، وعالم الملكوت والأزل والأبد".

"فلا إله إلا الله أزليةٌ؛ لفراغ الخلق منها، وهي من صفات عالم الملكوت. ومحمدٌ رسول الله أبدية؛ وهي: من صفات عالم الملك، فما يظهر بغير كسبٍ يعزى إلى الأزل، وما يظهر مع ترتيب الأحكام بالكسب يعزى إلى الأبد". اهـ بلفظه.

قلت: وقد اقتضت الحكمة الإلهية ارتباط أحد العالمين بالآخر، وعليه؛ فمن فرق بين الكلمتين المشرفتين؛ فقد خالف الترتيب الإلهي والحكمة الربانية. والله أعلم.

الفائدة الثانية: [من تقاسما كلمتي الشهادة لا بد وأن يلتقيا]

ذكر الشيخ الإمام العلامة أبو سالم العياشي في رحلته، في ترجمة الشيخ الإمام، العلامة المشارك المحقق الهمام؛ أبي إسحاق إبراهيم الميموني ما نصه: "لما جئت لوداع الشيخ الميموني عشية يوم الأربعاء؛ كتب بعض أقاربه: لا إله إلا الله. في رقٍ، وكتب بإزائه: محمدٌ رسول الله. وفصل ما بينهما بمقصٍ حتى بقي منه شيء قليلٌ، فأمرني أن آخذ إحدى القطعتين، وأخذ الشيخ الأخرى، وقطعناهما بيننا نصفين، وقال لي: تحفّظ على القطعة التي عندك، وأنا على التي عندي؛ فإن اسم الله، واسم حبيبه إذا تفرقا لا بد أن يجتمعا بإذن الله تعالى".

"قلت: وكأن هذا تلميح من قوله تعالى في الحديث القدسي: لا أذكر إلا ذكرت معي. فإذا اجتمعت البطاقتان؛ انجمع من هما عنده، وهو المقصود. وقد صدق الله العظيم تعالى ذلك في واقعتنا، فرجعنا من الحجاز بعد مجاورة سنةٍ، ووجدنا الشيخ - والحمد لله - سالماً في نفسه، ولم أجد قريبه الذي كتب ذلك وكان فعل ذلك حرصاً على حياة الشيخ ورجاء أن يعيش حتى نرجع من الحجاز، لما كان يتخوف عليه من هجوم الحِمام، لكبر سنه، مع كثرة الأمراض الوبائية إذ ذاك بمصر، ولم يتخوّف ذلك على نفسه. وفي مثل ذلك قيل:

وقبلك داوى الطبيب المريض فعاش المريض ومات الطبيب

اهـ منه بلفظه.

قلت: وقد فعلت ذلك بهذا القصد لما كنت مسافراً إلى مراكش وغيرها سنة ثلاث وثلاثين وثلاث عشرة مائة، فكتبت الكلمتين المشرفتين في قطعةٍ كاغد، وفصلت بينهما أنا والأهل، وأعطيتهم القطعة الأولى، وأمرتهم بالتحفظ عليها، وصحبت القطعة الثانية معي، فردني الله سالماً والحمد لله،

ووجدت الأهل والصبيان سالمين، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفائدة الثالثة: [الموتى يدعون لقرن الشهادتين]

ذكر في "الصفوة" في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن المرابط، أنه: كان يوماً بمقبرة صفرو وهو يذكر: لا إله إلا الله. على عادته، فسمع قائلاً من قبرٍ يقول: أكملها بمحمدٍ رسول الله. فصار بعد ذلك لا يذكر إلا الكلمتين معاً". اهـ.

الفائدة الرابعة: [الشهادتان سبع كلمات تقي أعضاء الإنسان السبعة من النار]

قال في "الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية" ما نصه: "قال ابن جماعة في حاشية "شرح العقائد": لطيفة: قال الرازي في "أسرار التنزيل": لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، سبع كلمات، وأعضاء العبد سبعةٌ وأبواب النار سبعة، فكل كلمةٍ تغلق عن عضو بابا. قلت: ومن المعلوم أن الأعضاء أكثر من سبعة، فلا بد لتحقيق كونها سبعة من الحمل على خصوصٍ في الأعضاء، وهل هي الوارد في حديث السجود: أمرت أن أسجد على سبعة أعظم..الحديث، وهي السبعة المتوصل بها إلى المقاصد والمفاسد غالباً، وهي: اليدان والرجلان، والعينان واللسان، أو غير ذلك. محل بحث؟". اهـ، ونقله أيضاً التتائي في شرح خطبة "المختصر".

قلت: والظاهر أن المراد بها: الجوارح الكواسب التي يكسب بها الخير والشر، وهي: البطن والفرج، واللسان والعينان، والأذنان واليدان، والرجلان. وقد ورد أن: من أطاع الله تعالى بجارحةٍ منها؛ غلقت عنه بابٌ من أبواب النار، ومن عصى الله تعالى بجارحةٍ منها؛ فتحت له بابٌ من أبواب النار. أعاذنا الله منها، وألهمنا رشدنا بمنه.

الفائدة الخامسة: [الجماد يشهد للناطق بالشهادتين يوم القيامة]

حكى الإمام الرازي أن رجلاً كان واقفاً بعرفات وفي يده سبعة أحجار،

فقال: "يا أيتها الأحجار؛ اشهدوا لي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنام فرأى كأن القيامة قد قامت، وحوسب فوجبت له النار، فلما ساقوا به إلى بابٍ من أبواب جهنم؛ جاء حجرٌ من تلك الأحجار السبعة، وألقى نفسه على ذلك الباب، فاجتمعت ملائكة العذاب على رفعه، فما قدروا، ثم سيق به إلى الباب الثاني، فكان الأمر كذلك. . .وهكذا في الأبواب السبعة، فسيق به إلى العرش، فقال سبحانه: "عبدي؛ أشهدتُ الأحجار فلم تضيع حقك، وأنا شاهدٌ على شهادتك على توحيدي، ادخل الجنة!". فلما قرب من أبواب الجنة؛ فإذا أبوابها مغلقةٌ؛ فجاءت شهادة أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله؛ ففتحت الأبواب ودخل.

قلت: ويدل لهذه الحكاية: حديثان شريفان:

أحدهما: قوله ﷺ: "لا يسمع مدا صوت المؤذن حجر ولا شجرٌ، ولا رطبٌ ولا يابسٌ، إلا شهد له يوم القيامة". أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما.

ثانيهما: حديث البطاقة والسجلات المشهور؛ وهو: ما أخرجه الترمذي وقال: "حسنٌ غريبٌ"، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي عند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً: "إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، فيقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟، أظلمك كتبتي الحافظون؟. فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذرٌ؟. فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى؛ إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلم عليك، فتخرج بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا رب؛ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟.! فيقول: إنك لا تُظلم. فتوضع السجلات في كفةٍ، والبطاقة في كفةٍ؛ فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء".

ويدل لقوله: "فجاءت الشهادة ففتحت الأبواب": حديث: "مفتاح الجنة: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله". كما مر.

الفائدة السادسة: [قصة في الموضوع]

قال بعض شراح "المختصر" : "اتفق أن كافراً كان يؤذن في مسجدٍ، وكان إذا وصل إلى قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله. ﷺ؛ يقول: وأجحد. ثم إن الملك رأى النبي ﷺ يقول له: اقتل فلاناً المؤذن.! فلما أصبح؛ أمر بإحضاره وأراد قتله، فشهد الناس فيه بالخير، فتركه. ثم إن الملك رأى النبي ﷺ وأمره بقتله، فأحضره أيضاً وأراد قتله، فشهد الناس فيه بالخير، فتركه. فأمره المرة الثالثة، وقال له: لا بد أن تقتله.! فأحضره وقال له الملك: لا بد من قتلك. فقال له الرجل: من يأمرك بقتلي؟. فقال له: رسول الله ﷺ. فعند ذلك تشهد الرجل شهادة الحق، وأخبر أنه كان كافراً، وأنه كان إذا وصل إلى قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله، قال: وأجحد". اهـ.

الفائدة السابعة: [الدواب تدعو للنطق بالشهادتين]

قال في "الفتوحات الوهبية" ما نصه: "روى محمد بن آدم، قال: رأيت بمكة أسقفاً يطوف بالكعبة، فقلت له: ما الذي نزعك من دين آبائك؟.! قال: تبدلت خيراً منه. فقلت: وكيف ذلك؟. فقال: ركبت البحر، فلما توسطناه؛ انكسر المركب، فلم تزل الأمواج تدافعني حتى رمتني في جزيرةٍ من جزائر البحر، فيها أشجارٌ كثيرةٌ، ولها ثمرٌ أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وفيها نهرٌ عذبٌ. فحمدت الله على ذلك، وقلت: آكل من هذا الثمر، وأشرب من هذا النهر حتى يقضي الله بأمره. فلما ذهب النهار؛ خفت على نفسي من الوحش، فطلعت على شجرةٍ ونمت على غصنٍ من أغصانها".

"فلما كان جوف الليل، وإذا بدابةٍ على وجه الماء تسبّح الله تعالى وتقول: لا إله إلا الله العزيز الجبار، محمدٌ رسول الله النبي المختار، أبو بكرٍ الصديق صاحبه في الغار، عمر الفاروق فاتح الأمصار، عثمان القتيل في الدار، علي سيف الله على الكفار، فعلى مبغضهم لعنة العزيز الجبار، ومأواه النار وبئس القرار...ولم تزل تكرر هذه الكلمات إلى الفجر".

"فلما طلع الفجر؛ قالت: لا إله إلا الله الصادق الوعد والوعيد، محمدٌ رسول الله الهادي الرشيد، أبو بكرٍ السديد، عمر بن الخطاب سورٌ من

حديد، عثمان الفضيل الشهيد، علي بن أبي طالب ذو البأس الشديد، فعلى مبغضهم لعنة الرب المجيد..".

"ثم أقبلت إلى البر، فإذا رأسها رأس نعامةٍ، ووجهها وجه إنسان، وقوائمها قوائم بعير، وذنبها ذنب سمكة.!!! فخشيت على نفسي الهلكة، فهربت، فنطقت بلسانٍ فصيح، فقالت: يا هذا؛ قف، وإلا تهلك.! فوقفت، فقالت: ما دينك؟. فقلك: دين النصرانية. فقالت: ويلك؛ ارجع إلى دين الحنيفية، فقد حللتَ بفناء قومٍ من مسلمي الجن لا ينجو منهم إلا من كان مسلماً.! قلت: وكيف الإسلام؟. قالت: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقلتها، فقالت: أتم إسلامك بالترحم على أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم. فقلت: من أتاكم بذلك؟. فقالت: قومٌ منا حضروا عند رسول الله ﷺ، سمعوه يقول: إذا كان يوم القيامة؛ تأتي الجنة فتنادي بلسانٍ فصيحٍ: إلهي؛ قد وعدتني أن تشيد أركاني، فيقول الجليل جل جلاله: شيدت أركانك بأبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وزينتك بالحسن والحسين".

"ثم قالت الدابة: أتريد أن تقعد هاهنا أم الرجوع إلى أهلك؟. فقلت: الرجوع إلى أهلي. فقالت: اصبر حتى تمر بك مركب، فبينما نحن كذلك، وإذا بمركب أقبلت تجري، فأومأتُ لها، فدفعوا لي زورقاً، فركبت فيه، ثم جئت إليهم، فوجدت المركب فيها اثنا عشر رجلاً كلهم نصارى، فقالوا: ما الذي جاء بك إلى هاهنا؟. فقصصت عليهم قصتي، فتعجبوا من ذلك، وأسلموا كلهم ببركة رسول الله ﷺ". اهـ.

قلت: وقد ورد أن على أركان الحوض الأربعة: الخلفاء الأربعة؛ فمن أبغضهم أو واحداً منهم لم يشرب منه. وورد في الحسن والحسين أنهما سيدا شباب أهل الجنة كما في الصحيح، وذلك شاهد في الجملة لما ذكر في هذه القصة...والله أعلم.

الفائدة الثامنة: [جواب دعوى ثقل تكرار الصلاة عليه ﷺ في المجلس]

قال بعض من لا يفهم: "إنه يلزم القارن بين الكلمتين: الصلاة عليه ﷺ،

وكذا من سمعه في كل مرة؛ لعموم الأمر بذلك، ولا يخفى ما في ذلك من الحرج المرفوع عن هذه الأمة ببركة نبيها ﷺ".

قلت: هذا الكلام يدل على جمود قريحة قائله، وعدم فهمه:

أما أولاً؛ فإنه لا حرج في ذلك ولا مشقة أصلاً، وأي مشقةٍ في قول الإنسان: ﷺ عقب قوله: محمدٌ رسول الله. وكذا سامعه؟. وتجد الرجل يستغرق الأوقات المتطاولة في الكلام الذي لا يجدي له نفعاً أصلاً، بل ربما كان وبالاً عليه؛ من كذبٍ وغيبة..ونحو ذلك، ولا يمل من ترديد ذلك وكثرته، لا هو ولا جلساؤه، بل يتفكهون به ويتلذذون، فإذا جاء إلى ما يرضي الله ورسوله، وما هو كفيلٌ بكل خيرٍ دنيوي وأخروي؛ تراه يتعلل بهذه العلل الخاوية، مما يلقيه الشيطان إليهم، ويثقل عليهم ذلك.

ولكن صدق أرباب القلوب حيث قالوا: "إذا التبس عليك أمران؛ فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإن الخير فيه".

وأما ثانياً؛ فعلى فرض أن في ذلك حرجاً ومشقةً، فقد قال الجمهور: "إنما تجب الصلاة عليه ﷺ إذا تكرر ذكره مرةً واحدةً، وما زاد عليها فمستحبٌ".

وإن كان ذهب جماعةٌ من الأيمة إلى وجوبها في كل مرةٍ متى ما ذكر، وهو قولٌ قوي جداً؛ اختاره من كل مذهبٍ من المذاهب الأربعة أيمةٌ؛ فمن المالكية: الطرطوشي وابن العربي، واللخمي والفاكهاني...وغيرهم. ومن الشافعية: أبو إسحاق الأسفرايني وأبو حامد الأسفرايني، وأبو حامد الغزالي والحليمي. ومن الحنفية: الطحاوي. ومن الحنابلة: ابن بطة.

وهو الذي تدل له الأحاديث الكثيرة؛ كحديث: "من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليّ؛ فقد شقي". أخرجه ابن السني عن جابر. وحديث: "من ذكرت عنده فخطيْ الصلاة علي؛ خطئ طريق الجنة". أخرجه الطبراني في "الكبير" بسندٍ حسن عن الحسين بن علي.

وحديث: "ناداني جبريل من تلقاء العرش؛ فقال: يا محمد؛ يقول لك الرحمن عز وجل: من ذكرتَ بين يديه فلم يصل عليك؛ دخل النار". أخرجه

الديلمي عن عبد الله بن جراد. وحديث: "من نسي الصلاة عليَّ؛ أخطأ طريق الجنة". أخرجه ابن ماجه بإسنادٍ حسن، وأبو نعيم في "الحلية" من حديث ابن عباس.

قال في "مطالع المسرات": "من تركها - أي: الصلاة - فبالحقيقة إنما ترك طريق الجنة؛ إذ لا تنال ولا تُدخل إلا بواسطته ﷺ. ثم قال: قال ابن حجر: وقد تمسّك بالأحاديث الصحيحة المذكورة من أوجب الصلاة عليه كلما ذكر؛ لأن ذلك يقتضي الوعيد، والوعيد على الترك من علامات الوجوب. وأيضاً؛ فالأمر بالصلاة عليه ﷺ لمكافأته على إحسانه، وإحسانه مستمر". اهـ.

وقيل: "إن الصلاة عليه ﷺ واجبةٌ مرةً واحدةً في العمر، وما زاد عليها؛ فمستحب". وهو قول الإمامين مالك وأبي حنيفة رضي الله عنهما.

وقيل: "يجب الإكثار منها، لا حدٍ، ما لم تحصل مشقة". حكاه القاضي عياض في "الشفا" عن القاضي أبي بكر ابن بكير من المالكية.

وقيل: تجب في دعاء الافتتاح في الصلاة، وهو لبعض الحنابلة. قال بعض أهل الحقائق: "وما أنسبَهُ بحال الصلاة ومعناها وأسرارها؛ فإن المصلي يناجي ربه، ولا تمكن مناجاته تعالى إلا بواسطته ﷺ، فناسب أن يثني عليه عند مواجهته له. ولهذا شرع السلام عليه في التشهد، وقيل: تجب في التشهد الأخير من الصلاة، ومن تركها بطلت صلاته. وهو: قول الإمام الشافعي والإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، ورواه البيهقي عن الشعبي وأبي جعفر محمد الباقر، وصوبه الدارقطني ومحمد ابن كعب القرظي ومقاتل. وقال به من الصحابة: عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعبد الله بن مسعود، وأبو مسعود البدري رضي الله عنهم.

وقال به من المالكية: ابن الموّاز، وصححه ابن العربي في "الأحكام" وفي "سراج المريدين". قال في "الشفا": وحكى ابن القصار وعبد الوهاب أن ابن المواز يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي". اهـ.

وصححه ابن الحاجب في مختصره، وقال ابن عبد السلام: "هو ظاهر

كلام ابن المواز"، وحكاه في "الشفا" عن أبي يعلى العبدي المالكي، ونحوه له في "شرح مسلم". ووجهه ابن القصار في كتابه "عيون الأثر" بأن: "الصلاة لما تضمنت ذكر الله تعالى وتمجيده، كما في فاتحة الكتاب؛ وجب أن يذكر فيها الصلاة والسلام على الرسول ﷺ حتى لا تخلو الصلاة عن ذكره مع الله تعالى، كما في الأذان والإقامة". اهـ والله أعلم.

الفائدة التاسعة: [مواضع تكره فيها الصلاة على النبي ﷺ]

عندنا مواضع تكره الصلاة فيها على النبي ﷺ مع ورود الأمر بذكر الله تعالى فيها. جمعها بعضهم في بيتٍ مشيراً بالحرف الأول من كلماته إليها، فقال:

على عاتقي حَمَلْتُ ذنب جوارحي   تعبت بها، واللهُ للذنب غافر

فالعين الأولى: للعثرة. والثانية: للعطاس. والحاء: لقضاء حاجة الإنسان. والذال: للذبح. والجيم: للجماع. والتاء: للتعجب. والباء: للبيع. وزاد بعضهم: أنها تكره في الأزقة والطرقات، وأنه يستحب لها المكان الطاهر، وأن تكون على أكمل الحالات من الطهارة حساً ومعنى. وتكره أيضاً في الحمام؛ لأنه محل الأقذار والأوساخ. قلت: ويظهر - والله أعلم - تقييده بداخله دون خارجه، كالجلسة، قياساً على الصلاة المفروضة.

وعند التسمية على الطعام، ومواضع اللهو والبدع؛ كاللعب في الأعراس ونحوها، وعند الغضب؛ كأن يقال له: صلِّ على النبي. كما يفعله كثيرٌ من الجهال، وهو محرم؛ خوفاً أن يحمله الغضب على ما لا يجوز. حكاه النووي في "الأذكار" عن بعضهم، وأقره.

قال الرصّاع: "ويلحق بهذا عندي: ما يصدر من العامة في الأعراس ونحوها؛ فإنهم يشهرون أفعالهم للنظر إليها بالصلاة على النبي ﷺ، مع زيادة عدم الوقار والاحترام، بل بضحكٍ ولعب". اهـ. قال الحطاب بعد نقله: "بل يذكرون ذلك بلفظٍ محرفٍ إن قصدوا معناه كفروا، فإن كثيراً من الناس يكسرون السين من السلام. نعوذ بالله من ذلك". اهـ. فهذه المواطن ونحوها مستثناةٌ من عموم ذكره ﷺ حيثما ذُكر الله تعالى. والله أعلم.

وزاد بعضهم: عند إقامة الصلاة؛ فقال: "إنها عندها خلاف الأولى؛ لأن المبادرة بالصلاة أفضل".

قلت: وفيه نظرٌ من وجهين:

أحدهما: أن الصلاة عليه ﷺ عند إقامة الصلاة لا تفوّت المبادرة بالصلاة كما هو ظاهرٌ.

ثانيهما: أن الإقامة مشتملةٌ على ذكره ﷺ، والصلاة عليه ﷺ عند ذكره وسماع اسمه الشريف مطلوبة إجماعا، وإنما الخلاف: هل طلبها على جهة الوجوب؟. وهو ظاهر الأحاديث، واختاره جماعةٌ من المذاهب الأربعة كما مر. أو على جهة الاستحباب؟. وهو المشهور بتأمله.

ثم ما ذكرناه من كراهة الصلاة عليه ﷺ عند التعجب؛ نص عليه سحنون وغيره من المالكية، وقال الحليمي من الشافعية: "إن الصلاة عند التعجب تقال بلا كراهة؛ لأنه ﷺ أعظم المخلوقات وأعمها". نقله الشهاب الخفاجي في شرح "الشفا"، ونقله عنه في شرح "التثبيت"، وزاد عقبه ما نصه: "ونقل الشيخ أبو الحسن المصري في شرح "الرسالة" عن شيخه الجلال السيوطي أنه: نقل قولاً بجواز الصلاة عند التعجب، ولم يسم القائل بالجواز". اهـ لفظه.

قلت: يمكن - والله أعلم - الجمع بين القولين بحمل الكراهة على: ما إذا كان التعجب من شيء مما يرجع لأمور الدنيا وأحوالها، كما هو الغالب، ويحمل القول بالجواز على التعجب مما يرجع لأمور الآخرة والتفكير في مصنوعات الله وعجائب قدرته، ونحو ذلك. بدليل قول الحليمي؛ لأنه ﷺ أعظم المخلوقات وأعمها. فتأمل ذلك. والله أعلم.

وما ذكرناه - أيضاً - من كراهة الصلاة عليه ﷺ عند الذبح؛ صرح به ابن ناجي، والشيخ يوسف بن عمر، والشيخ زرّوق في شروحهم على "الرسالة"، ونص عليه في "المدونة"، ونقله الشيخ أبو الحسن الزرويلي عن ابن القاسم، ونقله القاضي عياض في "الشفا" عن ابن حبيب، وهو مذهب الأيمة الثلاثة: مالك وأبي حنيفة وأحمد رضي الله عنهم، وذهب الإمام الشافعي إلى

استحبابها عنده، وقال أشهب من المالكية: "إن شاء قال بعد التسمية: صلى الله على محمد؛ لأن الصلاة عليه ﷺ ليست تسميةً مع الله سبحانه". ونقله ابن حبيب عن أصبغ عن ابن القاسم أيضاً، نقله القاضي عياض في "الشفا"، وقال بعده: "ولا ينبغي أن تجعل الصلاة على النبي ﷺ فيه استناناً". اهـ، ونقله شارح "التثبيت".

قلت: وفي "إرشاد الساري" للإمام القسطلاني ما نصه: "وقال الشافعي فيما رويناه عنه: والتسمية في الذبيحة: بسم الله. وما زاد بعد ذلك من ذكر الله فهو خيرٌ، ولا أكره أن يقول فيها: صلى الله على محمد، بل أحب ذلك، وأحب أن يكثر الصلاة عليه؛ لأن ذكر الله والصلاة على محمدٍ عبادةٌ يؤجر عليها. وكأنه أشار إلى الرد على من كره ذلك عند الذبح، واستند إلى حديثٍ منقطع السند، تفرد به كذاب، أورده البيهقي". اهـ بلفظه.

قلت: وحديث البيهقي هذا: رواه في سننه الكبرى، والديلمي في "مسند الفردوس" بلفظ: "لا تذكروني في ثلاث مواطن: عند العطاس، وعند الذبيحة، وعند التعجب". وفي روايةٍ للبيهقي بسندٍ ضعيفٍ عن عبد الرحمن بن زيد مرسلاً: "لا تذكروني عند ثلاث: عند تسمية طعامكم، وعند الذبح، وعند العطاس".

وما ذكرناه - أيضاً - من كراهة الصلاة عليه ﷺ عند العطاس: صرح به ابن ناجي، والشيخ يوسف بن عمر، وتوقف الإمام مالك رضي الله عنه في الكراهة كما في "العتبية" في سماع أبي زيد من الجامع، وكما في "القول البديع" للحافظ السخاوي، وذهب إلى استحبابها عنده: أبو موسى المديني وجماعة.

ويدل له: ما رواه الديلمي في "مسند الفردوس" بسندٍ ضعيفٍ مرفوعاً: "من عطس فقال: الحمد لله على ما كان من حالٍ، وصلى الله على محمدٍ وأهل بيته. أخرج الله من منخره الأيسر طائراً يقول: اللهم اغفر لقائلها". وعطس رجلٌ عند ابن عمر رضي الله عنهما، فقال له ابن عمر: "لقد بخلت؛ هلا حيث حمدت الله تعالى صليت على النبي ﷺ؟". رواه البيهقي.

وروى الطبراني بسندٍ ضعيفٍ عن ابن عمر ما يخالف هذا؛ وهو: أن رجلاً عطس بجنب ابن عمر، فقال: "الحمد لله والسلام على رسول الله ﷺ". فقال له ابن عمر: "وأنا أقول: السلام على رسول الله ﷺ، ولكن ليس بهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول إذا عطسنا، أمرنا أن نقول: الحمد لله على كل حالٍ". نقله شارح "التثبيت"، وقال بعده ما نصه: "وكذا قال جماعة: لا تستحب، وإنما هو موضع حمد لله تعالى وحده، ولكل موطن ذكر يخصه، لا يقوم غيره مقامه". اهـ.

قلت: والحديث المتقدم عند البيهقي والديلمي شاهدٌ لذلك لولا ضعفه، والله تعالى أعلم.

لطيفة: إن قلت: لم كان ذكر الله تعالى مندوباً إليه ومرغّباً فيه في جميع الأحوال كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ ..الآية. [النساء: 103]، وقوله ﷺ: أذكر الله عند كل شجر وحجر. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، وذلك عام إلا في الكنيف ونحوه، فيكره على المشهور. قال في "المختصر": "وبكنيف نحى ذكر الله، بخلاف الصلاة على النبي ﷺ"، فقلتم بكراهتها في هذه المواطن ونحوها، فما الفرق بينهما؟، مع أنك قدمت أن الصلاة على النبي ﷺ من ذكر الله تعالى، وهو مما لا يتنازع فيه، فما باله مندوبٌ إليه هنالك دونها؟.

قلت: الجواب عن ذلك - والله أعلم - أن تقول: إن الفرق بينهما لمن تأمل ظاهرٌ، وذلك أن ذكر الله تعالى لما كان في معنى التضرع والابتهال إليه سبحانه، والعبد لا ينفك عن ذلك لحظةً ولا أقل منها، لما أنه فقيرٌ محتاجٌ مضطرٌ إليه تعالى مدى الأنفاس واللحظات، في جميع الأوقات والحالات؛ اغتفر له ذلك للضرورة، فضلاً منه تعالى ومنةً، وتوسعةً على عباده وعنايةً بهم ورأفةً ورحمةً، ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 178]، ثم جازى سبحانه على ذلك بأجمل عطاء وأفضل جزاء، فقال عز من قائل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

بخلاف الصلاة على النبي ﷺ؛ فإن المصلي عليه ﷺ وإن كان لا يستغني

عن مدده ﷺ لحظةً أيضاً، ولا أقل منها؛ فهو في الحقيقة قد أقيم في مرتبةٍ لو شعر بها لذاب خجلاً وحياءً، وهو أنه: جعل واسطةً بين ربه تعالى وبين نبيه ﷺ، يسأل من ربه العظيم أن يصلي على نبيه الكريم، وأن يزيد في قدره ودرجاته لما يعود عليه هو، ومحبةً فيه وامتثالاً للأمر بذلك. وإلا؛ فنبيه ﷺ غنيٌ بصلاة الله تعالى عليه قبل القبل إلى ما لا نهاية له عن صلاة كل أحدٍ من العالمين، من الأولين والآخرين.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فينبغي لهذا العبد الضعيف الذي هيئ لذلك ورشح له، عنايةً من الله تعالى به؛ أن يشعر نفسه بهذا المعنى حال الصلاة على حبيبه ﷺ، وحينئذٍ؛ يطلب منه - لا محالة - أن يكون على أكمل الحالات، وأجمل الهيئات: من الطهارة والنظافة، حساً ومعنىً، سيما مع ما ورد من أن الصلاة تعرض عليه ﷺ باسم صاحبها عيناً وزماناً، وهيئةً ومكاناً، ولم يرد مثل ذلك في ذكر الله عز وجل. بل قال ابن رشد: "في حمد العاطس وهو يبول ذكر الله إلى الله سبحانه، فلا يتعلق به من دناءة الموضع شيء، فلا ينبغي أن يُمنع من ذكر الله تعالى على حالٍ من الأحوال، إلا بنص ليس فيه احتمال". اهـ، نقله الحطاب في شرح "المختصر"، عند قوله: "وبكنيفٍ نحى ذكر الله"، وأقره. والله أعلم.

الفائدة العاشرة: [أحوال السلف وخشوعهم عند ذكر النبي ﷺ]

وهي خاتمة ما أذكره. منها فيما ثبت من حالة السلف الصالح رضي الله عنهم، وما كان يحصل لهم عند ذكره ﷺ، وسماع اسمه الشريف، أو قراءة حديثه الكريم، وما كانوا يجدونه عند ذلك من عظيم الهيبة والسكينة والوقار، والتذلل والخشوع والانكسار:

نقل في "الشفا" عن أبي إبراهيم التجيبي قال: "واجبٌ على كل مؤمن متى ذكره ﷺ أو ذُكر عنده: أن يخضع ويخشع، ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به"...

وفيها أيضاً: "وقال مالكٌ رضي الله عنه: ما حدثتكم عن أحدٍ إلا وأيوب

أفضل منه. قال: وحج حجتين؛ فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله النبي ﷺ؛ كتبت عنه".

"وقال مصعب بن عبد الله: كان مالكُ إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت؛ لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر - وكان سيد القراء - لا تكاد تسأله عن حديثٍ أبداً إلا يبكي حتى نرحمه".

"ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعابة والتبسم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارةٍ، وقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصالٍ: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل".

"ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ، فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبةً منه لرسول الله ﷺ".

"ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ؛ بكى حتى لا تبقى في عينيه دموعٌ. ولقد رأيت الزهري - وكان من أهنأ الناس وأقربهم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى فكأنه ما عرفك ولا عرفته".

"ولقد كنت آتي صفوان بن سليم - وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه. وروي عن قتادة أنه: كان إذا سمع الحديث؛ أخذه العويل والزويل".

"وعن عبد الله بن المبارك قال: كنت عند مالكٍ رضي الله عنه وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس؛ قلت له: يا أبا عبد الله؛ لقد رأيت اليوم منك عجباً.! قال: نعم؛ إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ".

"وقال ابن مهدي: مشيت مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديث،

فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي. وسأله جرير بن الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل: إنه قاضٍ. فقال: القاضي أحق من أُدّب. وذكر أن هشام بن الغازي سأل الإمام مالكاً عن حديثٍ وهو واقف، فضربه عشرين سوطا، ثم أشفق عليه، فحدثه عشرين حديثا. فقال هشام: وددت لو زادني سياطاً ويزيدني حديثا". اهـ كلام "الشفا".

فعليك - أخي - بسيرة سلفك الصالح رضوان الله تعالى عليهم؛ تفز بخير الدارين، وتكن لك وصلةٌ بروح العالم وغوث الثقلين، ﷺ وحسبك من هذا النمط الأدبي: ما نقله الشعراني وغيره عن الشيخ مكين الدين الأسمر، الذي شهد له الشيخ أبو الحسن الشاذلي بالخصوصية، قال: "دخلت مسجد نبي بالإسكندرية، فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصلي، عليه عباءةٌ مخططةٌ، فقال لي: تقدم فصلِّ. فقلت له: تقدم أنت فصل. قال: تقدم أنت فصل؛ فإنكم من أمة سيدنا محمدٍ ﷺ، لا ينبغي لنا التقدم عليه. قال: فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصليت. قال: فأنا أقول له بحق هذا النبي؛ إلا وهو قد وضع فمه على فمي إجلالاً للفظ النبي كي لا يبرز في الهواء.! قال: فتقدمت فصليت". اهـ.

فقف واعتبر بهذا التعظيم العظيم من خواص الخلق معه ﷺ، وإنما يعرف قدر ذوي الفضل ذووه. رزقنا الله حسن الأدب في كل موطنٍ وما يقتضيه، ومنّ علينا بمحبة هذا النبي الكريم واتباع سنته، وسلوك سبيل هديه وشريعته، وغمرنا في بحار فضله وعطفته، وحشرنا يوم الفزع الأكبر في حزبه وزمرته، وجعلنا من الواردين على حوضه والفائزين بطلعته، المحشورين في قبضته واللائذين بشفاعته، بفضله وكرمه. . .آمين.

وقد آن أن أثني عنان القلم، وأستغفر الله جل اسمه مما زلت به القدم، وأستمنحه القبول والعفو والعافية الدائمة في الدارين، والسلامة من كل شر، والغنيمة من كل بر وخير، وأسأله - جل لطفه - أن يجعل هذا الكتاب لنا ولكل من تهمم باكتتابه واكتسابه، وسيلةً لنيل رضى نبيه ﷺ وسبباً يصلنا

بأسبابه، وذخيرةً نجدها يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ونستعيذه - جل ذكره - من علمٍ لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ونفسٍ لا تشبع، وعملٍ لا يُرفع، فهْو الجوادُ الذي لا يخيّب من أمّله، ولا ينتصر من خذله، ولا يردُّ دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين[1].

قال مؤلفه العبيد الفقير الجاني: محمد الطاهر بن الحسن بن عمر بن الطايع بن إدريس بن محمد الزمزمي الحسني الإدريسي الكتاني، كان الله له في جميع موارده ومصادره: وافق الفراغ من تبييض هذا الكتاب، العذب المستطاب: ليلة الاثنين تاسع عشر شعبان الأبرك، عام 1335 من هجرة من خلقه الله تعالى على أجمل نعتٍ وأكمل وصفٍ، ﷺ، وشرّف وكرّم ومجد وعظم، وبارك وأنعم، وعلى آله وصحبه ذوي الشرف الأتم، عدد كلمات ربنا التامات. ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ . . .اهـ.

(1) هذه الخاتمة اقتبسها المؤلف - رحمه الله - من خاتمة "الشفا" للقاضي عياض رحمه الله تعالى.

تقريظ مصحح الطبعة الأولى محمد بن العربي أَشَرْقي

الحمد لله غافر الذنوب، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ طب القلوب، ومجلي الكروب، وعلى آله وأصحابه ما دام الشروق والغروب .

وبعد؛ فقد قابل كاتبه - سامحه الله بمنه - هذا التأليف، الذي هو للشريف الغطريف، الفقيه العلامة الدرّاكة، المحب الأديب، الناسك الحسيب، المُقدِس المرحوم بكرم الله تعالى وجميل منته؛ سيدي محمد الطاهر ابن الشريف الفقيه، العدل البركة؛ سيدي الحسن الحسني الإدريسي الكتاني، مع مبيضته المكتوبة بخط يده، فماثلها، عدى إسقاط بعض التخريجات في المبيضة المذكورة، قليلةٌ جدا؛ لعدم الإطلاع على محلها، المناسب لها، الذي قصده مؤلفها.

عبد ربه: محمد بن العربي أَشَرْقِي، لطف الله به. . .آمين.

فهرس المحتويات